الإنسان

والبحث عن المعنى

معنى الحياة والعلاج بالمعنى

تأليف : فيكتور فرانكل (جامعتا فيينا وهارفرد)
تقديم : جوردون أولبورت (جامعة هارفرد)
ترجمة : طلعت منصور (جامعة عين شمس)



مكتبة الأنجلو المصرية

الانسَان والبحَث عَن المعَنيَ

معنى الحياة والعلاج بالمعنى

مقدّمة في العِلاج بالمعَني
والتسامي بالنفسْ

فيكتور فرانكل

تحويل وإهداء

تحويل من كتاب مصوَّر والمراجعة الكاملة: «**محمد حسين**»، أسأل الله أن يتقبَّل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينتفع به العالمين من كل كفيفٍ وذوي الأبصار.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعَة الاولي

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

هذه ترجمة لكتاب:

- Viktor E. Frankl Man's Search for Meaning - an introduction to logotherapy. Allaha- bad: Better Yourself Books, 1974.

وتتضمن الترجمة كذلك، بالإضافة إلى هذا الكتاب، دراستين منشورتين في «مجلة علم النفس الإنساني:

«الاولي لمؤلف هذا الكتاب هذا الكتاب فيكتور فرانكل عن «التسامي بالذات كظاهرة إنسانية»، والثانية لأبراهام ماسلو كتعليق عليها:

- Viktor E. Frankl: Self - transcendence as a human Phenomenon. Journal of Humanistic Psychology, 1966, Fall, 97 - 106.

- Abraham H. Maslow: Comments on Dr. Frankl's paper. Journal of Humanistic psychology, 1966, Fall, 107 - 112.

دار القلم - الكويت - شارع السور - عمارة السور ص.ب ٢٠١٤٦ - هاتف ٤٢٥١٦٠ - برقيا توزيعكو

تقديم

الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز القوصي

(أستاذ علم النفس – بجامعة عين شمس)

طلب إليَّ صديقي الأستاذ الدكتور حسين مؤنس أن أجرى تقييما لأراء فرويد ليمكن نشره على الناس في احدى مجلات مصر العلمية. والأستاذ الدكتور/ مؤنس مؤرخ عالم مدقق معروف. فلما جمعت ما عندي من علم ومعرفة وخبرة وجدت أنني لا أملك الشجاعة الكافية للقيام بهذا العمل، لأن التراث الذي خلفه فرويد تراث غني واسع الأرجاء بعيد الاعماق، ولأن من ظهروا بعده لمخالفته بحق أو بغير حق نشروا بيننا بحوثا ودراسات واسعة الارجاء بعيدة الأعماق، وأن إجراء دراسة مقارنة بينها وبين أعمال فرويد أو بينها بعضها ببعضها الآخر عمل شاق لا يسهل إعطاءه كل حقه.

وحين طلب اليَّ الدكتور/ حسين مؤنس أن أجرى هذا التقييم حدث أني كنت بصدد مطالعة كتاب حديث في علم العلاج النفسي للأستاذ الدكتور / فكتور فرانكل الأستاذ بجامعة فيينا والذي دلني على هذا الكتاب مقال عن فكتور فرانكل نشرته مجلة تايم الأمريكية وقالت المجلة أن فكتور فرانكل يعتبر زعيم المدرسة النمساوية الثالثة في العلاج النفسي. أما المدرسة النمساوية الأولى فهي مدرسة فرويد والثانية مدرسة آدلر. وقد لفت نظري ما جاء في المجلة من أن فيينا التي أنجبت فرويد وأنجبت آدلر هي نفسها التي أنجبت فرانكل وما جاء فيها من أن فرانكل قد حدد مَعْلّما جديداً من معالم العلاج النفسي هو «العلاج بالمعني». وأساس هذا أن الإنسان إذا وجد في حياته معنى أو هدفا فإن معنى ذلك أن «وجوده» له أهميته وله مغزاه وأن حياته تستحق أن تعاش بل أنها حياة يسعى صاحبها لاستمرارها والاستمتاع بمغزاها.

أما الكتاب الذي أشرت اليه فهو كتاب نشره فرانكل في أواخر الخمسينات ووضع فيه قصة حبسه في السجن وتعذيبه في معسكر من معسكرات الاعتقال مما أقامه النازيون في الأربعينات. وحين تعرض فرانكل لهذا كان أستاذاً لعلم الأعصاب والعلم الطب النفسي بجامعة فيينا. وقد قصدت بقراءة الكتاب أمرين أحدهما أن أعيش المعاناة التي عاشها أستاذ من أساتذة علم النفس وثانيهما أن أطلع على ما نجم عن هذه المعاناة من آراء ونظريات وما يمكن أن ينجم عنها من فنيات.

والكتاب سجل لخبرة من أروع الخبرات البشرية فقد وجد نفسه صاحب القصة «نمرة» بعد أن كان «شخصا»، ووجد نفسه عاريا جائعا حافيا مجردا من كل شيء، ووجد نفسه وعلى جسمه بضعة خرق بالية أن بهذه الخرق جيبا وأن بالجيب قطعة من الخبز الجاف بقيت من شيء سابق يقال له طعام، ووجد نفسه يداعب بأطراف أصابعه قطعة الخبز عله يتبلع بها إذا لم يكن هناك ما يتبلع به. ووجد نفسه حين يساق في طابور السجناء أنه غير قادر على أن يطأ الأرض من شدة ما في قدمه من جروح وآلام. كذلك وجد نفسه حين ينحرك مع قطيع من السجناء هو هل بتحرك إلى فرن الإعدام أم إلى عمل يتلخص في نحت الصخر بالأظافر. لم يكن يعرف شيئا عن أهله: أبيه أو أمه أو أخواته أو زوجته واكتشف فيما بعد انهم قتلوا جميعا. ظل في المعسكر يعاني من الجوع والبرد والقسوة ومن توقع الإبادة في كل ساعة.

هذا وصف لبعض ما وقع له في المعسكر ولما أورده في الكتاب الذي بين يديك مما يعدل ألف مثل من ذلك الذي ذكرناه.

وقد حدث أن كنت أتحدث عن هذا الكتاب مع بعض شباب الأساتذة المشتغلين بعلم النفس وكان من بينهم الدكتور/ طلعت منصور الأستاذ المساعد بكلية التربية جامعة عين شمس والمنتدب لجامعة الكويت. فتحمس الدكتور/ طلعت للحصول على الكتاب ولقراءته ثم لترجمته إلى العربية ثم طلب مني الدكتور طلعت أن أطلع على الترجمة وأن أبدي رأيي فيها. وواقع الأمر

أنها ترجمة سليمة سلسة مستقيمة المعني وصادقة كل الصدق. فقد جاءت تعبيرا دقيقا عن كتاب فرانكل ثم أنها جاءت ترجمة عربية رصينة تقرأها فلا تحس أنها مترجمة، ذلك لأن الدكتور طلعت قرأ الكتاب واستوعبه واندمج فيه فبدا كأنما كان صادرا عنه، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حساسية المترجم لمشاعر الغير ووجداناتهم.

واعود للقصة التي يقصها فرانكل في كتابه فقد قرأتها أكثر من مرة، وأكثر من ذلك أني أفتح أي صفحة منها في أي وقت شئت لأقرأ بعضها واسترجع معناه إذ أني أعرف السياق معرفة جيدة؛ فهو بالنسبة اليّ كتابٌ يقرأ ككل ويقرأ أجزاءٌ، ولا بد أن يكون ذخيرة في مكتبة الكثيرين غيري.

وللكتاب ميزة كبيرة على ما سبق أن كتبه فرانكل ذلك أن فرانكل كتب أغلب كتبه الأولى باللغة الألمانية، وكتب هذا الكتاب الذي تضعه بين يديك بعد أن كان قد نضج وازداد عمقا وخبرة في نظريته التي يقوم عليها العلاج بالمعنى، وشرح فرانكل بعد القصة اسس نظرياته بناء على طلب مريديه، وجاءت نظريته في كتابه هذا أوضح مما جاءت في أي كتاب آخر له.

وبالكتاب مقدمة جميلة لجوردون أو لبورت يلخص فيها نظرية ويقيّمها، وبآخره مقالين أحداهما لفرانكل وثانيهما لأبراهام ماسلو العالم النفسي المشهور بنظرية الحاجات الانسانية.

ويتميز فرانكل بأنه لا يرفض نظريات من سبقوه أو عاصروه فهو لا يرفض نظرية فرويد القائمة على مبدأ اللذة وعلى أهمية الجنس وعلى صراعات الطفولة وعلى ضرورة توازن الأنا بين الأنا الأعلى والهو والواقع. وهو لا يرفض السعي للسيطرة والقوة كما يعرضه آدلر في نظرياته. لا يرفض فرانكل شيئا من هذا ولا ينكره، وكل ما ينادي به أن الإنسان إذا وجد معنى في أي جانب من جوانب حياته سواء أكان جنسا أو قوة أو ذرية أو خدمة عامة أو معاونة إنسانية فان هذا يكون هدفا يسعى إليه ويعيش من أجله. وقد وجد فرانكل معنى في المعاناة، بل إنه يعول عليها كثيرا في اشتقاق معني يعيش الانسان من أجله. كذلك وجد فرانكل في بعض الأحيان معنى في الموت إذ يموت المرء سعيدا من أجل معني ديني او روحاني أو وطني.

وبذلك جاءت أفكاره عن «معنوية المنشأ» وعن «التسامي» وعن «الغاية» مما يؤدي مما يسميه الفراغ الوجودي أو يملؤوه.

ويهتم فرانكل بالمستقبل أكثر مما يهتم بالماضي، اللهم الا إذا كان للماضي انعكاساته على المستقبل.

ويتلخص عمل المعالج في أن يستكشف الجوانب التي يمكن أن يكون لها معنى في حياة من يسمى بالمريض، وعلى المعالج أن يساعد المريض في تجميع هذه الجوانب وتعميقها وتحويلها لتكون له مصدرا من مصادر السعي والفاعلية والحيوية والاستمرارية ويجدر بي أن أذكر في ختام هذا التقديم أن فرانكل له عشرات الكتب والمقالات والأفلام وأشرطة التسجيل؛ غير أن أكثرها إمتاعا وأكثرها وضوحا كتابه الذي بين يديك ترجمته إلى العربية، فنرجو لك فيه كل منعة وكل فائدة.

والله ولي التوفيق

أبريل ١٩٨٢ م – جمادي الآخرة ١٤٠٢ هـ

. عبد العزيز القوصي

من كتبه الأخرى:

1) Psychology and Existentialism

2) The Will to Meaning

3) The Doctor and the Soul

4) The Unconscious God

5) Paradoxical Intention

6) The Philosophial Foundations of Logotherapy

تقديم
الأستاذ الدكتور/ جوردون أولبورت
(أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد)

دكتور فرانكل، مؤلف هذا الكتاب، كان في بعض الأحيان يوجه كطبيب نفسي إلى مرضاه، ممن يعانون من عديد من ألوان العذاب القاسية أو الضئيلة، السؤال التالي: «لماذا لم تنتحر»؟ ومن إجاباتهم يستطيع غالبا أن يجد الخط الذي يهديه الى علاجه النفسي: ففي حياة البعض، كان هذا الخط هو الحب الذي يربط الشخص بأبنائه؛ وفي حياة البعض الآخر، كانت هي الموهبة التي عليه أن يستخدمها؛ وبالنسبة للبعض الثالث ربما كانت هي الذكريات التي تستحق الاستبقاء. وتتمثل محاولة لمعالج في أن ينسج من هذه الخطوط الواهية الحياة محطمة نموذجا محكماً من المعنى والمسئولية – وهذه هي غاية العلاج بالمعنى وتحدياته، وهو الصيغة التي قدمها فرانكل للتحليل الوجودي الحديث.

وبعرض فرانكل في هذا الكتاب الخبرة التي آلت به إلى اكتشافه للعلاج بالمعنى. لقد وجد نفسه، كسجين مخضرم في معسكرات رهيبة للاعتقال، متجردا متعريا في وجوده. فوالداه وأخوه وزوجته قد لقوا حتفهم في معسكرات أو أرسلوهم إلى أفران الإعدام بالغاز، أي أن كل اسرته عدا أخته قد هلكت في هذه المعسكرات. وكل ما يملكه قد ذهب ادراج الرياح، كل قيمة قد تحطمت ليعاني من الجوع والبرد والقسوة، ومن توقع الإبادة في كل ساعة – إنسان هذا شأنه كيف يجد في الحياة ما يجعلها جديرة بالبقاء؟ هذا الطبيب النفسي الذي واجه شخصيا تلك الظروف الشاذة لهو طبيب نفسي جدير بأن نصغي اليه. لقد كان، بل إن كل شخص لينبغي أن يكون قادرا على أن يرى ظروف الحياة الانسانية بنظرة ملؤها الحكمة والرحمة. لقد جاءت كلمات الدكتور فرانكل لتدوي منتهى الأمان والصدق وبغاية العمق، لأنها تستند على خبرات عميقة لدرجة تجعلها بعيدة عن الغش والخداع. فما قرره يحظى بمكانة عظيمة وذلك بسبب موقعه الحالي في كلية الطب بجامعة فيينا، وبسبب شهرة عيادات العلاج بالمعنى وصيتها في أماكن كثيرة من العالم، وبسبب أنها تأسست على غرار نموذج «العيادة العصبية الشاملة» في فيينا.

ولا نملك في هذا الصدد الا أن نقارن أتجاه فيكتور فرانكل في نظريته وعلاجه بأعمال سالفه سيجموند فرويد. فكلاهما طبيبان تكرسا اساسا لمبحث في طبيعة الأمراض النفسية وعلاجها. يجد فرويد جذور هذه لاضطرابات المضنية في القلق الذي تسببه الدوافع اللاشعورية والمتصارعة. أما فرانكل فأنه يميز أشكالا عدة من المرض النفسي، وتتبع بعضا منها (الأمراض النفسية المعنوية المنشأ) لعزوه إلى فشل الشخص صاحب المعاناة في أن يجد معنى وإحساسا بالمسئولية إزاء وجوده. وإذا كان فرويد قد أهتم بالإحباط في الحياة الجنسية، فان فرانكل يهتم بالإحباط في «إرادة المعني». ونجد في أوربا اليوم تحولا ملحوظا عن فرويد، ونجد تبنيا واسع الانتشار لما يعرف ب «التحليل الوجودي» الذي يأخذ أشكالا متعددة متقاربة – ومن بينها مدرسة العلاج بالمعنى. ومما يميز نظرية فرانكل أنها نظرية متسامحة فهي لا تنبذ فرويد، ولكنها تبني بسرور فوق إسهاماته؛ كما أن فرانكل لا يدخل في عراك مع الأشكال الأخرى من العلاج الوجودي، وإنما يرحب بالتفاعل معها.

والقصة الحالية، رغم أنها قصيرة، إلا أنها مبنية بإحكام وبفن. لقد قرأتها مرتين في جلسة واحدة، ولم أستطع أن أتركها لبرهة واحدة. في ثنايا هذه القصة يعرض فرانكل لفلسفته عن العلاج بالمعنى، ويقدمها برفق وتدرج مع استمرار القصة. وحين ينتهي القارئ من الكتاب، فإنه يتحقق من أنه كان أمام دراسة موغلة في العمق، وليست مجرد حكاية مفجعة عن معسكرات الاعتقال.

فالقارئ يتعلم الكثير مما يحويه هذا الكتاب عن السيرة الذاتية للمؤلف. يعرف القارئ ما الذي يفعله الكائن الحي الإنساني حينما يتحقق فجأة من أنه «لا يملك شيئا يفقده عدا حياته المتعرية بطريقة تبعث على السخرية». وما يقدمه فرانكل من وصف للتدفق المختلط للانفعال والبلادة، إنما يستوقفنا كي ندرك كنهه. ففي هذه الحالة ينتاب الشخص في البداية برود مشوب بالدهشة إزاء قدره. ثم تراوده بسرعة أيضا استراتيجيات هادفة إلى المحافظة على بقايا حياته، رغم أن فرص البقاء ضئيلة. وما يخبره المرء في هذه الحالة من جوع ومذلة وخوف وغضب عميق من الظلم، قد أضحى أعباء يمكن تحملها بواسطة الصور التي تراود مخيلته عن الشخص المحبوب، أو بواسطة الدين، أو بواسطة أحساس عميق بالمرح والدعابة، أو حتى بواسطة النظرة إلى الجمال البريء للطبيعة – كشجرة، أو كغروب شمس.

لكن لحظات الارتياح هذه لا توفر الأساس لبناء إرادة الحياة الا ذا ساعدت الشخص (السجين) على أن يتوصل إلى إحساس أكبر انطلاقاً من معاناته البادية بالبلادة. هنا نقف على الفكرة الرئيسية للوجودية: فلكي تعيش عليك أن تعاني، ولكي تبقي عليك أن تجد معنى للمعاناة. وإذا كان هناك هدف في الحياة، فإنه يوجد بالتالي هدف في المعاناة وفي الموت. ولكن لا يوجد شخص يستطع أن يخبر الآخر بماهية هذا الهدف. فعلى كل شخص أن يكتشف هذا الهدف لنفسه، وأن يتقبل المسئولية التي تحددها إجابته عن ماهية هدفه. وإذا نجح في ذلك فإنه سوف يستمر في النمو رغم كل الهوان. وفي هذا الصدد نجد أن فرانكل تواق إلى أن يقتبس عن «نيتشه» عبارته التي تقرر: «أن من يجد سببا يحيا به، فإن في مقدوره غالبا أن يتحمل في سبيله كل الصعاب بأي وسيلة من الوسائل».

إن كل موقف في معسكر الاعتقال من شأنه أن يهدد السجين بفقدانه لتماسكه لنفسه. كذلك تخضع كل الأهداف المألوفة في الحياة للمسخ والأفول. أما ما يتبقى فهو «آخر ما في الحريات الانسانية» – قدرة الإنسان على «أن يختار اتجاهه من بين مجموعة من الظروف»، هذه الحرية الغائية، التي أعترف بها الفلاسفة الرواقيون القدامى وكذلك الوجوديون المحدثون، تحتل مكانة هامة في قصة فرانكل. فإذا كان المسجونون هم اشخاص عاديون فحسب، فإن بعضهم على الأقل، باختيارهم أن يكونوا «جديرين بمعاناتهم»، قد أثبتوا مقدرة الإنسان على أن يعلو فوق قدره الخارجي.

والمؤلف كمعالج نفسي يريد، بطبيعة الحال، أن يعرف كيف يمكن مساعدة الإنسان على الوصول إلى هذه المقدرة الإنسانية المتميزة، ويفهم كيف يستطيع أن يوقظ في المريض الشعور بأنه مسئول أمام الحياة، مهما بدت ظروفه قاسية؟ يقدم لنا فرانكل أيضا بعض طرق العلاج الجمعي التي جربها مع زملائه المسجونين.

يضيف فرانكل، بناء على رجاء من الناشر، إلى سيرته الذاتية عن خبراته في معسكر الاعتقال جزءا آخر يعرض فيه للمبادئ الرئيسية للعلاج بالمعنى. وقبل ذلك كانت معظم الكتب والدراسات المنشورة عن «مدرسة فيينا الثالثة في العلاج النفسي» (قبلها مدرستا فرويد وآدلر) تصدر باللغة الألمانية أساسا. لذلك سوف يرحب القارئ بهذا الجزء المضاف عن المبادئ الرئيسية للعلاج بالمعنى.

ويعتبر فرانكل، خلافا للكثير من الوجوديين الأوربيين، ليس مفكرا متشائما ولا معاديا للدين. وعلى العكس من ذلك، فإن القارئ الذي يواجه كل المعاناة وقوي الشيطان، إنما يخرج بنظرة مفعمة بالرجاء والأمل في مقدرة الإنسان على أن يسمو فوق حالته ومتاعبه وأن يكتشف الحقيقة الملائمة الموجهة له.

وأني لأوصى من كل قلبي بقراءة. هذا الكتاب الصغير، لأنه عبارة عن درة نفيسة لقصة درامية، تلقي الضوء على أعمق المشكلات الانسانية. ولهذا الكتاب جدارته العلمية والفلسفية؛ ولذا يقدم لنا مدخلا حتميا لأعظم حركة في علم النفس في عالمنا المعاصر.

جوردون أولبورت

الجُزء الأول:
خبَرات في معسْكر اعتقال

لا ندعي بهذا الكتاب أن نقدم عرضا لعدد من الحقائق والوقائع وإنما نقدم لخبرات شخصية... خبرات يعانيها ملايين المسجونين من وقت، لأخر. الكتاب الحالي قصة داخلية لخبرات في معسكر اعتقال. رواها أحد نزلائه الذين بقوا فيه على قيد الحياة. وهي قصة لا تهتم بأحداث الرعب والفزع الهائلين، مما جرى وصفه بالفعل بدرجة كافية (رغم أنها قلما تصدق)، وإنما تهتم بألوان التعذيب الصغيرة والمتعددة. وبقول آخر، تحاول هذه القصة أن تجيب على السؤال التالي: كيف كانت الحياة اليومية في معسكر الاعتقال تنعكس في عقل السجين؟

لم تقع معظم الأحداث الموصوفة هنا في المعسكرات الكبيرة والمشهورة، ولكنها وقعت في المعسكرات الصغيرة حيث تجرى معظم عمليات الإبادة الحقيقية. هذه القصة ليست عن موت الأبطال والشهداء العظام ومعاناتهم، ولا عن رجال ال «كابو» Ca المشهورين – وهم المسجونين المعروفين جيداً. لذا لا تهتم هذه القصة كثيرا بمعاناة العظماء، ولكن تهتم بالتضحيات والمحن والموت لجيش ضخم من الضحايا غير المعروفين وغير المسجلين. لقد كانوا أولئك المسجونين العاديين، الذين لم يحملوا أية علامات مميزة على أكمامهم، وإنما كانوا في الواقع موضع ازدراء رجال الكابو، وبينما كان لدى هؤلاء المسجونين العاديين القدر الضئيل مما يأكلونه أو لم يكن لديهم ما يقتاتونه، فإن رجال الكابو لم يتعرضوا للجوع قط؛ وفي الحقيقة أن الكثير من الكابو قد صارت حالتهم في المعسكر أحسن مما كانوا في حياتهم بصفة عامة. وغالبا ما كانوا أشد ضراوة من الحراس في معاملة المسجونين، فكانوا يكيلون لهم الضربات بقسوة مبرحة أكثر مما كان يفعل رجال ال «س س» (S. S.). وهؤلاء الكابو كانوا يختارون بالطبع من أولئك المسجونين الذين كانت أخلاقهم وخصلهم تقدم أساسا كافيا لقيامهم بتلك الإجراءات على نحو ملائم ومقبول؛ وإذا لم يذعنوا لما هو متوقع منهم، فانهم ينتقصون من رتبتهم على الفور. لذا سرعان ما غدوا أشبه برجال ال «س س» وآمري المعسكر، وربما يمكن تقييمهم وفقا لأساس سيكولوجي مماثل.

قد يكون من السهل بالنسبة للشخص الخارجي أن يحصل على تصور خاطئ لحياة المعسكر؛ وهو تصور يقوم على مزيج من العطف والشفقة، وعلى المعرفة القليلة مما يحدث من الكفاح الشاق من اجل البقاء؛ وهو الكفاح الذي يحتدم بين المسجونين، ويكون في العادة نضالا قاسيا من أجل الخبز اليومي ومن أجل الحياة ذاتها؛ كل ذلك في سبيل الشخص ذاته أو في سبيل صديق حميم.



ولنأخذ حالة الاقصاء والنقل التي كان يعلن عنها رسميا لترحيل عدد معين من المسجونين إلى معسكر آخر؛ وهي حالة تنطوي على تخمين صادق إلى حد ما بأن المصير النهائي لهذا النقل هو غرف الإعدام بالغاز. كان يجري انتقاء المسجونين المرضى أو الضعاف غير القادرين على العمل ليرسلوا إلى أحد المعسكرات الرئيسية الكبيرة المعدة إعداد جيدا بغرف الاعدام

بالغاز وبأفران احراق جثث الموتى. وكانت عملية الانتقاء هذه بمثابة إشارة القيام حرب حرة بين كل المسجونين، أو بين مجموعة ومجموعة. فكل ما كان يرجوه الواحد هو أن يشطب اسمه واسم صديقه من قائمة الضحايا، رغم أن كل فرد كان يعرف أنه مع كل شخص يتم انقاذه توجد ضحية أخرى تحل محله.

وقد كان هناك عدد محدد من المسجونين لا بد أن يذهب مع كل عملية ترحيل ونقل. ولم يكن مُهِمًا من الذي يقع عليه الاختيار بالترحيل، طالما أن كل واحد منهم ليس الا رقما من الأرقام. فعند إدخالهم المعسكر (وكانت هذه هي الطريقة المتبعة على الاقل في معسكر آوشويتز) كانت تؤخذ منهم كل وثائقهم، وأي أشياء أخرى تكون في حوزتهم. لذا كان أمام كل سجين فرصة لكي ينتحل لنفسه إسما أو عملا أو مهنة وهمية؛ ولأسباب عديدة لجأ كثير منهم إلى ذلك. وكان اهتمام السلطات موجها إلى أرقام الاسري دون غيرها. وهذه الأرقام كانت تطبع غالبا كوشم على جلدهم، كما تحاك أيضا على موضع معين من سراويلهم أو معاطفهم أو أي سترة يرتدونها. وأي حارس يود أن يوجه اتهاما ما أو ضربة ضد سجين فما عليه الا أن يحلق فقط في رقمه (وكم كنا نفزع لتلك النظرات القاسية!)؛ ولم يكن ليسال الشخص أبدا عن اسمه – فالرقم هو المهم.

نعود الآن إلى قافلة الرحيل، ونبدأ أول ما نبدأ بأن نذكر أنه لم يكن هناك وقت ولا رغبة في أن توضع المسائل المعنوية أو الأخلاقية في الاعتبار. فكان يسيطر على كل شخص فكرة واحدة فقط وهي: أن يظل على قيد الحياة من أجل الاسرة التي تنتظره في المنزل، وأن ينقذ أصدقاءه. لذلك كان عليه ألا يتردد في أن يتخذ الترتيبات اللازمة لأعداد سجين آخر، أو «رقم» آخر، ليأخذ مكانه في عملية الترحيل.

وقد كانت عملية اختيار رجال الكابو، كما سبق أن ذكرت، عملية سلبية؛ فلم يكن يختار لهذه المهمة الا أكثر المسجونين شراسة ووحشية (رغم وجود بعض الاستثناءات الطيبة). ولكن بجانب عملية انتقاء الكابو مما كان يجري تحت اشراف ال «س س»، كانت هناك عملية انتقاء ذاتي مستمرة طيلة الوقت بين كل المسجونين. بصفة عامة، كان أولئك المسجونين الذين بقوا على قيد الحياة – بعد سنوات من التنقل من معسكر لأخر – هم فقط أولئك الذين فقدوا كل رجاء في نضالهم من أجل الوجود. لقد كانوا على استعداد لاستخدام كل وسيلة، شريفة وغير شريفة، وللجوء إلى القوة الوحشية، والسرقة أو الخيانة لأصدقائهم، وذلك لأجل انقاذ أنفسهم. أما نحن الذين قدرت لهم العودة، بفضل مصادفات سعيدة أو معجزات كبيرة – مهما سميناها – فإننا نعرف: أن أفضل الأشخاص منا لم تقدر لهم العودة.

بين الذاتية والموضوعية

والواقع أن الكثير من الأوصاف الحقيقية عن معسكرات الاعتقال محفوظة في سجلات بالفعل. غير أن هذه الحقائق لن تكون ذات دلالة الا بقدر ما ينظر اليها كجزء من خبرات الشخص. والذي تحاول الدراسة التالية أن تصفه هو الطبيعة الحقيقية لهذه الخبرات. وسوف تحاول هذه الدراسة تفسير خبرات نزلاء المعسكر في في ضوء المعرفة اليومية الحالية. أما أولئك الذين لم يخبروا حياة المعسكرات، فقد تساعدهم هذه الدراسة على فهم خبرات نسبة مئوية ضئيلة من المسجونين الذين بقوا على قيد الحياة والذين يجدون الحياة الآن صعبة للغاية. وغالبا ما يقول هؤلاء المسجونون السابقون: «اننا نبغض الحديث عن خبراتنا. ومن كان بداخل هذه المعسكرات ليس بحاجة إلى إيضاحات أو تفسيرات، أما الآخرون فسوف لا يفهمون ما كنا نشعر به آنذاك ولا كيف نشعر به الآن».

من الصعب جدا أن نحاول تقديم عرض منهجي للموضوع، ومعروف أن علم النفس يتطلب قدرا خاصا من التجرد العلمي.

ولكن هل يمكن للشخص السجين الذي يقوم بملاحظاته عن نفسه وهو سجين أن يمتلك هذا القدر الضروري من التجرد؟ آن مثل هذا التجرد موكول إلى الشخص الخارجي، وهذا الشخص بعيد عن الموقف ومعزول عنه لدرجة تجعل تعبيره بعيدا عن المطابقة للواقع وبذلك يفتقد قيمة الصدق؛ وبذلك يستبعد تجرد الشخص الخارجي تماما إمكانية التوصل الى تقريرات ذات قيمة حقيقية. فالذي يعرف الواقع هو الشخص الموجود بداخل المعسكرات. وهذا قد لا يكون موضوعيا في أحكامه أو معتدلا معقولا في تقييماته. وهذا أمر لا مفر منه، ومع ذلك فلا بد من القيام بمحاولة لتجنب أي تحيز شخصي – وتلك هي الصعوبة الحقيقية لكتاب من هذا النوع. ففي بعض الأوقات سيكون من الضروري أن نتذرع بالشجاعة كي نحكي عن خبرات شخصية للغاية. لقد قصدت أن أكتب هذا الكتاب خاليا من الاسماء، مستخدما رقمي في السجن لا غير. ولكن حينما تم استكمال المخطوط، رأيت أنه سوف يفقد نصف قيمته إذا نشر خاليا من الأسماء، وانه لذلك ينبغي أن تكون لدى الشجاعة أن أذكر ما اقتنعت به بصراحة تامة. ومن ثم فقد أحجمت عن شطب أية فقرة من الفقرات، رغم كراهيتي الشديدة للاستعراضية.

وسوف أترك هذا الكتاب للآخرين كي يقوموا بتقطير محتوياته وباعتصارها إلى نظريات خالية من التحيز. وقد تصبح هذه النظريات إسهاما لسيكولوجية حياة السجن، وهذه قد خضعت للبحث بعد الحرب العالمية الأولى، وعرفتنا بزملة «مرض الأسلاك الشائكة (Barbed Wire Sickness)». أما الحرب العالمية الثانية فاننا مدينون لها لأنها قد أغنت معرفتنا به «علم النفس المرضي للجماهير» (أو «سيكو باثولوجيا الجماهير») [1] ، لأن الحرب قد أعطتنا حربا للأعصاب كما أعطتنا معسكرا للاعتقال.

إرادة الحياة

ولما كانت هذه القصة عن خبراتي كسجين عادي، فمن الأهمية أن أذكر، وليس بدون فخر، أني لم أُستخدم للعمل كطبيب نفسي في المعسكر، أو حتى كطبيب عام، الا في الأسابيع القليلة الأخيرة. ولقد كانت هناك قلة من زملائي على درجة من الحظ كافية بأن تستخدم في مواقع رديئة التدفئة لتعمل في تقديم إسعافات أولية عن طريق عمل ضمادات من قصاصات فضلات الورق. ولكني أنا لم أكن سوى «الرقم» ١١٩ و١٠٤، وكنت في معظم الأوقات أقوم بالحفر لوضع العوارض الخشبية اللازمة لمد الخطوط الحديدية. وكان عملي في وقت من الأوقات هو أن أحفر نفقا، بدون أية مساعدة، لممر مائي تحت طريق من الطرق. هذا العمل البطولي لم يذهب هباء بلا جزاء؛ فقبل عيد الميلاد في عام 1944، تلقيت هدية يطلق عليها «جائزة الكوبونات». وقد منحت هذه الكوبونات لنا شركة للبناء، كان المعسكر قد باعنا فعلا إليها كعبيد: فقد دفعت الشركة لسلطات المعسكر سعرا ثابتا كل يوم عن كل سجين. وكانت الكوبونات تكلف الشركة خمسين «فنخ» (جزء صغير من المارك الألماني) لكل سجين، ويمكن أن تستبدل جميعها بست سجائر تبقى لعدة أسابيع، رغم أنها في بعض الأحيان كانت تفقد قيمتها بصفة نهائية. ولقد صرت الرابح الفخور بجزاء استحق اثنتا عشر سيجارة. ولكن ما هو أهم من ذلك، أن السجائر يمكن استبدالها باثني عشر طبقة من الحساء، وغالبا ما كان هذا القدر من الحساء إرجاء حقيقيا للموت من الجوع.

أما ميزة تدخين السجائر بالفعل فقد احتفظ بها رجل «الكابو» الذي كانت له حصته المضمونة من الكوبونات الأسبوعية؛ ومن الممكن للسجين الذي يقوم بعمل يشبه عمل رجل الاطفاء في إطفاء منزل أو متجر مشتعل مثلا، أن يتلقى بعضا من السجائر القليلة في مقابل إتيانه بأعمال خطرة. والاستثناءات الوحيدة من ذلك كانت أولئك الذين فقدوا إرادة الحياة وابتغوا أن «يستمتعوا» بأيامهم الأخيرة. لذلك، فعندما كنا نرى زميلا يدخن سجائره، فأننا كنا نعرف أنه قد فقد الثقة في قدرته على المواصلة؛ وعندما تُفقد الثقة، فان إرادة الحياة نادرا ما تعود.

★

الصدمة هي الطور الأول لردود الافعال العقلية

حينما يتفحص شخص القدر الهائل من المادة التي تكومت نتيجة لملاحظات كثيرة من المسجونين وخبراتهم، تتضح أطوار ثلاثة تمر بها ردود الأفعال العقلية لدى النزيل حيال حياة المعسكر: الفترة التي تعقب ادخاله المعسكر مباشرة؛ والفترة التي يكون فيها قد اندمج تماما في نظام المعسكر؛ ثم الفترة التي تعقب إطلاق سراحه وتحرره.

تتمثل الأعراض التي تميز الطور الأول فيما يمكن أن نسميه بمرحلة الصدمة. وفي ظروف معينة قد تسبق الصدمة الإلحاق الشكلي للسجين بالمعسكر. وسأعرض على سبيل المثال ما أحاط بي شخصيا من ظروف عند إدخالي إلى المعسكر.

جرى ترحيل خمسة عشر آلاف سجين بالقطار لعدة أيام وعدة ليال: وكان في كل عربة ثمانون شخصا، وكان على الجميع أن يستلقوا على حقائبهم، وهي البقايا القليلة المتبقية لهم من ممتلكاتهم الشخصية. وكانت العربات مكتظة ولم يبق الا الأجزاء العليا من النوافذ مما يسمح بدخول بصيص من ضوء الفجر. وقد توقع كل شخص أن يتوجه القطار الى أحد مصانع الأخيرة، حيث نستخدم للقيام بعمل بالإكراه. ولم نكن نعرف ما إذا كنا لا نزال في «سيليسيا» أم أننا نوجد بالفعل في بولندا. وكان لصفارة القاطرة صوت غريب، أشبه بصرخة من أجل النجدة تطلق كرثاء لحشد غير سعيد من الأدميين يساق كل منهم الى الهاوية، ثم تحول خط القطار، ليقترب بوضوح من محطة رئيسية. وفجأة تفجرت صرخة من بين صفوف المسافرين القلقين: «هناك ما يوحي بأننا في الآوشويتز!» في هذه اللحظة تهاوت ضربات قلب كل فرد. «الآشويتز» – اسم ينطوي على كل رعب وهلع: غرف الإعدام بالغاز، محرقات الجثث، والمذابح. وببطء، وغالبا بتردد، تحرك القطار كما لو أنه يريد أن يخفف عن ركابه ذلك المصير المفزع لأكبر فترة ممكنة بقدر الإمكان: الأوشويتز!

ومع توالي ضوء الفجر، غدت معالم معسكر هائل بادية للعيان: طرقات عديدة طويلة ممتدة ذات سياج من الأسلاك الشائكة، أبراج للمراقبة، أضواء كاشفة؛ وصفوف طويلة من نماذج بشرية تمكن منها الوهن والتمزق، تبدو باهتة في ضوء الفجر الشاحب، تتحرك عبر الطرق الممتدة المقفرة إلى مصير لا نعرفه. وكانت تتعالى صيحات الأوامر وصفير القيادة، ولم نكن ندرك معناها. وقد وصل بي تخيلي إلى أن أرى مشانق يتدلى أشخاص منها. وتملكني الرعب؛ ولكن أخذ هذا الإحساس ينجلي، لأنه كان علينا أن نتعود تدريجيا على الرعب والفزع الهائلين.

وفي النهاية تحركنا داخل المحطة. وأخذت الصيحات المتتالية بالأوامر تقطع ما عهدناه من سكون. وكان علينا من الآن فصاعداً أن نسمع تلك النبرات الفظة الصاخبة، ونسمعها على نحو متكرر مستمر في كل ارجاء المعسكر. وكان صوتهم في الغالب أشبه بالصيحة الأخيرة لضحية من الضحايا، وإن كان يوجد اختلاف في ذلك. فهو صوت أجش ذو خشونة فظة مثيرة للأعصاب، كما لو أنه يأتي من حنجرة شخص تعود على مثل هذا الصياح... شخص اعتاد القتل لمرات متكررة. وفجأة انفتحت أبواب العربة بعنف، وبدت مجموعة صغيرة من المسجونين في الاندفاع داخل العربة. وكانوا يرتدون زيا مجردا من الألقاب؛ رؤوسهم محلوقة، ولكنهم كانوا يبدون حسني التغذية. ويتكلمون بكل لغة أوربية ممكنة. وهم جميعا يبدون بقدر معين من المرح، وذلك مظهر غير طبيعي بالنسبة لهذه الظروف. وكإنسان غريق يتعلق بقشة، تشبث تفاؤلي الفطري (وهو إحساس غالبا ما ادى الى ضبط مشاعري حتى في معظم المواقف الباعثة على اليأس والقنوط) بهذه الفكرة: أن هؤلاء المسجونين يبدون في حالة حسنة، وبروح طيبة مرحة. فممن يعلم؟ ربما كان عليّ أن أتدبر كيف أشاركهم وضعهم الطيب.

الوهم

في الطب النفسي توجد حالة معينة تعرف ب «وَهْم الإبراء» (Delusion of Reprieve)، في هذه الحالة يتملك الشخص المدان، فورا قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه، شعور عام غامض يشبه الوهم بأنه سوف يجري انقاذه من الإعدام في اللحظة الأخيرة. ونحن أيضا كنا نتعلق بكل ما كان يوحي بالأمل، وكنا نعتقد إلى اللحظة الأخيرة بأنها لن تكون خاتمة سيئة. وقد كان مجرد القاء نظرة على الحدود المتوردة والأوجه المستديرة لهؤلاء المسجونين باعثا كبيرا على التشجع. ولم نكن نعلم عندئذ إلا لماما بأن هؤلاء الاشخاص يؤلفون صفوة مختارة بصفة خاصة، ظلت لعدة سنوات بمثابة الشرذمة التي تستقبل النزلاء المنفيين الذين يتدفقون على المحطة يوما بعد الآخر. وكانوا يتولون أمر العناية بالوافدين الجدد وبأمتعتهم، بما في ذلك الأشياء النادرة والمجوهرات المخبأة المهربة... لقد كان معسكر آشويتز بقعة غريبة في أوربا في السنوات الأخيرة للحرب، وذلك لما كان يحويه من كنوز فريدة من الذهب والفضة والبلاتين والماس، ولم يقتصر هذا على ما في المستودعات والمخازن الضخمة، وانما كان كذلك في أيدي رجال ال «س س».

كان على ألف وخمسمائة من الأسرى المقيدين أن يتجمعوا تحت سقيفة لم يقصد بها عند بنائها أن تتسع لأكثر من مائتي شخص. وقد تمكن البرد والجوع منا تمكنا شديدا، ولم يكن هناك موضع لقدم يسمح لكل فرد بان يجلس القرفصاء على الأرض المكشوفة أو يضجع عليها. وكان نصيبنا من الطعام في أربعة أيام كاملة هو عبارة عن قطعة من الخبز تزن حوالي خمس أوقيات. وقد سمعت المسجونين القدامى المشرفين على هذه السقيفة يساومون أحد أعضاء شرذمة الاستقبال على دبوس لرباط العنق مصنوع من البلاتين والماس. وقد كان يجري في النهاية مقايضة معظم المكاسب بأنواع معينة من الخمور. ولا أتذكر كم كان مطلوبا من آلاف الماركات الالمانية لشراء الكمية من الخمور اللازمة لإقامة «سهرة مرحة»، ولكني أعلم أن هؤلاء المسجونين المخضرمين كانوا في احتياج شديد لهذه الخمور. ومن ذا الذي يستطيع أن يلقي باللائمة عليهم في مثل ظروفهم لانغماسهم في إدمان الخمور؟ وكان هناك مجموعة أخرى من المسجونين الذين يحصلون على الخمور بكميات غير محدودة وذلك بواسطة رجال ال «س س»: هؤلاء المسجونين هم أولئك الأشخاص الذين يعملون في غرف الإعدام بالغاز ومحرقات جثث الموت، والذين يعلمون جيدا أنهم سوف يستبدلون بغيرهم، وأنه عليهم التخلي عن دورهم القوي كمنفذين وأن يصبحوا هم أنفسهم الضحايا.

ان كل فرد تقريبا من النزلاء المنفيين كان يعيش تحت سيطرة وَهْم بأنه سوف يفرج عنه وبأن كل شيء سوف يكون على ما يرام. ولم نكن لندرك المعنى الكامن وراء المشهد الذي يتبع الموقف الحاضر. فقد أمرونا بأن نترك أمتعتنا في القطار وبأن نصطف في طابورين – النساء في جانب والرجال في جانب آخر – وذلك لكي يستعرضهما ضابط كبير من رجال ال (س س). ومما يبعث على الدهشة تلك الشجاعة التي واتتني، حين قمت بتخبئة جراب المؤونة تحت معطفي. ومر الطابور الذي كنت فيه أمام الضابط رجلا بعد الآخر. وأدركت أنه من الخطر أن يكتشف الضابط حقيبتي. وأقل ما كان سيفعله بي هو أن يطرحني أرضا ويصرعني بوحشية – وهذا ما أعرفه من خبرتي السابقة. وبدافع غريزي، تمالكت نفسي واستجمعت شجاعتي حينما أوشكت على الاقتراب من الضابط، حتى لا يرى ما معي من حمل ثقيل. ثم أصبحت أمامه وجها لوجه. لقد كان رجلا طويل القامة، يبدو نحيلا ومنضبطا في زيه الملائم له. وكم كان ذلك على النقيض منا، فقد كان الوسخ والاهمال باديين بوضوح علينا بعد رحلتنا الطويلة! ولقد اصطنع هذا الرجل مظهرا يوحي بالطمأنينة وعدم الاضطراب، ساندا ساعده الأيمن على يده اليسرى. أما يده اليمنى فكانت مرفوعة؛ وكان بشير بأصبعه السبابة من اليد اليمني في تؤدة وهدوء ذات اليمين أو ذات اليسار. ولم يستطع أي شخص منا أن يتوصل إلى أبسط فكرة عن المعنى الشرير وراء تلك الحركة الصغيرة التي يأتيها هذا الرجل بأصبعه، مشيرا تارة صوب اليمين وأخرى صوب اليسار، وان كان، يشير في الغالب نحو اليسار.

جاء دوري. وقد همس أحد الأشخاص لي بأن إرسالي إلى الجانب الأيمن إنما يعني العمل، في حين أن الجانب الأيسر كان للمرضى والعاجزين عن العمل، وهؤلاء يرسلون إلى معسكر خاص. وما كان مني الا أن انتظر حتى تأخذ الأشياء مجراها. كان جراب المؤونة الذي أخفيه ثقيلا بحيث جعلني أميل قليلا إلى جهة اليسار، ولكني استجمعت كل قواي حتى أسير معتدلا في مشيتي. وتفحصني الضابط بنظرة بدا منها تردده، ثم وضع كلتا يديه على كتفي. وحاولت جاهدا أن أبدوا متماسكا، وأدار الضابط كتفي ببطء شديد حتى صارت وجهتي صوب اليمين الذي تحركت في اتجاهه.

إن مغزى حركة الإصبع قد جرى شرحه لنا في المساء؛ إذ كان هذا هو الانتقاء الأول أو الحكم الاول الذي صدر بشأن الوجود او عدم الوجود. لقد كان هذا الحكم يعني الموت بالنسبة للغالبية العظمى من الأسرى – ما يقرب من 90% منهم. وكان تنفيذ الحكم يتم في غضون الساعات القليلة التالية. فأولئك الأشخاص الذين أرسلوا نحو اليسار جري تسييرهم من المحطة رأسا إلى المحرقات. ولقد كان يعرف هذا المبنى الذي يتضمن المحرقات – كما ذكر لي أحد الأشخاص الذين عملوا به – بكلمة «حمام»، وهي مكتوبة على أبوابه بلغات أوربية عديدة. وعند دخوله، كان كل مسجون يحمل في يده قطعة من الصابون – ولكني إشفاقا مني على القارئ لا اريد وصف الأحداث التي تتبع ذلك. فهناك الكثير من الكتابات عن هذا الرعب.

أما نحن الذين كُتبت لهم النجاة – وهي القلة من الاسرى – فإننا اكتشفنا الحقيقة في المساء، وقد سألت مسجونين هناك لبعض الوقت إلى أين أرسل زميلي وصديقي «ب». فسألوني: «هل أرسل إلى الجانب الأيسر؟» فأجبتهم: «نعم».

فقالوا: «اذن تستطيع أن تراه هناك».

فسألت: «هناك.. أين؟» فأشارت يد الى مدخنة على بعد مسافة قريبة، ترسل عمودا من اللهب في سماء بولندا القائمة، وسرعان ما ينفك اللهب إلى سحابة كئيبة من الدخان.

«ذلك هو مكان صديقك، فهو يسبح صاعدا إلى السماء». وتلك كانت الإجابة. ولكني بقيت عاجزا عن الفهم والإدراك حتى شرحوا لي الحقيقة بكلمات صريحة واضحة.

ولكني حين أحكي فاني أتكلم عن أشياء بغير ترتيبها الصحيح. فمن وجهة النظر النفسية، كان أمامنا طريق طويل وطويل جدا من طلوع ذلك الفجر بالمحطة حتى أول ليلة لنا للبقاء بالمعسكر.

تحت حراسة مدججة بالسلاح، دفعنا الحراس إلى الهرولة من المحطة، عبر أسلاك شائكة مكهربة، واجتزنا المعسكر الى محطة التنظيف – وبالنسبة لمن اجتاز منا الاختيار الاول كانت محطة التنظيف هذه حماما حقيقيا واقعيا. ومرة أخرى نجد تأييدا لوهم الإبراء الذي يسيطر علينا. فقد بدا رجال ال «س س» بشوشين غالبا. وسرعان ما اكتشفنا سبب ذلك. فهم يظهرون لطفا ازاءنا طالما برون ساعات نلبسها في أيدينا، وهم يستطيعون اقناعنا بنبرات ذات معان طيبة لكي نعطيهم إياها. ولماذا لا نناولهم كل ممتلكاتنا؟ فقد يأتي يوم يقدمون فيه لنا خدمة مقابل ذلك.

وانتظرنا في سقيفة تبدو كمكان انتظار يؤدي إلى حجرة للتنظيف والتطهير. وظهر رجال الى «س س» وفردوا مناديل كان علينا أن نلقى فيها بكل ما لدينا من ممتلكات وساعات ومجوهرات. وكان من بيننا بعض من المسجونين السذج تساءلوا عما إذا كانوا يستطيعون الاحتفاظ بخاتم زواجهم او بميدالية أو بقطعة تذكارية مكتوب عليها «حظ سعيد». ولم يكن واحد يدرك الحقيقة بعد – والحقيقة أن كل شيء سوف يؤخذ منه.

وقد حاولت أن أكسب ثقة أحد المسجونين القدامى. اقتربت منه بخفة ومهارة، وأشرت إلى لفافة من الورق بالجيب الداخلي من معطفي وقلت: «أنظر، هذا مخطوط لكتاب علمي، وأعلم بما ستقوله، ولكني أكون شاكرا لو أنجو بهذا الكتاب مع حياتي، فهو كل ما يمكن أن أنتظره من قدري، ولا أستطيع ازاءه أن أتحكم في نفسي. وينبغي أن أحتفظ بهذا المخطوط مهما كلف ذلك؛ فهو يتضمن كل عملي في الحياة. هل تفهم ذلك؟»

«نعم» – لقد بدأ يفهمني. وظهرت على وجهه ببطء تكشيرة ساخطة، امتزجت في البداية بالشفقة، ثم الاستغراب، ثم الدهشة، ثم الاستهزاء، ثم السباب، حتى جأر بكلمة لي إجابة على سؤالي، وهي كلمة تشيع كثيرا في الألفاظ المتداولة بين نزلاء المعسكر: «اخرس». وفي تلك اللحظة رأيت الحقيقة المؤلمة وفعلت ما يتوج المرحلة الأولى من استجابتي النفسية: لقد ألقيت جانبا بكل حياتي السابقة ومحوته رغم كل إرادتي.

وفجأة صدرت حركة وسط زملائي المسافرين، الذين كانوا واقفين وكان يعلو وجوههم الوهن والخوف، ويتفكرون في الأمر مع إحساس بالعجز. ونسمع مرة أخرى صياح الأوامر التي تصدر بأصوات غليظة فظة. وساقونا بالركل واللطمات الى حجرة قريبة موصلة إلى الحمام. وهنا تجمعنا حول رجل من ال «س س» الذي انتظر حتى وصلنا جميعا. ثم قال: «سوف أعطيكم دقيقتين، وسوف أحسب الوقت بساعتي. وفي غضون هاتين الدقيقتين عليكم أن تخلعوا كل ملابسكم وتلقوا بكل شيء على الأرض حيث تقفون. وأنكم سوف لا تأخذون منها أي شيء معكم عدا الحذاء والحزام أو حمالة البنطلون. وها الآن سوف أبدأ في حساب الوقت!».

وبسرعة لا يمكن تصورها، قام هؤلاء الأشخاص بالتخلص من ملابسهم. وكلما اقترب الوقت، ازدادت عصبيتهم وصاروا يشدون الأحزمة إلى ملابسهم الداخلية في حركات مضطربة، وكذلك يشدون أربطة الحذاء. ثم سمعنا الأصوات الأولى الصادرة عن الجلد بالسياط، فهناك سياط جلدية كانت تنهال على الأجسام العارية.

بعد ذلك ساقونا كقطيع إلى حجرة أخرى لغرض الحلاقة: وهنا لم يمح الشعر من على رؤوسنا فحسب، بل لم يتركوا أيضا شعرة واحدة على كل أجسادنا. ثم اقتادونا إلى الدش، حيث تجمعنا في طابور مرة أخرى. وصار من الصعب أن يتعرف أحدنا على الآخر. وبارتياح كبير لاحظ بعضنا أن ثمة ماء حقيقيا يتساقط من الدش.

الوجود المتعري

وبينما كنا ننتظر الدش، أدركنا كنه عرينا: ففي الحقيقة ليس من شيء لدينا الآن عدا أجسامنا العارية – وهي اجساد متجردة حتى من شعرها – فكل ما نملكه على وجه التحديد هو وجودنا المتعري أو المتجرد. وهل هناك من أشياء أخرى تبقت لنا كوصال مادي مع حياتنا السابقة؟ بالنسبة لي كان كل ما تبقى هو نظارتي وحزامي؛ وفيما بعد كان على أن أستبدل حزامي بقطعة من الخبز. أما أولئك الذين يشدون على بعض مواضع من أجسادهم أحزمة، كأحزمة الفتق مثلا، فقد تعرضوا لإثارة زائدة. ففي المساء جاء السجين الأقدم المسئول عن مجموعتنا ليرحب بنا في كلمة ألقاها وأقسم فيها بأنه سوف يقوم شخصيا بشنق أي شخص على هذا العامود الخشبي» – مشيرا الى عارضة خشبية – ممن تسول له نسفه أن يخبئ نقودا أو مجوهرات أو أحجارا كريمة في حزامه. وأعلن باعتزاز أنه كنزيل مخضرم قد منحته قوانين المعسكر صلاحية لأن يقوم بذلك.

ثم جاء دور الأحذية، حيث لم تكن الأمور بكل هذه البساطة. فرغم افتراضنا بأننا سوف نحتفظ بها، فقد كان على أولئك الذين يمتلكون زوجا جيدا من الأحذية أن يسلموه ليأخذوا بدلا منه زوجا من الأحذية غير الملائمة. أما الصعوبة الحقيقية في

ذلك فقد تعرض لها المسجونون الذين استمعوا الى نصيحة حسنة المقصد من المسجونين القدامى في الحجرة التي تجمعنا فيها قبل دخول الحمام، والتي بناء عليها قاموا بتقصير الأحذية الطويلة والثقيلة بواسطة قطع الأجزاء العليا منها، ثم أزالوا آثار القطع لكي يخفوا ما فعلوه. أما رجال ال «س س» فقد بدوا كما لو كانوا ينتظرون هذه الفعلة. فكل من قام بارتكاب هذه الجريمة كان عليه أن يذهب إلى حجرة مجاورة، وبعد فترة سمعنا مرة أخرى ضربات السياط، وصرخات التعذيب لهؤلاء الأشخاص. وقد استغرق ذلك فترة غير وجيزة.

نمط غريب من المرح

وبهذا فان الأوهام التي كانت لا تزال تراود بعضنا قد أخذت تتحطم واحدة بعد الأخرى، ليحل بدلا منها عند معظمنا – وعلى نحو غير متوقع تماما – إحساس مروع بالفكاهة والمرح. فقد أيقنا تماما أن ليس لدينا ما نفقده عدا حياتنا المتعرية بشكل يبعث على السخرية. وحينما بدأ الدش يقطر ماء، حاولنا جميعا بصعوبة كبيرة أن نصطنع المرح، سواء نحو أنفسنا أو نحو بعضنا الأخر. فبعد كل ما حدث، فهناك ماء حقيقي ينساب من فتحات الدش!

من حب الاستطلاع الى الدهشة

وخلافا لهذا النوع الغريب من المرح، كان ثمة إحساس آخر يتملكنا: الا وهو حب الاستطلاع. وكنت قد خبرت هذا النوع من حب الاستطلاع من قبل، وكان ذلك كرد فعل اساسي حيال ظروف غريبة معينة. فحينما تعرضت حياتي ذات مرة للخطر من جراء حادثة تسلق، فقد شعرت بإحساس واحد في تلك اللحظة الحرجة: وهو حب الاستطلاع، وهو إحساس يتعلق بما إذا كنت سأخرج منها حيا أو أن رأسي سوف تدق فيها أو غير ذلك من الإصابات التي يمكن أن تنالني.

لقد سيطر علينا حب الاستطلاع البارد حتى في هذا المعسكر. وهو إحساس يعزل العقل على نحو ما من الظروف التي تحيط به والتي يجري اعتبارها بسبب هذا على أنها نوع من الموضوعية. وفي وقت كهذا كان يلجأ الإنسان إلى استزراع هذه الحالة العقلية كوسيلة للوقاية. ولقد كنا تواقين بقلق لكي نعرف ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك؛ وما الذي سينتج، مثلا، عن وقوفنا في الهواء الطلق أو في برد نهاية فصل الخريف، بأجسادنا العارية المبللة من الدش وهي تكاد أن تتخشب. وفي غضون الأيام القليلة التالية كان قد تحول حب استطلاعنا إلى نوع من الدهشة: دهشة تتعلق بالتساؤل التالي: «لماذا لم نصب بالبرد في كل هذه الظروف؟» وثمة أمثلة كثيرة مماثلة من الدهشة التي كانت تتملك النزلاء الجدد.

فقد عرف من كان بيننا من رجال الطب أولا وقبل كل شيء: «أن الكتب تحكي الأكاذيب»! يقال مثلا أن الإنسان لا يمكنه البقاء بدون نوم لعدد مقرر من الساعات. وهذا خطا تماما! لقد اقتنعت أن هناك أشياء معينة لا أستطيع أن أعملها: لا أستطيع النوم بدون هذا، أو لا أستطيع الحياة بدون هذا أو ذاك. ففي الليلة الأولى بهذا المعسكر خلدنا إلى النوم في فراش يتألف من طبقات. وعلى كل طبقة (ومقاسها من ستة ونصف قدم إلى ثمانية أقدام) يرقد تسعة رجال على الألواح الخشبية مباشرة. ويشترك كل تسعة في الغطاء ببطانيتين. وكان لزاما علينا، بطبيعة الحال، أن نرقد فقط على جنبنا، متزاحمين ومتراصين في مواجهة بعضنا للأخر. وكان لهذا بعض المزايا بسبب البرد القارس. ورغم أنه كان من المحظور علينا أن نأخذ الأحذية إلى أماكن مبيتنا، فان بعضنا قد استخدمها سرا كوسادة دون مراعاة لتلطخها بالطين. وخلافا لذلك كنا نضجع برؤوسنا على أذرعنا المعقوفة. ومع ذلك كان النوم يراودنا، وكنا نجد فيه النسيان للألم ونلوذ بالتخفف منه ولو لساعات قليلة.

وأود أن أذكر أمثلة قليلة أخرى تتعلق بالدهشة من قدرتنا على التحمل: فلم يكن باستطاعتنا تنظيف أسنانا، وأنه حتى رغم هذا، ورغم النقص الشديد في الفيتامينات، فقد كانت اللثة والأسنان عندنا أكثر صحة مما كان من قبل. وكان علينا أن نرتدي نفس قمصاننا لمدة نصف عام، إلى درجة أنها كانت تفقد كل معالم كونها قمصانا. وكانت تمر علينا أيام كثيرة لا نستطيع فيها أن نغتسل، حتى ولو جزئيا، بسبب تجمد المياه في الصنابير؛ ومع ذلك لم تتعرض الأيدي للتقرح برغم انتشار البثور عليها وحكها، وبرغم قذارتها من العمل في التراب. مثال آخر: الشخص خفيف النوم، والذي اعتاد على أن يضطرب نومه حال سماعه لأقل ضوضاء قريبة، يجد نفسه الآن راقدا في التصاق مع زميل له يبعث بشخيره في صوت عالي على بعد مسافة قصيرة من أذنه، ومع ذلك فانه يسلم نفسه للنوم تماما رغم كل هذه الضوضاء.

إذا سألنا أحد الأن عن عبارة «دوستويفسكي» وعن درجة مطابقتها للواقع، وهي العبارة التي تعرف الانسان بصراحة على أنه كائن حي في مقدوره أن يتعود على أي شيء، فإنه يمكن أن نرد عليه بالإجابة التالية: «نعم، يستطيع الانسان التعود على أي شيء، ولكن لا تسألنا كيف يتأتى ذلك». فبحوثنا النفسية لم تصل بنا حتى الآن إلى تفسير ذلك، كما أننا نحن المسجونين لم نصل بعد إلى ذلك الحد الذي تشير اليه عبارة دوستويفسكي. فقد كنا ولا زلنا في المرحلة الأولى من ردود أفعالنا النفسية.

فكرة الانتحار والإحساس بالعدم

أما فكرة الانتحار، فقد راودت كل شخص منا تقريبا لفترة قصيرة. وقد تولدت هذه الفكرة من الاحساس بالعجز حيال الموقف الذي نحن فيه، وتولدت كذلك مما يحدق بنا من خطر الموت المستمر في كل يوم وفي كل ساعة، ومن دنو سفك دماء الكثيرين.

ولقد أخذت على نفسي منذ الليلة الأولى بالمعسكر عهدا أكيدا، وصلت اليه عن اقتناع شخصي سوف أشير إليه فيما بعد، بأني سوف لا ألجأ إلى «أن اصطدم بالأسلاك». وتلك كانت العبارة المتداولة في المعسكر لتصف أكثر طرق الانتحار شيوعا – وهي لمس سياج الأسلاك الشائكة التي تسري فيها الكهرباء. ولم يكن من الصعب بالنسبة إلى أن أتخذ هذا القرار. فبالنسبة للنزلاء بصفة عامة كانت هناك نقطة بسيطة تتعلق بالإقدام على الانتحار، وهي أن توقع الحياة كان ضئيلا للغاية وأن هذا التوقع كان قد بني على حساب موضوعي لكل الفرص المحتملة. فالنزيل لا يستطيع أن يتوقع مع أي ضمان أن يكون من بين النسبة المئوية الضئيلة من الرجال الذين اجتازوا كل أشكال الاختيار وقدر لهم البقاء. فلم يكن سجين هذا المعسكر، في المرحلة الأولى من الصدمة لكل هذه الأسباب، يخاف الموت.

وبعد الأيام القليلة الأولى نجد أن غرف الاعدام بالغاز هي بدورها قد فقدت ما تبعثه في السجين من رعب.

أخبرني أصدقاء ممن قابلتهم فيما بعد أني لم أكن واحدا من أولئك الذين هزتهم كثيرا صدمة الدخول. فالابتسامة لم تكن تفارقني حينما توالت الأحداث في اليوم التالي بعد تلك الليلة الأولى في المعسكر. وبالرغم من الأوامر الصارمة بألا نبارح مكاننا، فقد استطاع زميل لي، كان قد وصل قبلنا الى المعسكر بعدة أسابيع، أن يأتي الى مكاننا خلسة. لقد أراد أن يخفف من روعنا ويخبرنا ببعض الأشياء القليلة. هذا الزميل قد غدا نحيلا الى درجة لم نستطع معها أن نتعرف عليه من أول وهلة. ولقد سعي، بنوع من ادعاء المرح ومن الاستخفاف، أن يدلي إلينا ببعض المعلومات السريعة المفيدة: «لا تخافوا! لا تهابوا عمليات الاختيار! فالدكتور «م» – (كبير أطباء ال س س) يعامل الأطباء برقة». وقد كان هذا غير صحيح؛ وكانت الكلمات الطيبة التي وجهها الينا هذا الصديق مضللة. فقد أخبرني سجين. آخر، وهو طبيب يبلغ من العمر ستين عاما

ومسئول عن الرعاية الطبية لمجموعة من الحجرات، كم توسل إلى الدكتور «م» هذا حتى يخلي سبيل ابنه الذي حكم عليه بالإعدام بالغاز. ولكنه رفض بكل برود).

«لكن شيئا واحدا أرجوه منكم» – واستمر الزميل في حديثه إلينا – «هو أن تحلقوا ذقونكم يوميا، حتى ولو استلزم ذلك منكم أن تستخدموا قطعة من الزجاج.. وحتى لو اضطررتم إلى تقديم آخر قطعة من الخبز في سبيل ذلك. فأنتم بذلك سوف تبدون صغار السن، ثم أن عملية الكشط هذه سوف تجعل وجناتكم تبدو متوردة اللون. وإذا أردتم البقاء أحياء، فهناك طريق واحد لا غيره: أن تظهروا قدرة كافية على العمل. فإذا عرجتم أثناء المشي بسبب وجود جرح بسيط في عقب القدم، وإذا لاحظ ذلك أحد رجال ال «س س»، فانه سوف ينحيكم جانبا، وسوف يكون نصيبكم الإعدام بالغاز في اليوم التالي. فمن يبدو بائسا وبصحة معتلة، ويعجز عن القيام بالأعمال التي تستلزم مجهودا جسميا، فانه سوف يوجه آن اجلا أو عاجلا إلى غرف الإعدام بالغاز. لذلك تذكروا ما يلي: احلقوا ذقونكن، قفوا وامشوا وأنتم متمالكين – في هذه الحالة لن تهابوا الإعدام بالغاز. أن كل من يقف منكم هنا، حتى لو كان قد مضى عليه هنا أربع وعشرون ساعة فقط، لا يجوز أن يخاف الإعدام بالغاز، فيما عدا أنت غالبا. ثم يشير اليَّ ويقول: «أرجو ألا أكون قد ضايقتك بصراحتي». ثم يكرر كلامه للأخرين: «إنه من بينكم جميعا هو الشخص الوحيد الذي ينبغي أن يخاف من عملية الاختبار القادمة. لذا، لا تنزعجوا!»

وابتسمت، مقتنعا بأن أي شخص في مكاني في ذلك اليوم لا بد أن يسلك كما سلكت.

رد الفعل غير السوي إزاء موقف غير سوي هو استجابة سوية

أعتقد أن «لسنج» هو الذي قال ذات مرة: «توجد اشياء تؤدي بك إلى أن تفقد عقلك، والا فانه لا يوجد لديك ما تفقده». ثم إن رد الفعل غير السوي إزاء موقف غير سوي هو استجابة سوية. بل اننا الأطباء النفسيون نتوقع أن تكون ردود أفعال الانسان ازاء موقف غير سوي، كأن يحول إلى مستشفى للأمراض العقلية، ردود أفعال غير سوية قياسا إلى درجة سوائه، وفي ذلك يمثل أيضا رد فعل الإنسان إزاء ادخاله معسكر اعتقال حالة غير سوية للعقل؛ ولكن إذا حكمنا عليها موضوعيا فإنها تعتبر حالة سوية، وأنها – كما سنشير إلى ذلك فيما بعد – رد فعل طبيعي تجاه مثل هذه الظروف. هذه الاستجابات قد بدأت تتغير في غضون أيام قليلة. يتضح ذلك في انتقال السجين من الطور الأول إلى الثاني؛ وهو طور البلادة النسبية، حيث يصل به إلى نوع من الموت الانفعالي.

البلادة والموت الانفعالي هما الطور الثاني لردود الأفعال العقلية

بجانب هذه الاستجابات، يعيش السجين الوافد حديثا ألوانا من الانفعالات المؤلمة التي يحاول أن يميتها، وفي مقدمتها تشوقه العارم لبيته ولأسرته. وغالبا ما يغدو هذا الإحساس حادا إلى درجة يشعر معها بالاستنفاذ والوهن من هذه اللهفة. ويعقب ذلك حالة من الاشمئزاز والتقزز من كل ما يحيط به من قبح وبشاعة، حتى في مجرد أشكالهما الخارجية.

لقد تلقى معظم المسجونين بزة من ثياب رثة مهلهلة، ومع ذلك فإنها بدت أنيقة بالنسبة للظروف التي نعيشها. وبين الأكواخ التي ننزل فيها بالمعسكر تتراكم القاذورات؛ وكلما نعمل على التخلص منها، نغدو أكثر التصاقا بها. وكان من الأساليب المفضلة أن يوكل للسجين الجديد مهمة تنظيف المراحيض والبالوعات. فإذا حدث أن بعضا من البراز قد تناثر على وجهه اثناء نقله عبر أراض وعرة، وإذا حدث أنه أبدى أية علامة من الاشمئزاز أو حاول ازالة هذه القاذورات، فانه سوف يتعرض

للعقاب بالصفع من رجال الحرس. وهكذا كان يجري التعجيل بإماتة أي رد فعل سوي.

ولا يستطيع السجين في البداية إلا أن يدير وجهه إذا رأى عملية استعراض توقيع العقاب بمجموعة أخرى من المسجونين؛ فهو لا يستطيع أن يتحمل أن يرى زملاءه المسجونين يسيرون صعودا ونزولا في مستنقع من الوحل، وتتوجه حركاتهم بواسطة الصفعات التي تكال إليهم. ولكن الأشياء كانت تتغير بعد أيام أو أسابيع. ففي الصباح الباكر، والدنيا لا تزال ظلاما، كان السجين يقف في مواجهة البوابة مع كتيبته، استعدادا للسير. وكان يسمع صراخا وكان يرى كيف أن زميله يطرحوه أرضا، ويجروه من قدمه مرة أخرى، ثم يطرحوه أرضا ثانية. ولماذا كل هذا؟ لقد كان مصابا بالحمى، وكان محولا إلى مستشفى في وقت غير ملائم. ولهذه المحاولة غير المنظمة للتخلص من واجباته، كان يلقي هذا العقاب أو هذا التعذيب.

أما السجين الذي يدخل المرحلة الثانية من ردود أفعاله السيكولوجية فانه لم يعد يدير وجهه عن مثل هذه المشاهد. فقد صارت مشاعره متبلدة، ولا يبدي حراكا ازاء ما يلاحظه. مثال آخر: سجين وجد نفسه منتظرا بالمستشفى، آملا أن يمنحوه يومين من العمل الخفيف داخل المعسكر بسبب إصاباته أو ربما بسبب الحمى أو غير ذلك من الأمراض. يقف بلا حركة بينما يسوقون طفلا عمره اثني عشر عاما بالمعسكر ليجبروه على الوقوف في حالة انتباه لعدة ساعات في الثلج أو يرغموه على العمل بقدمين حافيتين لأنه لا توجد له أحذية بالمعسكر. لقد أصبحت أصابع قدميه مصابة بالتجمد من الصقيع، ويقوم الطبيب المناوب ببتر الأجزاء المصابة وبتنظيفها بمقص صغير، جزء جزءا. ولم يعد المشاهد بعد هذا أن يشعر بانفعالات الاشمئزاز أو الرعب أو الشفقة. ويغدو هؤلاء المعذبون، والموتى والاحياء ممن ينازعون الموت، مناظر شائعة بالنسبة للمشاهد في هذه المرحلة الثانية وبعد بضعة أسابيع من الحياة في المعسكر، فهي لم تعد تحرك مشاعره أكثر من ذلك.

قضيت فترة من الوقت داخل كوخ للمرضى المصابين بالتيفوس ممن يتعرضون للحرارة العالية والهذيان؛ وغالبا ما يموت الكثير منهم. وبعد أن لقى واحد منهم حتفه، صرت أشهد هذا المنظر بدون أي تأثر والاحظه وما يتبعه من مشاهد تتكرر كل مرة مع كل موت. وكان المسجونون يدنون الواحد تلو الآخر من الجسد الذي كان لا يزال دافئا. يقوم حينذاك أحدهم بسرقة بقايا قطعة قذرة من البطاطس؛ وأخر يقرر الاستيلاء على أحذية الميت؛ وثالث على معطفه؛ بينما يكون سجين رابع مسرورا لأنه سوف يتمكن من الحصول على مسبحة يراها ثمينة بحسب تخيله.

كنت أرقب هذا كله بغير اكتراث. وفي النهاية طلبت من «التمورجي» إبعاد الجثة. وحينما قرر أن يفعل ذلك، سحب الجثة من رجليها، لتقع في الممر الصغير بين صفي اللوائح الخشبية التي كانت معدة كفراش لخمسين مريضا بالتيفوس، وجرها على الأرضية الوعرة نحو الباب. أما الدرجتان اللتان تؤديان إلى الهواء الطلق فتمثلان دائما مشكلة بالنسبة لنا، وذلك بسبب ما يتمكن منا من الوهن والهزال بسبب النقص الشديد في الغذاء. فبعد بضعة أشهر من البقاء في المعسكر لم نكن نستطيع أن نصعد هاتين الدرجتين، الا إذا أمسكنا بأيدينا عارضة الباب لكي نرقى إلى أعلى، وكان ارتفاع كل درجة منها حوالي ست بوصات.

واقترب «التمورجي» الذي كان يسحب الجثة إلى هاتين الدرجتين. ودفع بضجر نفسه إلى أعلى، ثم دفع الجثة: القدمين أولا، ثم الجذع، وفي النهاية – وبصوت غريب جدا – سمعنا كركرة الرأس ترتطم بالدرجتين.

كان مكاني في الجانب الخلفي من الكوخ، بالقرب من النافذة الصغيرة الوحيدة والتي كانت مبنية بالقرب من الأرضية. وبينما كانت يداي الباردتان تمسكان بسلطانية من الحساء الساخن الذي كنت أرتشفه بشراهة، حدث أن اتجهت عيناي خارج النافذة. وإذا بي أجد الجثة التي أخذوها من دقائق تحملق فيّ بعينين جاحظتين لامعتين. وقلت لنفسي حينذاك انني من ساعتين فقط كنت أتكلم مع الشخص الذي صار هذه الجثة. والآن أواصل ارتشاف حسائي.

والواقع أنه لو لم يكن هذا النقص الانفعالي قد أثار دهشتي من وجهة نظر اهتماماتي المهنية، لما كنت قد تذكرت هذه الحادثة الآن، لأنه لم توجد حينذاك الا مشاعر ضئيلة للغاية قد اندمجت معها.

★

كانت البلادة وما يصحبها من تبلد الانفعالات والشعور باللامبالاة هي الأعراض المسيطرة خلال المرحلة الثانية من ردود أفعال السجين النفسية، وهي التي جعلته في النهاية غير حساس لألوان الخطوب التي يتعرض لها في كل يوم وفي كل ساعة. وبسبب فقدان القدرة على الحساسية، فانه سرعان ما يحيط السجين نفسه بقوقعة لا بد منها لوقايته وحمايته.

الألم النفسي

لقد كان الجَلْد يوقع علينا لأبسط أشكال الاستفزاز، وفي بعض الأحيان دون ما أسباب على الإطلاق. فعلى سبيل المثال حدث ذات مرة أن كان الطعام يوزع علينا في موقع العمل، وكان علينا أن نصطف لأجل الحصول عليه. وحدث أن الشخص الذي كان يقف خلفي مباشرة خرج قليلا عن الصف وبذلك اختل في نظر الحارس تماثل الطابور. كل هذا لم يرق في عيني الحارس. ولم أكن أنا على علم بما يجري في الصف الذي ورائي، ولا بما يدور في عقل الحارس، ولكني تلقيت فجأة صفعتين شديدتين على وجهي. ثم اكتشفت فقط وجود الحارس على جانب مني، مستخدما عصاه. وعند هذه اللحظة لم يكن الألم الجسمي هو الذي يسبب إيذاء في الغالب (وينطبق ذلك على الكبار وكذلك على الأطفال الذين يتعرضون للعقاب)؛ وانما هو الألم النفسي (Mental Agony) مما ينتج عن الشعور بالظلم ويتسبب عن اللامعقولية.

ومما ليبعث على الاستغراب، أن الصفعة التي لا تترك على الوجه علاماتها تستطيع، تحت ظروف معينة، أن تسبب إيلاماً وإيذاء أكثر من تلك الصفعة التي تترك أثراً على الوجه. لقد كنت واقفا ذات مرة على خط للسكة الحديدية في وسط عاصفة ثلجية. وبالرغم من هذا الجو، كان على مجموعتنا أن تواصل العمل. وكنت أعمل باجتهاد لإصلاح الخط الحديدي بواسطة دكة بالحصى، وأقنعت نفسي بأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يحافظ بها الواحد على دفئه. ولدقيقة واحدة فقط توقفت لكي التقط أنفاسي ولأتكئ لحظة على جاروفي. ولسوء الحظ استدار الحارس من حوله في هذه اللحظة وأعتقد أني أتلكأ في العمل. ولم يكن الألم الذي سببه لي مصدره السباب أو الصفعات. فلم يكترث ذلك الحارس في أن يقول شيئا، ولا حتى كلمة سباب، لذلك المخلوق الواهن الهزيل الذي يقف أمامه، والذي ربما يذكره بشكل انساني بطريقة ما. ولكنه بدلا من أن يقول شيئا، تناول مستهترا قطعة من الحجر وقذفني بها. لقد بدا ذلك، بالنسبة لي، على أنه الطريقة التي يلفت بها شخص انتباه حيوان، أو التي يعيد بها حيوانا منزليا الى موقعه؛ وهذا الحيوان هو مخلوق لا نشبهه ولا يشبهنا في قليل أو كثير، ولهذا لا يخطر على بالنا حتى أن نعاقبه.

أن أكثر جوانب هذه اللطمات إيذاء هو ما تتضمنه من إهانة. ومما حدث أن كان علينا في بعض الأوقات أن نحمل الواحا خشبية طويلة وثقيلة عبر طرق مغطاة بالجليد، بحيث إذا انزلقت قدم أحدنا، فانه لا يعرض للخطر نفسه فحسب ولكن يعرض كذلك كل زملائه الأخرين الذي يشاركونه في حمل هذا اللوح الخشبي. ولقد كان لي صديق قديم من بين المجموعة يعاني من قصور ولادي في ساقه. ومع ذلك فقد كان مسرورا لتمكنه من القيام بالعمل رغم هذا القصور، خصوصا وأن

الأشخاص العاجزين جسميا كانوا يرسلون غالبا إلى الموت حينما تتم عملية الانتقاء. وصار يعرج هذا الصديق عبر الطريق وهو يحمل عارضة خشبية ثقيلة بصفة خاصة، وبدا أنه كان على وشك السقوط وعلى وشك أن يجر الآخرين معه. لم أكن عندئذ أحمل عارضة، ولذا نهضت لمساعدته بدون تردد. وعلى الفور تلقيت ضربة على ظهري، وسمعت تأنيبا بفظاظة، وتناولت أمراً بالعودة إلى مكاني. وهذا الحارس نفسه، الذي انهال علي بالضرب، كان قد قال لنا منذ دقائق باحتقار أننا نحن الخنازير تعوزنا روح الزمالة.

وفي مرة أخرى، كنا في غابة، وكانت درجة الحرارة حوالي اثنين درجة فهرنهيت، ثم بدأنا في حفر التربة السطحية وكانت متجمدة بدرجة صلبة، لكي مد أنابيب المياه. وكنت أشعر في ذلك الوقت بالوهن الجسمي. وجاء إلى رئيس العمال بخديه الورديين المكتنزين لحما. وذكرني وجهه تماما براس الخنزير. ولاحظت أنه كان يلبس قفازات جيدة تعطيه كثيرا من الدفء في هذا الجو القاسي. لقد صار يرقبني بصمت لفترة من الوقت. وشعرت أن هناك متاعب في طريقها إليّ، فقد كان أمامي على سطح الأرض كومة أو رابية تبين بالضبط مقدار ما قمت بحفره.

ثم بدأ: «انت يا خنزير، لقد كنت اراقبك طيلة هذا الوقت! سوف أعلمك أن تعمل، هكذا! انتظر حتى تحفر القاذورات بأسنانك. سوف تموت كالحيوان! وفي خلال يومين سوف أجهز عليك! إنك لم تبذل أبدا أي جهد للعمل في حياتك. ومن تكون أنت أيها الخنزير؟ رجل أعمال؟».

لقد كنت حينذاك حذرا إلى أبعد حد. ولكن كان على أن آخذ تهديده لي بالقتل مأخذ الجد، لذا استقمت في وقفتي وحلقت مباشرة في عينيه. «لقد كنت طبيبا – اخصائي».. «ماذا؟ طبيب أنا واثق أنك كنت تجمع المال وتبتزه من الناس».

«وما حدث في حقيقة الأمر، أني قد قمت بمعظم عملي بلا مقابل على الاطلاق، فكان جل عملي في عيادات للفقراء». ولكني شعرت الآن أنني قد تكلمت أكثر من اللازم. وسرعان ما ألقى بنفسه عليّ ودقني أرضا، محدثا جلبة وصياحا كتلك التي تصدر عن مجنون. ولم أعد بعد ذلك أتذكر ما الذي كان يصيح به.

لقد أردت أن أبين بهذه الحكاية التافهة في ظاهرها أنه توجد في حياة الانسان لحظات يمكن أن تظهر فيها نقمته – وهي نقمة تتجه لا الى القسوة أو الألم، ولكن إلى الأمانة المتضمنة فيها والمرتبطة بها. ففي ذلك الوقت اندفع الدم إلى رأسي لأنه كان على أن أسمع إلى رجل يصدر أحكامه على حياتي دون أن تكون لديه أية فكرة عنها، وهو شخص «يبدو متخلفا وشرسا بحيث أن التمورجي الذي يقف على البوابة الخارجية بالمستشفى الذي كنت أعمل فيه لم يكن ليسمح له بالدخول حتى إلى حجرة الانتظار». (وهنا ينبغي أن أعترف بأن هذه الملاحظة التي أسريت بها إلى زملائي المسجونين بعد هذه الواقعة قد منحتني نوعا من الارتياح الصبياني (الطفلي)).

ولحسن الحظ أن رجل الكابو في جماعة العمل التي أشترك فيها كان يدين لي بالفضل؛ فقد صار ميالا اليّ لأني كنت أصغي إلى حكاياته الغرامية والى متاعبه الزوجية مما كان يمطرني به أثناء السير الى موقع عملنا.

لقد تركت فيه انطباعا طيبا لما قمت به من تشخيص لطباعه ولما قدمته له من نصيحة علاجية نفسية. بعد هذا كان يشعر بالامتنان ازاء ذلك. وكان لهذا بالفعل قيمته بالنسبة لي. ففي مناسبات عديدة كان يحتفظ لي بمكان خلفه في واحد من الصفوف الخمسة الأولى بكتيبتنا التي كانت تتألف عادة من مائتين وثمانين رجلا. وكانت تلك الحُظْوة مهمة لي. فلقد كان علينا أن نصطف في الصباح الباكر والدنيا لا تزال مظلمة. وكان كل شخص يخشى أن يتأخر وأن يطلب منه أن يقف في الصفوف الخلفية. فاذا كانوا بحاجة إلى أشخاص يقومون بعمل غير سار أو غير مرغوب، فان رئيس الكابو يظهر ويختارهم

عادة من بين الصفوف الخلفية. وفي هذه الحالة يسير هؤلاء الأشخاص بعيدا إلى نوع آخر من الأعمال المروعة تحت إمرة حراس غرباء. ويحدث أحيانا أن يختار الرئيس رجالا من الصفوف الخمس الأولى، كي يضع يده على أولئك الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر الشطارة والمهارة. وكانت اذ ذاك تخرس أفواه المحتجين والمتآمرين برفسات قليلة مصوبة تصويبا جيدا، ويساق الضحايا المتقون إلى مكان التجمع بالصياح والضربات.

الا أنه طالما أن رجل الكابو كان يشعر بالحاجة إلى أن يفرغ ما في قلبه، فان هذه الضربات لم تكن لتقع لي. لقد كان في مكان مضمون من الشرف يلي هذا الحارس. ولكن كانت هناك أيضا ميزة كبيرة أخرى – فلقد كنت. أعاني، شأني في ذلك شأن كل نزلاء المعسكر، من مرض تورم الرجلين وتمدد الجلد الذي يصير مشدودا عليهما بحيث يتعذر انثناء الركبتين. وكان على أن أترك حذائي غير مربوط لكي يتلاءم مع قدمي المتورمتين، كما كان يتعذر لنفس الأسباب ارتداء الجوارب. لذا كانت قدماي العاريتان تقريبا مبللتين دائما، وكان حذائي دائما غاصا بالثلج. وقد تسبب عن هذا ما يعرف بقضمة الصقيع وبتقرح القدمين من البرد والرطوبة، وصارت لذلك كل خطوة أخطوها عذابا مبرحا. وكانت تراكمات الجليد على أحذيتنا تتجمع أثناء سيرنا على الأراضي المغطاة بالثلوج، وكانت. تزل أقدام الرجال باستمرار، ويتساقط فوقهم الأشخاص الذين يعقبونهم في الطابور. وقد يؤدي ذلك إلى توقف الطابور لفترة، ولكن ليس لمدة طويلة، وقد اتخذ لذلك أحد الحراس إجراءً بأن ينهال على الأفراد بكعب بندقيته حتى ينهضوا بسرعة. ومن ثم فانه بقدر ما يكون الشخص منا في مقدمة الطابور، تقل احتمالية تعرضه للإيذاء من جراء توقف الطابور ثم تقل احتمالية الجري على قدمين معلولتين لتعويض الوقت الضائع. وكم كنت سعيدا أن أكون أنا الطبيب المعين شخصيا من قبل «جلالة» هذا الحارس، وأن أسير بخطوة متئدة في الصف الأول على مقربة منه.

كانت هذه الخُطوة بمثابة أجر إضافي لخدماتي واتضح أثرها في أنه حينما كان يأتي دوري عند تناول طعام الغذاء في موقع العمل، كان الرجل يغوص بالمغرفة في قاع القدرة لكي يظفر لي مع الحساء ببعض البازلاء الراقدة في القاع. وكان لدي رجل الكابو هذا، وهو ضابط سابق بالجيش، شجاعة بأن يهمس الى رئيس العمال الذي تشاجرت معه قبلا، ويقول له بأني عامل مجتهد بطريقة غير عادية كما عرفني. ولكن هذا لم يغير من الأمور شيئا، ومع ذلك فقد تدبر أن ينقذ حياتي (وتلك واحدة من المرات الكثيرة التي أُنقذت فيها حياتي). ففي اليوم التالي لحادثتي مع رئيس العمل هذا، نقلني بطريقة خفية إلى جماعة عمل أخرى.



لقد كان هناك من رؤساء العمل ممن يشعرون بالأسى حيالنا ويبذلون قصارى جهدهم لكي يخففوا عنا، على الأقل في موقع العمل. ولكنهم مع ذلك كانوا يذكروننا دائما بأن «العامل العادي» يعمل أكثر منا وفي وقت أقل. ولكن فاتهم أن العامل العادي لا يعيش على حوالي ١٠.٥ أوقية من الخبز (هذا من الناحية النظرية، وان كان الوزن من الناحية الفعلية أقل من هذا غالبا) وعلى مغرفة من الحساء الخفيف كل يوم، كما أن العامل العادي لا يعيش تحت وطأة الضغط النفسي الذي علينا أن نخضع له، ولا تنقطع عنه أخبار أسرته، ولا يجرى ترحيله إلى معسكر آخر أو اعدامه بالغاز. والعامل العادي لا يتعرض في كل يوم وفي كل ساعة للتهديد بالموت بصفة مستمرة. ولقد تجرأت ذات مرة فقلت لحارس طيب: «إذا كنتم تستطيعون أن تتعلموا مني كيف تجرون عملية جراحية بالمخ في وقت قصير مثلما تعلمت منكم العمل في تمهيد الطرق، فسوف أنظر اليكم

باحترام شديد». وما كان من الحارس الا أن استجاب بابتسامة عريضة صامتة.

البلادة كميكانزم للدفاع عن الذات كانت البلادة – وهي العرض الرئيسي للمرحلة الثانية – وهي الميكانزم الضروري للدفاع عن الذات. لقد أصبح الواقع مظلما، وغدت كل الجهود وكل الانفعالات متمركزة حول مهمة واحدة: المحافظة على الحياة – حياة الفرد ذاتها وحياة زميله. لقد كان من المتواتر أن تسمع المسجونين، بعد عودتهم في المساء الى المعسكر من مواقع عملهم، يتنهدون بارتياح قائلين: «حسنا، لقد انقضى يوم آخر».

من المفهوم اذن أن مثل هذه الحالة من التوتر، وما يصحبها من الشعور بالحاجة المستمرة إلى التركيز على هدف بقاء الشخص حيا، قد تقهقرت بالحياة الداخلية للسجين إلى مستوى بدائي. ولهذا فكثيرا ما كان زملائي بالمعسكر ممن تلقوا تدريبا على التحليل النفسي يتحدثون عن ظاهرة «النكوص» عند نزيل المعسكر – وهذه الظاهرة هي التقهقر إلى أشكال من الحياة النفسية أكثر بدائية من تلك التي يعيشونها. ويتضح ذلك فيما تتضمنه احلام السجين من أماني ورغبات.

ما الذي كان يحلم به السجين في معظم الحالات؟ لقد كانت أحلامه تدور حول الخبز والكعك والسجاير والحمامات الساخنة اللطيفة. ولقد أدى به نقص إشباع هذه الرغبات البسيطة إلى السعي إلى إشباعها في الأحلام.

وسواء أكان هذه الأحلام تأثير طيب أم لا، فان هذا موضوع آخر؛ فلقد كان على السجين الحالم أن يستيقظ من أحلامه إلى واقع حياة المعسكر، والى التناقض المريع بين حقيقة الواقع ووهم الأحلام.

ولست أنسى أبدا كيف أني استيقظت ذات ليلة على أنين أحد المسجونين الزملاء، وكان يطرح نفسه متقلبا هنا وهناك أثناء نومه، وكان واضحا أنه كان يعاني حينذاك من كابوس مفزع، ولما كنت أشفق دائما بصفة خاصة على أولئك الذين يعانون من أحلام مفزعة أو من هذيان عنيف، فقد أردت أن أوقظ هذا الانسان المسكين. وفجأة غيرت رأيي وسحبت يدي التي كانت مستعدة أن تهزه، وخشيت حينذاك من الشيء الذي كنت على وشك أن أفعله. ففي تلك اللحظة صرت واعيا بالحقيقة التي نعيشها وهي أنه لا الحلم ولا أي موضوع آخر مهما بلغت درجة الرعب التي يثيرها، يمكن أن يكون سيئاً كواقع المعسكر الذي يحيط بنا، والذي كنت على وشك أن أعيده إلى ذهنه.

كان السجين يعاني من درجة عالية جدا من سوء التغذية، وبسبب هذا كان من الطبيعي أن تكون الرغبة في الطعام هي الغريزة البدائية الرئيسية التي تتمركز حولها حياته النفسية. فاذا لاحظنا غالبية المسجونين حينما يعملون بالقرب من بعضهم الأخر، إذا تغيبت عنهم رقابة الحارس لفترة وجيزة، فانهم على الفور يبدأون التحدث معا حول شئون الطعام. فها زميل يسأل آخر يعمل بالقرب منه في خندق عن الأطباق المفضلة لديه من الطعام. ثم يتبادلان أطراف الحديث في طرق إعداد الطعام وفي التخطيط لقائمة طعام يجتمعان عليها في ذلك اليوم الذي يلم شملهما – ويكون ذلك في المستقبل البعيد حينما يتحقق تحررهما وتتم عودتهما إلى منزلهما. ويسترسلان في الحديث، ليصوروا كل ما يتخيلانه بالتفصيل، حتى تسري في الخندق همسات التحذير: «الحارس قادم».

لقد كنت دائما اعتبر الحديث عن الطعام مدعاة للخطر. هل استشارة الكائن الحي (الأورجانزم) بتلك الصور التفصيلية والانفعالية عما لذ وطاب من ألوان الطعام ليس مسلكا خاطئا، في وقت من المفروض فيه ان يكيف الكائن الحي نفسه لقدر ضئيل للغاية من الطعام ومن السعرات الحرارية؟ فعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا المسلك من ارتياح نفسي وقتي، الا أنه ليس الا وهما يترتب عليه ولا شك مخاطر كثيرة من الناحية الفسيولوجية.

لقد صارت مؤونتنا من الطعام، في الفترة التالية بالسجن، عبارة عن حساء خفيف للغاية يقدم الينا مرة واحدة في اليوم،

وكسرة الخبز الضئيلة المعتادة. علاوة على ذلك، كان هناك ما يعرف ب «الحصة الاضافية»، وتتألف من ثلاثة أرباع أوقية من الزبد الصناعي، أو شريحة من السجق الرديء، أو قطعة ضئيلة من الجبن، أو لحسة من عسل نحل اصطناعي، أو ملعقة من المربي غير المركزة – وهذه الحصة الاضافية تختلف من يوم لأخر. وجبة كهذه، من ناحية السعرات الحرارية، لم تكن ملائمة على الاطلاق، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار العمل اليدوي المضني الذي نقوم به، والتعرض المستمر للجو البارد مع ما نرتديه من ملابس غير كافية وغير ملائمة. أما المرضى الذين كانوا «تحت رعاية خاصة» – وهم أولئك الذين سمح لهم بالرقاد في الأكواخ بدلا من الخروج إلى العمل – فانهم كانوا بالرغم من ذلك أسوأ حالا فيما يصيبهم من طعام.

وحينما زالت الطبقات الأخيرة من الشحم الموجود تحت الجلد، وصرنا أشبه بالهياكل العظمية المغطاة بجلد وخرق بالية، كنا نلحظ كيف أن أجسامنا قد بدأت تلتهم نفسها وأخذت في التلاشي والانعدام. فقد أخذ الجسم يستهلك ما فيه من مخزون البروتين، وبدت العضلات في الضمور والاختفاء. ومن ثم لم يعد بالجسم قوة للمقاومة. وصار أفراد جماعتنا يتساقطون موتا واحدا تلو الآخر. وأصبح في مقدور أي سجين منا أن يحسب بدقة على من يأتي الدور في الموت، ومتى سيأتي دوره. فبعد ملاحظات كثيرة صرنا نعرف الأعراض جيدا، الأمر الذي جعل تنبؤاتنا التشخيصية صحيحة تماما. «لقد دان أجله»، أو «هذا هو الشخص التالي».

تلك أمثلة من العبارات التي كنا نهمس بها بعضنا للأخر. وبينما كنا ننشغل في كل مساء بالبحث عن القمل العالق بنا، نري اجسادنا العارية، وتراودنا أفكار مثل: هذا الجسد هنا، جسدي، هو في الحقيقة جثة بالفعل. ما الذي ألم بي؟ إني لست الا جزءا ضئيلا من حشد هائل من اللحم البشري... مما يتجمع وراء أسلاك شائكة. مكدسا في بضعة أكواخ من الطين؛ وهو حشد تتناقص منه يوميا نسبة معينة لتأخذ في التعفن لأنها قد صارت بلا حياة.

لقد ذكرت من قبل كيف انه كان محتما أن تفرض الأفكار الخاصة الطعام وبالأطباق المفضلة نفسها على وعي السجين، حينما يجد لحظة يختلي فيها إلى نفسه. وربما يكون من المفهوم، اذن، أنه حتى أكثرنا قوة كان يتشوق إلى الوقت الذي يمكن فيه أن يحظى بطعام طيب مرة ثانية، ليس هذا من أجل التلذذ بالطعام الطيب نفسه فحسب، ولكن من أجل معرفة أن الوجود شبه الإنساني، مما يجعلنا عاجزين عن التفكير في أي شيء عدا الطعام، سوف يصل إلى العدم في خاتمة المطاف.

ولا شك أنه من الصعب على من لم ير مثل هذه الخبرات أن يتصور الصراع النفسي المدمر للروح وأن يحس بالاصطدامات التي ترتطم بها قوة الإرادة مما يخبره انسان جائع هزيل. كما أنه من الصعب أن يدرك ماذا يعني أن يظل الانسان واقفا يعمل في حفر خندق، منصتا فحسب إلى الصفارة لكي تعلن الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة قبل الظهر – وهي فترة تستغرق نصف ساعة لتناول الغذاء. حينما يجري توزيع الخبز (هذا إذا كان متاحا)؛ أو يسأل المشرف مرات عن الوقت إذا لم يكن المشرف فظا. وبرقة يتلمس قطعة الخبز الموجودة في جيب معطفه، وبأصابعه المتجمدة العارية يمر عليها أولا ثم بعد ذلك يقتطع منها فتاة ويضعها في فمه، واخيرا مع ما تبقى لديه من قوة الارادة يضعها في جيبه مرة ثانية، معللا نفسه في ذلك الصباح بأمل أن يتماسك بها وأن يصمد حتى بعد الظهر.

وكم كنا نتناظر في طرق تناول قطعة الخبز التي كانت تعطى لنا مرة واحدة في اليوم خلال الجزء الثاني من فترة سجننا. وكان الحوار يجري في معقولية الطريقة أو عدم معقوليتها، وكنا في ذلك تنقسم إلى مدرستين: الأولى تؤيد التهام مؤونة الخبز على الفور. وكان لهذا الاتجاه ميزة ذات شقين تتمثل في اشباع حالة الجوع القارس لفترة قصيرة جدا من الوقت على الأقل مره في اليوم، وتتمثل كذلك في الوقاية ضد احتمال سرقة هذه المؤونة او فقدانها. أما الجماعة الثانية، فكانت تري تقسيم قطعة الخبز على مراحل من تناولها، مستندة في ذلك على حجج مختلفة. ولقد شاركت أصحاب هذا الاتجاه الثاني في النهاية وجهة

نظرهم.

كانت لحظة الإيقاظ هي أكثر اللحظات بشاعة في الساعات الأربع والعشرين من حياة المعسكر. وذلك حينما كانت تمزق الصفارة سكون الليل وهدوءه بما كان يصدر عنها من أصوات ثلاثة هي أشبه شيء بالعاصفة المدوية – وكان هذا يقع في ساعة هي في الواقع جزء من الليل، وذلك لتهتك السكون ولتوقظنا بلا رحمة من نومنا المثقل بالتعب والانهاك، ولتنتزعنا من بعض ما نصبو اليه في أحلامنا. عندئذ نبدأ التصارع مع أحذيتنا المبللة، حيث ندفع فيها أقدامنا المتقرحة المتأكلة بمعاناة والم ومشقة. وكان من المعتاد أن نسمع في ذلك الوقت أنينا وعويلا من جراء صعوبات تافهة، مثل وخز الأسلاك التي حلت محل أربطة الحذاء. ذات صباح سمعت زميلا لي، ممن كنت أعرف فيه الشجاعة والاعتزاز بالنفس، يصيح كالطفل لأنه كان مضطرا في النهاية أن ينزل حافي القدمين الى ارض الطابور المغطاة بالثلج، لأن حذاءه قد انكمش حيث تعذر عليه أن يدخل قدميه فيه. في تلك اللحظات المروعة كنت أجد بعضا من السلوى؛ وهي عبارة عن كسرة من الخبز استلها من جيبي وأنهمك في مضغها واستحلابها بتلذذ واستغراق.

اختفاء الدافع الجنسي

ولعل سوء التغذية، بالإضافة إلى كونه مسئولاً عن الانشغال والقلق العامين بشأن الطعام، الا أنه يفسر أيضا حقيقة اختفاء الدافع الجنسي بصفة عامة. وبصرف النظر عن التأثيرات الأولية للصدمة، فان هذا يبدو التفسير الوحيد لظاهرة كثيراً ما يلاحظها الاخصائي الاجتماعي في تلك المعسكرات التي يكون كل نزلائها من الذكور: فخلافا لكل المؤسسات التي لا تحوي الا الذكور فحسب، كالثكنات العسكرية، كانت هناك انحرافات جنسية قليلة. بل أن السجين، حتى في أحلامه، لم يكن يبدي اهتماما بالجنس، رغم أن انفعالاته المحبطة ومشاعره الرفيعة الراقية قد وجدت تعبيرا محددا في أحلامه.

فبالنسبة لغالبية المسجونين، كان من شأن الحياة البدائية والجهود المبذولة من أجل اهتمام السجين فحسب بأن «يفلت بجلده»، أن تؤدي إلى عدم اكتراث كلي بأي شيء لا يخدم هذا الغرض؛ وبذلك يمكن أن نفسر النقص التام للعاطفة عند المسجونين. وهذا ما قد تبين لي عندما جرى نقلنا من معسكر «أوشويتز» إلى معسكر آخر بالقرب من «داشاو». فالقطار الذي حملنا – وفيه ما يقرب من ألفين من المسجونين – قد مر من خلال فيينا. وفي حوالي الليل وصلنا إلى أحد محطات السكك الحديدية بفيينا. وكان على القطار أن يمر بنا بمحاذاة الشارع الذي ولدت فيه، وبالقرب من المنزل الذي عشت فيه في الواقع معظم سنوات حياتي حتى دخولي السجن.

لقد كانت عربة السجن تقل خمسينا منا، ولها فتحتين صغيرتين مدعمتين بالقضبان. وكان بالعربة مكان يسع مجموعة واحدة لكي ترقد على الأرض، بينما الآخرون الذين كان عليهم أن يقفوا الساعات قد تزاحموا حول الفتحتين. وكانوا يقفون على اصابع أقدامهم ويسترق الواحد منهم النظر عبر رؤوس الآخرين المتزاحمة من خلال قضبان النافذة الصغيرة. واذ فعلت ذلك اختلست نظرة خاطفة على مدينتي، وتملكنا آنذاك جميعا شعور بأننا أقرب إلى الأموات منا إلى الأحياء، لأننا اعتقدنا أن ترحيلنا كان موجها إلى معسكر في «ماوتسهاوزن» وأن ما تبقى لنا من أيام في الدنيا لا يتجاوز أسبوعا أو اسبوعين. لقد تملكني شعور محدد بأنني رأيت الشوارع والميادين والمنازل، التي عشتها في طفولتي، وذلك من خلال عيني انسان ميت قد عاد لتوه من عالم آخر ويجول ببصره في مدينة من مدن الأشباح.

بعد ساعات من التأخير غادر القطار المحطة. ثم جاء الشارع – الشارع الذي عشت فيه! وصار المسجونون الصغار في السن، ممن سيقضون عددا من السنوات بالمعسكر والذين تمثل الرحلة بالنسبة لهم حدثا عظيما، يحدقون بتفرس من خلال فتحة

النافذة. أخذت اتوسل إليهم، واستعطفهم، كي يدعوني أقف في المقدمة لمدة دقيقة واحدة فقط. وحاولت أن اشرح لهم كم تعني بالنسبة لي نظرة من خلال تلك النافذة في هذه اللحظة. ولكنهم رفضوا رجائي بكل فظاظة وسخرية: «إنك قد عشت هنا كل تلك السنوات؟ حسنا، لقد رأيت اذن ما يكفيك بالفعل».

السبات الثقافي

بصفة عامة اتسمت حياة المعسكر بما يمكن أن يسمى بـ«السبات الثقافي (cultural hibernation)». ولكن كان لهذه الحالة استثناءان: السياسة والدين، لقد كنا نتكلم في السياسة في كل مكان بالمعسكر، وبصفة مستمرة غالبا. وكانت المناقشات، التي تحتدم فيما بيننا بشدة، تستند على الشائعات أساسا. وعادة ما كانت الشائعات المتعلقة بالموقف العسكري متناقضة. وكانت الشائعات سري واحدة وراء الأخرى بسرعة واقتصر إسهامها في اثارة حرب الأعصاب التي اشتعلت في عقول كل المسجونين. وكان نصيب المرات الكثيرة، التي علقنا فيها آمالا كبارا – كانت تستثار بالشائعات المتفائلة – على سرعة نهاية الحرب، هو خيبة الأمل. ومع ذلك، فاذا كان بعض الرجال قد فقدوا كل أمل ورجاء، الا أن الزملاء المتفائلين بشدة كانوا هم في الواقع الفئة الاكثر اثارة للأعصاب.

اما الاهتمام الديني لدى المسجونين، والذي نمي بسرعة وبشدة، فقد كان أكثر الاهتمامات صدقا. وغالبا ما كان عمق الايمان الديني وشدته مما يبعث على دهشة أي وافد جديد ومما يدعو إلى تحريك مشاعره. وأكثر المواقف تأثيرا في هذا الصدد هو الصلوات الارتجالية أو الخدمات الدينية التلقائية مما كان يقع في ركن من أركان كوخ، أو في الظلام داخل عربة– نقل للمواشي حيث كنا نعود فيها من موقع عمل بعيد، ونحن متعبون وجائعون ومتجمدون من البرد وعلينا ملابسنا المهلهلة.

في شتاء 1945 تفشي مرض التيفوس وامتد إلى الربيع وقد أصاب تقريبا كل المسجونين. وكانت نسبة الوفيات عالية بين الضعاف منهم ممن كان عليهم أن يستمروا في عملهم الشاق لأطول فترة ممكنة. وكانت الاماكن المخصصة للمرضى غير ملائمة على الإطلاق، ولم يكن هناك من الناحية العملية علاج أو معالجون. واتخذت أعراض المرض مظاهر كريهة للغاية: العزوف غير المسئول حتى عن كسرة من الطعام (وفي هذا خطورة مضاعفة على الحياة)، والنوبات الرهيبة من الهذيان. ومن أسوا حالات الهذيان تلك التي عاناها صديق لي أعتقد أنه يموت، وأنه لذلك في حاجة إلى أن يصلي؛ ولم يستطع في هذيانه أن يجد الكلمات التي يصلي بها. ولكي أتجنب نوبات الهذيان، حاولت – كما فعل كثيرون آخرون – أن أظل يقظا معظم الليل. ولساعات نظمت الكلام في عقلي. وفي النهاية بدأت في أن أكون من جديد الخطوط الذي فقدته في حجرة التطهير بالمعسكر، وكتبت بعجلة الكلمات الرئيسية مختزلة على قصاصات دقيقة من الورق.

ومن آن لآخر كانت تنشأ في المعسكر مناظرات عملية. وقد شهدت في أحد المرات شيئا لم أره، حتى في حياتي العادية، رغم أنه قريب إلى حد ما من اهتماماتي المهنية: جلسة استحضار للأرواح. وقد دعاني الطبيب المسئول في المعسكر (وهو سجين أيضاً) لحضور هذه الجلسة، وكان يعلم أنني أخصائي في الطب النفسي. وقد جرى الاجتماع في حجرة خاصة صغيرة بأماكن المرضى، حيث تجمعت حلقة صغيرة، كان من بينهم بطريقة غير مشروعة الضابط المسئول في فرقة الرعاية الصحية.

وبدأ أحد الأشخاص في استدعاء الأرواح بصلاة معينة. وجلس رجل الدين بالمعسكر امام ملاءة بيضاء من الورق، دون أية نية واعية في الكتابة. وخلال العشرة دقائق التالية (والتي بعدها انتهت الجلسة بسبب فشل الوسيط في استدعاء الأرواح إلى الظهور) أخذ قلمه يجر خطوطاً ببطء على الورقة، لتكون بوضوح تام الحروف التالية:«VAE V». وكان من المؤكد أن رجل الدين هذا لا يعرف اللغة اللاتينية وأنه لم يسمع من قبل بالكلمات التالية: «Vae Victis». وتعني «ويل للمغلوب».

وأعتقد أنه قد سمع بها ذات مرة في حياته، بدون أن يتذكرها، وأنها كانت في ميسور «الروح» (روح عقله غير الواعي) في ذلك الوقت، أي في الأشهر القليلة السابقة على تحررنا ونهاية الحرب.

رغم كل مظاهر الانحطاط الجسمي والعقلي للحياة في معسكر الاعتقال، الا انه كان من الممكن للحياة الروحية أن تقوى وتعمق. أما الأشخاص الحساسون الذين تعودوا على الحياة العقلية الغنية ربما قد عانوا الكثير من الألم (وغالبا ما كان تكوينهم رقيقا)، الا أن درجة تعرض ذواتهم الداخلية للأذى كانت أقل. فكان في مقدورهم أن يتخلوا عن الواقع المفزع المحيط بهم إلى حياة من الثراء الداخلي والحرية الروحية. وهذه الطريقة فحسب يمكن تفسير التناقض الظاهري بأن بعض المسجونين ذوي التكوين النفسي الأقل قدرة على الاحتمال قد أبدوا غالبا قدرة على معايشة حياة المعسكر بدرجة أفضل من أولئك الأشخاص ذوي الطبيعة القوية. ولكي أستوضح كل هذه المواقف لنفسي، ينبغي أن أعود إلى خبرتي الشخصية. وسأتكلم عما حدث في الصباح المبكر من تلك الأيام حينا كان علينا أن نسير الى موقع عملنا.

لقد دوت الأوامر: «كتيبة، إلى الأمام سر! إلى اليسار ٢ – ٣ – 4! الى اليسار ٢– 3 – 4! الشخص الأول، الى اليسار والى اليسار والي اليسار والى اليسار! اخلعوا قبعاتكم! «هذه الكلمات لا زالت تدوي في أذني حتى الآن. وعند توجيه الأمر «اخلعوا قبعاتكم» اجتزنا بوابة المعسكر، وأخذت الأضواء الكاشفة تصوب علينا. ومن لم يمش بطريقة معتدلة يلقي رفسة. وكان اسوأنا ذلك الشخص الذي عمد – بسبب البرد – الى تغطية اذنيه بقبعته قبل أن يأذنوا بذلك.

وتعثرنا في الظلام، في أحجار ضخمة وعبر مستنقعات مائية على طول الطريق المنحدر من المعسكر. أما الحراس المرافقون لنا فقد توقفوا عن الصياح فينا، وأخذوا يسوقوننا بكعوب بنادقهم. وعندما كان الألم المبرح يتمكن من أي شخص منا، فانه كان في العادة يتكئ على ذراع جاره. وبصعوبة نبس أحد الزملاء بكلمة بيننا، رغم أن الريح الثلجية لم تكن لتشجع على الكلام. فقد همس لي فجأة هذا الزميل الذي يشير خلفي، وهو يخبئ فمه خلف ياقة معطفه، قائلا: «ماذا لو أن زوجاتنا رأيننا الآن! أرجو أن يكن أحسن حالا في معسكراتهن وألا يعلمن ما يجري لنا».

هذا الكلام قد ذكرني بزوجتي. فرغم أننا في هذه اللحظات كنا نسير متعثرين لأميال، وتنزلق أقدامنا على الجليد، ونساعد بعضنا البعض بين وقت وآخر، ويجذب بعضنا البعض الآخر على هذا الطريق، ولم ينبس واحد منا بكلمة، الا أن كلانا كان يعرف ما يفكر فيه الآخر – فكلانا يعرف: أن كلا منا يفكر في زوجته. وبين الفينة والأخرى كنت انظر الى السماء، حيث النجوم تخبو والصباح يبدا في أن ينتشر بصيص ضوئه خلف السحب القائمة المتراكمة، الا أن عقلي تعلق بصورة زوجتي، متخيلا اينها بدقة غريبة. لقد سمعتها تجيب على، ورأيت ابتسامتها، ونظراتها الصريحة والمشجعة. وسواء أكان ذلك حقيقيا أم غير حقيقي، فقد كانت طلعتها عندئذ أكثر اشراقا وتألقا من الشمس التي بدأت في الظهور.

خلاص الانسان هو من خلال الحب وفي الحب

وقد استحوذت اذ ذاك على فكرة: فلأول مرة في حياتي أرى الحقيقة كما يتغنى بها الكثير من الشعراء، وكما ينادي بها الكثير من المفكرين على أنها الحكمة النهائية. الحقيقة – بأن الحب هو الهدف الغائي والاسمي الذي يمكن أن يطمح الانسان اليه. ثم أدركت معنى السر الأعظم الذي ينبغي أن يفصح عنه الشعر الانساني والفكر الإنساني والايمان الانساني: أن خلاص الانسان هو من خلال الحب وفي الحب. لقد فهمت كيف أن الإنسان، الذي لم يتبق له شيء في هذه الدنيا، لا يزال يعرف السعادة، ولكن للحظة قصيرة فقط، من خلال التأمل والتفكير في المحبوب. في موقف يحرم فيه الانسان من التعبير اللفظي عن نفسه بطريقة ايجابية، ويكن فيه انجازه الوحيد هو تحمله لما يعانيه بالطريقة الصحيحة – بطريقة جديرة بالاحترام – في مثل هذا

الموقف يستطيع الانسان، من خلال تأمله الحاني للصورة التي يحملها عن المحبوب، أن يتوصل إلى مراده. ولأول مرة في حياتي كنت قادرا على فهم معنى الكلمات التالية: «ان الملائكة قد انطلقت مستغرقة في تأمل أبدي للمجد اللانهائي».

في هذه اللحظات تعثر أمامي شخص ووقع فوقه المسجونون الذين يسيرون من خلفه. وسرعان ما اندفع الحارس نحوهم وانهال عليهم بالسياط. وقد ترتب على ذلك أن انقطعت أفكاري لبضع دقائق. ولكن سرعان ما وجدت روحي طريقها حيث تركت الوجود الذي يعيشه السجين لتحلق في عالم آخر، فيه تحدثت معي محبوبتي: لقد سألتها سؤالا، وأجابتني؛ ثم سألتني بدورها، وأجبت عليها.

«قف!» لقد وصلنا إلى موقع عملنا. واندفع كل شخص إلى المخزن المظلم بغية الحصول على أداة جيدة للعمل. وحصل كل سجين على مجراف أو معول.

«الا تستطيعون الجري، يا خنازير؟» وعلى الفور استأنفنا العمل في مواقع اليوم السابق بالخندق. وصارت الأرض المتجمدة تتكسر تحت دق المعاول، والشظايات تتطاير منها. وكان الرجال صامتين، وكانت عقولهم فاقدة الحس.

الا أن عقلي لا يزال متعلقا بصورة زوجتي. وجالت بعقلي فكرة: انني لا أعرف ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. ولكني أعرف شيئا واحدا فقط – وهو ما أعرفه الآن جيد: هو أن الحب يذهب إلى ما هو أبعد في غايته من الشخص البدني للمحبوب. هذا الحب يجد معناه الأعمق في الوجود الروحي لهذا الشخص المحبوب، أي في ذاته الداخلية. وسواء أكان لشخص بالعقل حاضرا أو غير حاضر، وسواء أكان لا يزال على قيد الحياة أم لا، فان هذه أمور تفقد في ذاتها بعض أهميتها.

لم أكن أعرف ما إذا كانت زوجتي على قيد الحياة أم لا، كما أنني لم أملك الوسائل التي بها يمكن أن أعرف ذلك (ففي خلال كل حياتي بالسجن انقطعت كل مراسلاتنا ولم يكن هناك بريد يرد الينا من خارج السجن كما أننا لم نكن نستطيع إرسال خطابات)؛ ولكن فقد كل ذلك أهميته في تلك اللحظة. فلم تعد بي حاجة إلى أن أعرف ما يجري؛ فليس هناك من شيء يستطيع أن ينال من قوة حبي، ومن أفكاري، ومن صورة محبوبي. ولو كنت قد عرفت عندئذ أن زوجتي قد ماتت، فأنني كنت أستمر أطلق العنان لنفسي – غير مضطربة بتلك المعرفة – وكنت أسترسل في ذلك التأمل في صورتها، وفي التحدث العقلي معها بأسلوب يتسم بالحياة والحيوية والإشباع. فالحب هو الخاتم الذي يبصم نفسه على القلب وهو في قوته كالموت.

الهروب إلى الماضي

ومن شأن هذه التقوية للحياة الداخلية أن تعين السجين على أن يجد ملاذا يلجأ اليه هربا من الفراغ والدمار والفقر الروحي لوجوده، وذلك بأن تجعله يهرب الى الماضي. فحينها يطلق العنان لخياله، فان هذا الخيال يتفاعل مع أحداث ماضيه، غالبا ما تكون أحداثا غير هامة، ولكنها وقائع صغيرة وأشياء تافهة. وتقوم ذاكرته التواقة إلى الماضي بتعظيمها، وتصبح ذات طابع غريب. فعالمها ووجودها بعيدان للغاية، وتتوق اليها الروح باشتياق: ففي عقلي تواترت احداث عن الاتوبيس الذي ركبته وهو يسير، وعن عدم قيامي بإغلاق الباب الأمامي لشقتي، وعن ردي على التليفون، وعن إشعال النور بالمفاتيح الكهربية.

وغالبا ما كانت أفكارنا تتمركز حول هذه التفاصيل، كما أن هذه الذكريات تحرك فينا الانفعال والأسى.

وكلما صارت الحياة الداخلية للسجين أكثر عمقا، صار السجين أيضا أكثر نزعة إلى أن يخبر جمال الفن والطبيعة بطريقة لم يعهدها أبدا من قبل. فبتأثيرهما كان ينسى في بعض الأحيان ظروفه الباعثة على الفزع. ولو أن شخصا ما كان قد رأى

وجوهنا في الرحلة من آوشويتز إلى معسكر بافاريا حينما شاهدنا جبال سالزبورج بقممها المتألقة في أشعة الشمس، من خلال النوافذ القليلة المدعمة بالقضبان في عربة السجن، فانه لن يصدق أبدا أن تلك كانت أوجه أولئك الأشخاص الذين سبق لهم أن فقدوا كل أمل في الحياة والحرية. وبالرغم من ذلك العامل – أو ربما بسببه – فقد استولى جمال الطبيعة على أفئدتنا، بعد أن كنا قد افتقدناه مدة غير قصيرة.

الاحساس بالجمال

وفي المعسكر أيضا قد يوجه الشخص انتباه زميل له يعمل بالقرب منه حتى يمكن أن يرى المنظر الخلاب لغروب الشمس وتخلل أشعتها للأشجار الجميلة الطويلة بغابات بافاريا؛ وهي تلك الغابات عينها التي بنينا فيها مستودعا سريا هائلا للذخائر والعتاد الحربي. ذات مساء، حينما كنا نركن إلى الراحة على أرض كوخنا، وقد أضنانا التعب، ونحن ممسكون بأوعية الحساء في أيدينا، دخل علينا أحد الزملاء مندفعا وطلب منا أن نهرع إلى الأراضي المحيطة بنا لنرى المنظر العجيب لغروب الشمس. وقفنا خارج الكوخ، وأبصرنا السحب تتقد في الغروب، والسماء كلها تتألق بالسحب التي يتغير أشكالها وأنواعها باستمرار، من اللون الأزرق المشوب بالرمادي إلى اللون الأحمر الدموي. أما منظر الطين الكئيب فقد اعطى تناقضا حادا، حيث كانت المستنقعات المنتشرة على الأرض الطينية تعكس السماء المتألقة. وبعد دقائق من الصمت، قال سجين لأخر: «كم يمكن أن تكون الدنيا جميلة!»

وذات مرة كنا نعمل في خندق. وكان الفجر رماديا من حولنا، والسماء رمادية فوقنا، والثلج رمادي في ضوء الفجر الشاحبة والخرق المكسوة بها أجساد زملائي المسجونين وكذلك وجوههم كانت رمادية اللون. ومرة أخرى كنت أتحدث في صمت مع زوجتي، أو ربما كنت أجاهد كي أتوصل إلى سبب آلامي وعذابي، موتي البطيء. واحسست في – آخر احتجاج عنيف ضد اليأس المصاحب لموت وشيك – بروحي تخترق حالة الكآبة التي تمتلكني. شعرت بها تسمو بذلك العالم المشوب باللامعنى وبفقدان الأمل والرجاء، وسمعت من مصدر ما «نعم» الظافرة كإجابة عن سؤالي الخاص بوجود هدف غائي. وفي تلك اللحظة تألق ضوء منبعث من بيت في مزرعة بعيدة، ترامي في الأفق كما لو كان مرسوما عليه، في وسط اللون الرمادي الكئيب لفجر الصباح في بافاريا. «والضوء يتألق في الظلام (Et lux in tenebris lucet)». ولساعات وقفت على الأرض الجليدية محركا قدمي عليها. ومر الحارس بالقرب مني، ونهرني بالشتائم والسباب، ولكن سرعان ما عدت إلى التحادث مع المحبوب مرة أخرى. وتملكني شعور متزايد بأنها موجودة، وبأنها معي؛ بل انني شعرت بأني قادر على أن المسها، وبأن أمد يدي إليها واعانقها. هذا الشعور كان قويا للغاية: انها «هناك». وفي تلك اللحظة هبط طائر في سكون، وحط أمامي، على كومة التراب التي تجمعت مما حفرت من الخندق وأخذ يحدق في بنظرة حانية مثابرة.

لقد أشرت من قبل الى الفن. وهل يوجد ذلك الشيء في معسكر للاعتقال؟ أن ذلك يتوقف أكثر ما يتوقف على ما يختاره المرء ليسميه فنا. ومن وقت لأخر يتجمع بعض المسجونين في نوع من الملهي، حيث كان يجري تنظيف الكوخ مؤقتا، وتُصَفَّ بعض المقاعد الخشبية القليلة أو تثبت بالمسامير ويبدأ برنامج للترويح. وفي المساء كان يتجمع هناك أولئك الأشخاص الذين يحظون بمكانة طيبة في المعسكر – مثل رجال الكابو والعاملون الذي لا يبارحون المعسكر الى مسافات بعيدة سيرا على الأقدام.

وهم يأتون لكي يتمتعون بضحكات قليلة أو ربما يتصايحون قليلا؛ وكل هذا بهدف النسيان بأي طريقة من الطرق. وفي هذا

التجمع توجد الأغاني والأشعار والنكات، وبعضها كان ينطوي على تعريض بالمعسكر أو حتى هجاءه ونقده. وكان القصد من كل ذلك مساعدتنا على النسيان؛ وقد ساعدنا بالفعل. وكانت هذه التجمعات فعالة إلى درجة أن بعض المسجونين كانوا يذهبون لرؤية هذا الملهى رغم التعب البادي عليهم، ورغم افتقادهم لنصيبهم اليومي من الطعام اذا ذهبوا إلى هذا التجمع.

أثناء فترة النصف الساعة لتناول الغذاء حينها يرجي توزيع الحساء في موقع عملنا، كان يسمح لنا بالتجمع في حجرة لماكينات لم يتم الانتهاء منها. وعند الدخول لهذه الحجرة، كان كل شخص يأخذ غرفة من الحساء غير المركز، وبينما كنا نرتشفها بنهم، كان مسجون يعتلي حوضا ويغني الحانا ايطالية. وكنا نستمتع بالأغاني، وكانوا يمنحوني معونة مضاعفة من الحساء، «من القاع» مباشرة – وهذا يعني حساء ذاخراً بالبازلاء.

لم يكن ما يعطى من الجزاء في المعسكر قاصرا على التسلية فحسب وانما كان يعطى " كذلك على التصفيق. كان في ذلك، على سبيل المثال، حماية لي من أكثر رجال الكابو في المعسكر إرهابا، والذي كان يعرف لأكثر من سبب على أنه «الكابو القاتل». وكيف حدث ذلك. في مساء يوم من الأيام كان لي شرف كبير أن أدعى مرة أخرى الى الحجرة التي يجري فيها استحضار الأرواح. هناك تجمعت نفس مجموعة الأصدقاء المقربين إلى كبير الأطباء والضابط المسئول عن فريق الرعاية الصحية. وبالصدفة دخل الكابو القاتل إلى الحجرة، وطلبوا منه أن يردد إحدى أشعاره التي غدت مشهورة (او غير مشهورة) في المعسكر. ولم يكن بحاجة إلى أن يطلب منه ذلك مرتين، فبسرعة اخرج نوعا من دفاتر تدوين اليوميات وبدأ يقرأ منها عينات من فنه. وصرت أعض على شفتي حتى ألمتني كي أمنع نفسي من الضحك على أحد أشعاره عن الحب، ومن المحتمل تماما أن هذا قد أنقذ حياتي. ولما كنت أيضا كريما في تصفيقي له، فان حياتي قد كتبت لها النجاة حتى ولو كنت مسجلا بمجموعة العمل عنده ليوم واحد– وهو يوم كاف تماما بالنسبة لي. فكان من المفيد، بأية طريقة، أن أكون معروفا من زاوية مفضلة لدى الكابو القاتل. لذا كنت أصفق بقدر ما أوتيت من قوة.

ويمكننا بطبيعة الحال أن نقول بصفة عامة أن أي لون من ألوان الفن في المعسكر لا يخرج عن كونه شيئا غريبا أو مثيرا لدرجة ما لبعض السخرية والضحك. وأستطيع أن أقول إن الانطباع الحقيقي عن أي شيء يتصل بالفن انما ينشا فقط من التناقض الشبحي بين الأداء الترويجي وبين خلفية حياة المعسكر الكئيبة. فلن أنسى أبدا كيف استيقظت من نوم عميق استغرقت فيه نتيجة للإجهاد في الليلة الثانية في معسكر أوشويتز، على أصوات موسيقى، حيث كان الحارس الأكبر لجناحنا قد أجرى احتفالا في حجرته التي كانت قريبة من مدخل جناحنا. وكانت الأصوات المترنحة سكرا تتعالى بنغمات مبتذلة. وفجأة خيم الصمت على المكان وأخذ الكمان يشدو في سكون الليل بنغمة حزينة (هي نغمة رقصة التانجو) باعثة على اليأس؛ وهي نغمة غير عادية لم يفسدها تكرار عزفها. على هذه النغمة بكى الكمان وكان يبكي جزء مني معه، لأنه في ذلك اليوم نفسه كان عيد الميلاد الرابع والعشرين لشخص ما. ذلك الشخص يرقد في مكان آخر بالمعسكر، ومن المحتمل أن يرقد على بعد مئات قليلة من ياردات أو الألف باردة بعيدا عني، ومع ذلك فان الوصول اليه مستحيل تماما. ذلك الشخص كان زوجتي.



تنمية روح المرح كحيلة للمحافظة على الذات

مما قد يبعث على الدهشة أن يكتشف الشخص من خارج المعسكر أنه يوجد مظهر من مظاهر الفن في معسكر للاعتقال، ولكن ربما يكون أكثر مدعاة للدهشة أن نسمع كذلك بوجود إحساس بالمرح والدعابة. كان المرح في الواقع سلاحا آخر من

أسلحة الروح في نضالها من أجل البقاء او المحافظة على الذات. ومن المعروف جيدا أن المرح يستطيع أن يزود المرء بالانعزال عن أي موقف وبالقدرة على أن يعلو فوقه، حتى ولو لثوانٍ قليلة فقط. والمرح يتفوق في هذا على أي شيء آخر في التكوين البشري. ولقد دربت بطريقة عملية صديقا لي كان يعمل في موقع قريب مني على أن ينمي روح المرح. واقترحت عليه أن يتعهد كل منا أمام الآخر بأن يبتدع كل واحد منا على الأقل حكاية واحدة تبعث على الضحك مما يتعلق بواقعة ما يمكن أن تحدث في أحد الأيام بعد فك أسرنا. وقد كان هذا الصديق جراحا يعمل ضمن هيئة الأطباء بمستشفى كبير. وقد حكيت له الدعابة التالية، استنادا إلى ما كان يجري في موقع العمل، حيث كان الحارس يحثنا على العمل بشكل أسرع بواسطة صياحه فينا: «اشتغل! اشتغل!»: «في أحد الأيام سوف تعود إلى حجرة العمليات لتجري عملية جراحية كبيرة في البطن. وفجأة يقتحم الحجرة أحد المشرفين معلنا وصول كبير الجراحين بصياحه «اشتغل اشتغل!» وفي بعض الأحيان كان يبتدع أشخاص آخرون أحلاما مسلية عن المستقبل، مثل التنبؤ بانه عليهم في المستقبل اثناء تناول طعام الغذاء آن ينسوا أنفسهم حينما يقدم الحساء ويطلبوا من ربة البيت أن تصب لهم حساءً «من القاع».

المعاناة حالة نسبية

ان محاولة تنمية روح المرح ورؤية الأشياء من منظور مرح يعتبر نوعا من الحيل المتعلمة من خلال التمكن من فن الحياة. الا انه من الممكن أن يجري التدرب على فن الحياة حتى ولو كان في معسكر اعتقال، رغم أن المعاناة موجودة في كل مكان. ويمكننا أن نشبه معاناة الانسان بما يفعله الغاز. فلو أن كمية معينة من الغاز جرى ضخها في حجرة فارغة، فإنها سوف تملأ الحجرة كلية بالتساوي، بصرف النظر عن حجم الحجرة. وعلى هذا النحو فان المعاناة تغمر الروح الإنسانية كلها والعقل الواعي بأكمله، بصرف النظر عما إذا كانت المعاناة كبيرة أم صغيرة. «حجم» المعاناة الانسانية اذن مسألة نسبية تماما.

يتبع ذلك أيضا أن الشيء التافه قد يسبب بهجة عارمة. ولنأخذ لذلك مثالا مما حدث لنا في رحلتنا من معسكر آشويتز الى المعسكر الواقع في منطقة داشاو. ولقد تملكنا جميعا خوف من أن تكون سفرتنا متجهة صوب معسكر ماوتسهاوزن. وصرنا جميعا نزداد توترا كلما اقتربنا من قنطرة معينة على نهر الدانوب يعبرها القطار لكي يصل إلى ماوتسهاوزن، وفقا لما قرره زملاؤنا ذوو الخبرة في السفر. وأي انسان لم ير أبدا شيئا مماثلا لمثل هذه المواقف لا يستطيع أن يتخيل رقص الزملاء من الفرح داخل عربة القطار حينما رأوا أن القطار لم يعبر القنطرة وانما اتجه رأسا إلى منطقة داشاو.

مرة أخرى، ما الذي حدث عند وصولنا إلى ذلك المعسكر، بعد رحلة استغرقت يومين وثلاث ليال؟ لم يكن هناك مكان يكفي لكل فرد لكي يجلس القرفصاء على أرض العربة في ذلك الوقت. فكان على معظمنا أن يقفوا طوال الطريق، بينها تناوبت القلة أن تجلس القرفصاء على كومة خفيفة من القش المنقوع في البول. كانت أولى الأنباء الهامة التي تسربت الينا من المسجونين القدامى عند وصولنا أنه في هذا المعسكر الأصغر نسبيا (وعدد نزلائه ٢٥٠٠ سجينا) لا توجد أفران، ولا محرقات، ولا غاز. ومعنى هذا أن الشخص الذي يصير هزيلا جسميا لا يرسل إلى حجرات الإعدام بالغاز، ولكن عليه أن ينتظر حتى يتم إعداد ما يعرف ب «فرقة المرضي» التي يجري إعادتها إلى معسكر آوشويتز. وهذه الأنباء المفاجئة السارة قد أوجدت فينا جميعا حالة مزاجية طيبة. وتحققت بذلك رغبة المشرف الأكبر على مجموعتنا في أوشويتز: بأننا قد جئنا، بأسرع ما يمكن، إلى معسكر لم يكن له «مدخنة» – خلافا لمعسكر آوشويتز. وأخذنا في الضحك وإطلاق النكات رغم ما علينا أن نمر به خلال الساعات القليلة التالية.

وحينما قاموا بإحصائنا نحن الوافدين الجدد، كان هناك واحد منا مفقودا. لذا كان علينا أن ننتظر خارجا في المطر والريح

الباردة حتى يعثروا على الشخص المفقود. وقد اكتشفوه أخيرا في جناح، حيث خر نائما من التعب. عندئذ تحولت عملية تفقد الأسماء إلى استعراض عقابي. فكان علينا جميعا أن نقف طوال الليل وحتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، في العراء متجمدين من البرد بعد عناء رحلتنا الطويلة. ورغم ذلك فقد كنا جميعا مسرورين للغاية! فلا توجد مدخنة في هذا المعسكر، كما أن معسكر اوشويتز بعيد عنا تماما.

وفي مرة أخرى رأينا مجموعة من الأشخاص المحكوم عليهم بالسجن يمرون أمام موقع عملنا. واتضحت لنا النسبية في ألوان المعاناة التي بدت لنا عندئذ! وأخذنا ننظر بعين الحسد لأولئك المسجونين على ما يتمتعون به نسبيا من الحياة المنظمة الأمنة والسعيدة. وكان واضحا بما لا يدعو للشك أنهم يحظون بفرص منظمة لأخذ الحمامات؛ وقد كنا نفكر في ذلك بحزن. وكانت لديهم الفرش لتنظيف الأسنان والملابس النظيفة والفراش المريح – فراش مستقل لكل واحد منهم، وكانوا يتلقون الرسائل مرة كل شهر مما كان يحمل إليهم أخبار ذويهم، أو على الأقل يعرفهم ما إذا كانوا على قيد الحياة. أما نحن فقد حرمنا من ذلك كله منذ فترة طويلة.

كذلك كم كنا نحسدهم على ما كانوا يتمتعون به من فرص للعمل في مصنع في أماكن مهيأة مسقوفة! وكانت رغبة كل شخص منا أن يحظى بذلك القدر من الحظ الذي معه يكتب لحياته النجاة. هذا المقياس من الحظ النسبي يتسع حتى إلى ما هو أبعد من ذلك. كان بين تلك المجموعات الموجودة خارج المعسكر (وكنت عضوا في واحدة منها) بعض الوحدات التي اعتبرت أسوأ من غيرها. فقد يحسد شخص زميلا له على أنه لا يخوض في الوحل العميق على منحدر عال ليقوم بتمهيد خطوط حديدية لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميا. وفي هذا العمل كانت تقع معظم الحوادث اليومية، وكانت في الغالب حوادث مميتة.

وفي جماعات عمل أخرى كان المشرف يتبع تقليدا يبدو أنه كان تقليدا محليا. يقوم على توجيه الضربات واللطمات لمسجونيه، الأمر الذي يجعلنا نتكلم عن الحظ النسبي وعن اننا لحسن الحظ لسنا تحت إمرته. أو ربما تحت إمرته لفترة مؤقتة فقط. في أحد المرات، وبالصدفة الغير السعيدة، ألحقوني بمثل تلك المجموعة. ولو لم يحدث أن صفارة الانذار بالمعسكر قد حولت انتباهه عني بعد ساعتين من ذلك (وقد كان في هذه الفترة يترقبني بصفة خاصة)، حيث كان عليه أن يعيد تنظيم الجماعة بعد هذه الفترة، فإني أعتقد أني كنت سأعود إلى المعسكر محمولا على ناقلة تقل أولئك الأشخاص الذين وافته المنية أو أشرفوا على الموت من وطأة التعب والإجهاد. ولا يستطيع أحد أن يتخيل مدى الارتياح الذي يمكن أن تحدثه الصفارة في هذا الموقف؛ ذلك الارتياح الذي يفوق إحساس الملاكم الذي يسمع الجرس معلنا نهاية الشوط والذي يكون بذلك قد نجا في الدقيقة الأخيرة من خطورة ضربة قاضية.

ولذلك، كنا شكورين على أقل ما يصيبنا من نعمة ومن رحمة. وكنا مسرورين حينها نجد وقتا لإزالة القمل العالق بملابسنا قبل أن نأوي إلى مضاجع النوم، رغم أن هذا لم يكن في ذاته مدعاة للسرور، إذ أنه كان يعني الوقوف عرايا في مكان منعدم التدفئة تتدلى من سقفه بلورات المياه المتجمدة. الا اننا كنا شكورين إذا لم تدو صفارة الانذار بالمعسكر لتعوقنا عن القيام بهذه العملية واذا لم تنقطع الاضاءة عنا. اذ لو حدث أننا لم نقم بهذه المهمة كما ينبغي، فسوف يتملكنا الأرق نصف الليل.

هذا السرور الزهيد لحياة المعسكر قد ولد فينا نوعا من السعادة السلبية – «سعادة الخلاص من المعاناة» كما يقررها شوبنهاور – وحتى هذا فإنه لم يكن الا على نحو نسبي. أما الأشكال الإيجابية الحقيقية للسرور، وحتى الأشكال الصغيرة منه، فقد كانت ضئيلة للغاية. أتذكر أني قد قمت في أحد الأيام بكتابة فترات السرور في حياتي بالمعسكر، فوجدت أنه في الأسابيع الكثيرة الماضية خبرت فقط لحظتين باعثتين على السرور: الأولى عندما كنت عائدا من العمل، وحين سمحوا لي بان

احصل على طعامي من طابور الطباخ السجين «ف»، الذي كان يقف خلف وعاء ضخم ويصب الحساء في السلطانيات التي تمتد بها أيدي المسجونين الذين يسيرون واحدا تلو الآخر. لقد كان الطباخ الوحيد الذي لا يتفحص وجوه المسجونين اثناء صبه الحساء لهم؛ كما كان الطباخ الوحيد الذي يوزع الحساء بالتساوي، دون اعتبار للرشاوى، أو دون محاباة لأصدقائه أو أهل بلده، كما يلتقط لهم قطع البطاطس من قاع الوعاء، بينما الآخرون من المسجونين يحصلون على حساء مائي منزوع من السطح.

لكن ليس لي أن أطلق حكما على أولئك المسجونين الذين يفضلون معارفهم أو أهلهم على أي شخص آخر. من يستطيع أن يقذف بالحجر شخصا يُؤثر أصدقاءه تحت ظروف الحياة او الموت، إن آجلا أو عاجلا؟ فليس من حق أي شخص أن يصدر حكمه على فعل ما الا إذا سأل نفسه بأمانة مطلقة عما اذا كان سيسلك نفس السبيل في موقف مماثل.

حدث بعد فترة من استعادتي لحياتي العادية مرة ثانية (أي بعد فترة طويلة من إطلاق سراحي من المعسكر) أن قدم لي شخص مجلة أسبوعية تحوي صورا لمساجين متزاحمين على أسرتهم غير المريحة، وهم يحملقون في أحد الزوار بإحساس متبلد أو بغباء. قال هذا الشخص: «اليس هذا منظرا رهيبا؟ تلك الأوجه المحدقة بنظرات الهلع – فكل شيء في هذا المنظر يبعث على الفزع».

فبادرت زميلي بالسؤال «ولماذا؟». لأني بصدق لم أفهم ما يقرره من وحي هذه الصورة. ففي تلك اللحظة رأيت كل هذا المنظر مرة ثانية: في الساعة الخامسة صباحا، كانت الدنيا لا تزال غارقة في الظلام الدامس. وكنت أضجع على ألواح خشبية قاسية في جناح أرضي حيث تجمع حوالي سبعين مسجون منا «تحت الرعاية». لقد كنا مرضي، ولا نبارح المعسكر إلى مواقع العمل، ولا نسير في طوابير العرض. وكنا نستلقي طيلة اليوم في ركن صغير من الجناح، ونستغرق في نوم خفيف، انتظارا لتوزيع المؤونة اليومية من الخبز (والتي تنتقص بالنسبة للمرضى بطبيعة الحال) ومن الحساء (المخفف والناقص من حيث الكمية). ومع ذلك، فقد كنا نشعر بالرضا وبالسرور رغم كل شيء. وبينما كنا نتكوم وننكمش التصاقا ببعضنا البعض لكي نتجنب أي تسرب للدفء من بيننا، وبينما كان الكسل والتبلد آخذين منا بحيث لم تكن لدينا رغبة لأن نحرك إصبعا بدون ما ضرورة، إذا بنا نسمع صفيرا وصياحا صاخبين صادرين من أحد الجوانب حيث عادت الدورية الليلية وتجمعت للمناداة على الأسماء للتأكد من تواجدنا. وانفتح الباب بقوة على مصراعيه، واندفعت الرياح الثلجية العاصفة داخل جناحنا، ودخل أحد الرفقاء المنهكين، والثلوج تغطيه، إلى الجناح لكي يجلس لدقائق قليلة. ولكن المشرف الاكبر طرده خارجا مرة ثانية. لقد كان من المحظور بكل صرامة أن يسمح لشخص غريب بدخول الجناح، بينما تجري عملية مراجعة المسجونين. وكم شعرت بالأسى لذلك الزميل، وكم كنت مسرورا على أني لم أكن أنا في موقفه في تلك اللحظة، وانما بدلا من ذلك كنت مريضا وأستطيع أن أنال بعض النوم الخفيف في جناح المرضى! وكم كان في هذا انقاذ لحياتنا بأن نمكث ليومين في هذا المكان، بل ربما ليومين آخرين بعد ذلك!

كل ذلك قد استعدته في عقلي حينما رأيت الصور في المجلة. وحينما تذكرت ذلك الموقف، استطاع المستمعون أن يفهموا لماذا لم أجد الصبر هكذا باعثة على الفزع: فالأشخاص الذين يظهرون في هذه الصور قد يكونون بالتعاسة التي تحكي عنها رغم كل شيء.

في اليوم الرابع من ركوني بجناح المرضى اختاروني لمهمة خاصة بالواجبات (الوردية الليلية، حينما اندفع كبير الأطباء إلى الجناح وطلب مني آن اتطوع للقيام ببعض الأعمال الطبية في معسكر آخر يحوي مرضي بالتيفوس، وقد قررت أن أتطوع استجابة للنصيحة الملحة لأصدقائي (رغم الحقيقة بأن زملائي لم يقدموا خدماتهم في هذا الميدان). وقد كنت أعلم أن التحاقي بفريق

للعمل يعني موتي في فترة قصيرة. ولكن إذا كان لي ان أموت هكذا، فسوف يكون لموتي معني على الأقل. ولا شك أني اخذت على عاتقي هدف محاولة مساعدة زملائي كطبيب بدلا من حياة البلادة التي أعيشها او فقداني لحياتي في النهاية كعامل غير منتج كما كنت آنذاك.

لم يكن في ذلك تضحية بالنسبة لي. فقد أمر الضابط المسئول في فريق الرعاية الصحية سرا بان الطبيبين اللذين تطوعا للعمل في معسكر التيفوس يلقيان «رعاية خاصة» إلى أن ينتهيا من مهمتهما. لقد بدا علينا الضعف والوهن واضحين، حتى أن الضابط قد راوده خوف من أنه سوف يكون بين يديه جثتان أخريان بدلا من طبيبين عاملين.

الأنا والقيم

ذكرت من قبل كيف أن كل شيء قد فقد قيمته ما يكن مرتبطا بالمهمة الراهنة الخاصة باحتفاظ الشخص بنفسه وبأصدقائه المقربين أحياء. لقد جرت التضحية بكل شيء من أجل هذه الغاية. وصار خُلُق الانسان متورطا إلى الحد الذي جعله يعيش حالة عقلية مضطربة تهدد ان القيم التي يتمسك بها وتجعلها موضع شك. فتحت تأثير هذا الداء الذي لم يعد يعترف بقيمة الحياة الانسانية والكرامة الإنسانية، والذي قد سلب من الانسان إرادته وجعله عرضة للإبادة، تعاني الأنا عند الشخص في النهاية من فقدان القيم. وإذا لم يكافح الانسان في معسكر الاعتقال ضد ذلك حتى آخر جهد لديه لكي ينقذ احترامه لنفسه، فإنه يفقد الشعور بكونه فرداً، وكائنا له عقل، وله حرية داخلية وله قيمة شخصية. فهو عندئذ يعتقد انه ليس إلا جزءاً من حشد هائل من الناس؛ ويهبط وجوده إلى مستوى الحياة الحيوانية. فهؤلاء الأشخاص كانوا يساقون كالحيوانات – أحيانا من مكان إلى آخر، وأحيانا أخرى كجماعات، ثم فرادي – مثل قطيع الأغنام المجرد من أي تفكير او إرادة. وكانت هناك شرذمة صغيرة ولكنها خطيرة من الحراس تراقبهم من كل الجوانب، متمكنة تماما من كل طرق التعذيب والسادية. فهم يسوقون قطيع المسجونين على نحو متواصل، الى الأمام والى الخلف، بالصياح والركلات والصفعات. أما نحن، القطيع، فلم نكن نفكر الا في شيئين: أحدهما كيف نتجنب الكلاب الشرسة، وثانيهما كيف نحصل على بعض الطعام.

وقد كان كل شخص منا، مثل الخراف التي تتزاحم بجبن وسط القطيع، يحاول أن يصل إلى وسط التجمعات، حيث أن ذلك يمنحه فرصة أفضل لتجنب لطمات الحراس وركلاتهم ممن يسيرون على الميمنة والميسرة وفي المقدمة والمؤخرة من الصف (الطابور) الذي نسير فيه. وكان للمركز الأوسط داخل تجمع الطابور ميزة أخرى تتمثل في الاحتماء من الرياح القاسية. لذا كان كل فرد يسعى – كمحاولة لكي يفلت بجلده – إلى أن يختفي بداخل الحشد. وكان هذا يجري بطريقة آلية عند بداية تجمع الصف (الطابور). ولكن في أوقات اخرى كان يتم ذلك من جانبنا بجهد مقصود، كمسايرة مع بعض القوانين الأكثر إلحاحا بالمعسكر وهي قوانين حماية النفس: لا تكن ظاهرا ولذا حاولنا في كل الأوقات ان نتجنب اجتذاب انتباه الحراس.

وقد كانت هناك أوقات، بطبيعة الحال، يكون فيها من الممكن، بل من الضروري، أن نبتعد عن الحشد. فمن المعروف جيدا أن الحياة الجماعية المفروضة، حيث تجرى مراقبة كل شيء يفعله الفرد في كل الأوقات، قد تتمخض عن حافز قهري للتباعد، على الأقل لفترة قصيرة. لذا كان السجين يتوق إلى أن يكون وحده مع نفسه وأفكاره. فهو في شوق إلى العزلة والوحدة. لقد أتيحت لي – بعد تقلي إلى ما يعرف ب «معسكر الاستشفاء». فرصة نادرة لأن اتمتع بهذه الوحدة لمدة خمس دقائق في كل مرة. فخلف الجناح الأرضي، حيث كنت أعمل وحيث يتجمع ما يقرب من خمسين مريضا محموما، كانت هناك بقعة هادئة في ركن قريب من سياج الأسلاك الشائكة المكهربة المحيطة بالعسكر. وفي هذا المكان جري نصب خيمة ببعض القوائم وأغصان الأشجار كي تأوي نصف دستة من أجساد الموتى (وهو المعدل اليومي للموت في المعسكر). وكان هناك أيضا ممر

رئيسي يؤدي إلى انابيب المياه. وعلى الغطاء الخشبي لهذا الممر كنت اجلس القرفصاء، حينما يكونون بغير حاجة إلى خدماتي. كنت اجلس واتطلع إلى المنحدرات المزدانة بالخضرة والزهور والى التلال الزرقاء البعيدة المترامية في أراضي بافاريا، وهي الأراضي التي تحدها شبكات الاسلاك الشائكة. وتستغرقني الأحلام بشوق، وتجوب أفكاري في الشمال والشمال الشرقي، في اتجاه منزلي، إلا أني لم أكن أرى إلا سحباً فحسب.

أما الجثث الملقاة بالقرب مني، والغاصة بالقمل، فلم تكن لتقلقني. ولكن ما كان يفيقني من أحلامي هو وقع خطوات أقدام الحراس المارين، أو المناداة لكي أذهب إلى جناح المرضى أو لكي أقوم باستلام مؤونة من الدواء وصلت أخيرا إلى جناحي – وهذه المؤونة تتألف غالبا من خمسة إلى عشرة أقراص من الأسبرين تستخدم لعدة أيام لخمسين مريضا. وكنت أقوم بجمع هذه الأقراص، ثم أدور على المرضي كي اتفقدهم، وأتحسس نبضهم، وأعطي نصف قرص من الأسبرين للحالات الشديدة. أما الحالات الميؤوس منها فلم تكن تلق دواءً. ولم تكن هذه الأقراص تسدي أية مساعدة، بل إنها كانت لا تعطى لأولئك الذين لا يزال فيهم بعض الأمل في الحياة. أما الحالات الخفيفة، فلم يكن عندي ما اعطيه لها سوى كلمة تشجيع. وعلى هذا النحو كنت أجُرّ نفسي متفقدا مريضا وراء الآخر، رغم أني أنا نفسي كنت ضعيفا ومرهقا من نوبة حادة من التيفوس. وبعد ذلك اعود ادراجي إلى مكاني المنعزل على الغطاء الخشبي للممر المائي.

في أحد المرات، كان هذا الممر سببا في إنقاذ أرواح ثلاث من زملائي المسجونين. فقبل إطلاق سراحنا، جرى تنظيم عمليات النقل الجماعي إلى داشاو، وحاول هؤلاء الزملاء بحكمة أن يتهربوا من هذا النقل. وقد تم ذلك بأن زحفوا إلى الممر واختبأوا فيه من الحراس. وجلست بهدوء على الغطاء الخشبي، ناظرا ببراءة ومشغولا بطريقة طفلية باللعب بالحصى التي ألقيها على السلك الشائك. وحينما اقترب الحارس من مكاني تردد للحظة، ثم انصرف لحاله. وما ان اختفى الحراس حتى اخبرت الزملاء الثلاث بزوال أسوأ الأخطار.

إغفال الوجود الإنساني

من الصعب تماما على أيّ شخص خارجي أن يدرك كيف أن الحياة الانسانية لم يكن لها في المعسكر قيمة تذكر. لقد كانت حياة النزيل بالمعسكر كلها مشقة ومعاناة، لكن من المحتمل ان يكون صار أكثر وعيا بهذا الإغفال التام للوجود الإنساني حينما كان يجري ترتيب موكب نقل المرضى. فأجسام المرضى الهزيلة كانت تلقى على عربة ذات عجلتين يقوم بجرها مسجونون لعدة أميال، غالبا في العواصف الثلجية، لكي ينقلوها إلى المعسكر التالي. وإذا حدث أن ألقي أحد المرضى حتفه قبل رحيل العربية، فإنه كان يلقى به في أي مكان – هنا ينبغي أن تكون قائمة المرضى صحيحة. فالقائمة هي الشيء الوحيد الذي يعنيهم في كل ذلك. لقد صار الشخص عبارة عن رقم من الأرقام: وسواء أكان حيا أم ميتا، فإن هذا ليس بالأمر المهم. أما حياة «الرقم» فلم تكن موضع اعتبار تماما. وما يكمن وراء ذلك الرقم وتلك الحياة فلم يكن يعني الا قليلا: مصير الشخص، وتاريخه، واسمه. أذكر ذات مرة في إحدى عمليات نقل المرضى، حيث كان على أن أصحبهم من معسكر إلى آخر، أن سجينا صغيرا قد وجد أن أخيه لم يكن مدرجا في القائمة وأنه لذلك سيتركونه وراءهم. أخذ هذا السجين الصغير يتوسل كثيرا حتى أن المسئول عن المعسكر قد قرر أن يجري تبديلا، حيث جعل الأخ يحل محل شخص كان يفضل في تلك اللحظة أن يمكث ولا يرحل. ولكن القائمة كان ينبغي أن تكون صحيحة. وهذا أمر سهل. فقد لجأ الأخ إلى مجرد استبدال الأرقام مع السجين الآخر.

ذكرت من قبل، أننا لم نكن نحمل اية وثائق؛ فيكفي كل فرد حظا أن يمتلك جسده الذي كان، بعد كل ذلك، لا يزال

ينبض بالحياة. ولكن ما عدا ذلك، مثل الخرق البالية العالقة على هياكل أجسادنا النحيلة، فإنه كان يحمل بعض الأهمية فقط إذا كنا قد أدرجنا ضمن قائمة نقل المرضى. فهذه الأجسام الهزيلة الراحلة كانت تخضع لفحص متبجح لكي يروا ما إذا كانت معاطفهم أو أحذيتهم أفضل ما لديهم. وبذلك تتم سرقة مخصصاتهم. أما أولئك الذين يمكثون بالمعسكر، والذين لا يزالون يحتفظون بمقدرة على العمل، فكان عليهم أن يستفيدوا من كل وسيلة لتحسين فرصهم على البقاء. واختفت فيهم العاطفة بذلك. فالمسجونون رأوا أنفسهم معتمدين تماما على أمزجة الحراس، الذين يستهترون باللعب بأقدار هؤلاء الأشخاص – وهذا قد جعلهم أقل إنسانية مما تتيحه الظروف التي تكتنفهم.



قصة «الموت في طهران»

لقد وضعت لنفسي، في معسكر آوشويتز، قاعدة ثبتت جدواها، حتى أن معظم زملائي قد أخذوا بها فيما بعد: فبصفة عامة كنت أجيب بصدق على كل أنواع الأسئلة التي توجه إلي، في حين ألتزم بالصمت إزاء أي شيء لم يطلب مني خصيصا. فإذا سألوني عن عمري، أذكره لهم، وعن مهنتي، أقول «طبيب» ولكن لا أتطرق إلى أية تفاصيل، في صباح اليوم الأول بمعسكر آوشويتز جاء أحد الضباط إلى ساحة استعراض المسجونين، حيث كان علينا أن نتفرق إلى مجموعات تتضمن إحداها من هم أكثر من أربعين عاما، وإحداها من هم أقل من الأربعين عاما، وإحداها عمال الصلب، والميكانيكيين وغير ذلك من فرز المسجونين الى مجموعات مختلفة. وبعد ذلك خضعنا لفحص طبي، أعقبه تكوين مجموعة جديدة من بعض المسجونين. أما المجموعة التي أدرجت فيها، فقد سبقت إلى جناح آخر، حيث تجمعنا في طابور مرة أخرى. وبعد أن جري فرزي مرة أخرى بعد أن قمت بالرد على أسئلة متعلقة بسني ومهنتي، أرسلوني إلى مجموعة أخرى صغيرة. ثم قرروا إرسالي لجناح آخر وتصنيفي بشكل آخر، وقد استمر ذلك لبعض الوقت، حتى صرت غير سعيد إطلاقا، لأني قد وجدت نفسي وسط غرباء يتكلمون بلغات أجنبية غير مفهومة. ثم جاء الفرز الأخير، وأجد نفسي أعود مرة أخرى إلى الجماعة التي كنت معها في الجناح الأول. ولاحظ زملائي أنه قد جرى إرسالي من جناح الى آخر في الوقت نفسه. الا أني كنت واعيا بأنه في خلال تلك الدقائق القليلة أخذ مصيري أشكالا كثيرة مختلفة.

حينما نظموا عملية نقل المرضى إلى «معسكر الاستشفاء»، أدرجوا اسمي (أي رقمي) ضمن القائمة، لحاجتهم إلى بعض الأطباء. ولكن لم يكن أي شخص مقتنعا بأن وجهة السفر سوف تكون معسكر الاستشفاء حقيقة. فمنذ أسابيع قليلة ماضية، أعدوا نفس عملية النقل. وفكر كل شخص أن عملية النقل موجهة إلى أفران الحرق بالغاز. ولما أعلنوا أن أي فرد يتطوع للعمل في «الوردية» الليلية المفزعة سوف لا يدرج في قائمة النقل، قام اثنان وثمانون من المسجونين بالتطوع على الفور. ولم تمض ربع ساعة إلا وألغيت عملية النقل، بينها ظل الاثنان والثمانون سجينا مدرجين في قائمة «الوردية» الليلية. وكان يعني ذلك الموقف، بالنسبة لغالبيتهم، الموت خلال الأسبوعين التاليين.

والآن للمرة الثانية، قاموا بتنظيم عملية النقل إلى معسكر الاستشفاء. ولا يعرف أي فرد ثانية ما إذا كان في ذلك خدعة يحصلون بواسطتها على آخر ما تبقى من رمق للعمل عند السجين المريض – ولو الأربعة عشر يوما فقط – او ما إذا كانوا سيساقون إلى أفران الحرق بالغاز أو إلى معسكر حقيقي للاستشفاء. همس إلى كبير الأطباء، الذي كان يبدي ميلا نحوي، في الساعة العاشرة الا الربع من مساء أحد الأيام قائلا: «لقد تركت أمرا في مكتب الوحدة بأنه في استطاعتك أن تدرج اسمك ضمن القائمة، وتستطيع أن تقوم بذلك حتى الساعة العاشرة».

أخبرته أن هذا ليس أسلوبي في الحياة، فلقد تعلمت أن أدع الأقدار تأخذ مجراها وقلت له: «إني قد أمكث أيضا مع أصدقائي». فرماني بنظرة من عينيه تنم عن شفقة، كما لو كان على علم بما يجري... وصافحني في صمت، كما لو كان في ذلك وداع ليس من أجل الحياة، ولكن من الحياة. وببطء سرت عائدا إلى جناحي، حيث وجدت صديقا حميما في انتظاري.

سألني بحزن: «هل تنوي حقيقة الذهاب معهم».

«نعم، إني ذاهب».

فانهملت الدموع من عينيه، وحاولت أن أهدئ من روعه. ثم كان هناك شيء آخر عليّ أن أقوم به – وهو أن أكتب وصيتي: «اسمع، يا أوتو، إذا لم أعد الى زوجتي، وإذا كنت ستراها مرة ثانية، فأخبرها أولا أني كنت أحادثها في كل يوم، وفي

كل ساعة. تذكر ذلك، وأبلغها ثانيا، أني قد أحببتها أكثر من أي شخص آخر. وقل لها ثالثا، أن الفترة القصيرة لزواجنا قد تفوقت على أي شيء آخر، بالرغم من كل ما نكابده هنا».

أوتو، أين أنت الآن؟ هل أنت على قيد الحياة؟ ما الذي حدث لك منذ آخر ليلة قضيناها معا؟ هل عثرت على زوجتك مرة أخرى؟ وهل تتذكر كيف أني كنت أُحَفِّظُك وصيتي عن ظهر قلب – كلمة كلمة – رغم دموعك الطفلية التي كانت تنهمر من عينيك؟

في اليوم التالي رحلت مع المسجونين الجاري نقلهم. ولم يكن في هذه المرة خديعة. فلم نكن متوجهين إلى غرف الإعدام بالغاز، وانما كنا ذاهبين بالفعل إلى معسكر للاستشفاء. أما أولئك الذين كانوا يشفقون عليّ، فقد ظلوا بمعسكر اشتدت فيه المجاعة بشكل أكثر ضراوة مما في معسكرنا الجديد. وقد حاولوا إنقاذ أنفسهم، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى نهاية مصائرهم. قابلت صديقا من المعسكر القديم؛ بعد شهور من إطلاق سراحنا. وروى لي كيف أنه، كرجل شرطة بالمعسكر، قام بالبحث عن قطعة من لحم البشر تكون متبقية في كومة من الجثث، ولجأ إلى مصادرتها بعد أن وجدها مطهية في إناء. لقد ظهر أكل لحوم البشر واندلعت الوحشية في أبشع صورها في المعسكر، الذي تركته لتوي في الوقت المناسب.

الا يذكرنا ذلك بقصة «الموت في طهران»؟ تحكي هذه القصة كيف أن رجلا إيرانيا غنيا وجبارا كان يسير ذات مرة في حديقته مع أحد خدمه. صاح الخادم بأنه يواجه لتوه الموت، الذي كان يهدده. وتوسل إلى سيده آن يعطيه أسرع حصان عنده حتى يستطيع أن يسرع بالفرار إلى طهران، التي يمكن أن يصلها في نفس ذلك المساء. وافق السيد وامتطى الخادم صهو الحصان الذي أعطاه إياه، وأخذ يعدو به بسرعة. وعند عودته الى المنزل، كان السيد نفسه يواجه الموت، ويسأله: «لماذا ترهب خادمي وتهدده؟» فقال الموت للسيد: «إني لم أهدده، ولكني مندهش فقط من أني لا أزال أجده هنا حينها عزمت على لقائه هذه الليلة في طهران».

إن نزيل المعسكر كان يخاف من اتخاذ القرارات ومن أخذ أي نوع من المبادأة أيا كانت، وهذا هو نتيجة شعور قوي بأن القدر هو سيد الفرد، وبأن المرء عليه الا يحاول التأثير فيه بأي طريقة من الطرق، ولكن عليه بدلا من ذلك أن يدعه يأخذ مجراه. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك حالة من البلادة الهائلة، التي أسهمت في تكوين مشاعر السجين بقدر ليس بقليل. ومع ذلك، فقد نتخذ بعض القرارات السريعة، التي تعني الحياة او الموت. والسجين في كل ذلك يفضل أن يدع القدر يختار له مصيره. هذا الهرب من المسئولية كان أكثر وضوحا حينما كان على السجين أن يتخذ قرارا بأن يحاول الهروب أو ينصرف عنه. في تلك اللحظات التي عليه فيها أن يتخذ قرارا – ويستغرق ذلك دقائق معدودة – كان يعاني مما يشبه عذاب جهنم. فهل يحاول الفرار؟ هل يقوم بالمخاطرة؟

ولقد خبرت أنا أيضا هذا العذاب. فكلما اقتربت جبهة القتال، أجد الفرصة للهروب. أراد زميل لي – وهو الذي كان عليه أن يزور مواقع خارج المعسكر كجزء من مهامه الطبية – أن يهرب وان يأخذني معه. قمنا بادعاء حاجتنا إلى أخذ مشورة بشأن مريض تستلزم حالته استشارة من أحد الاخصائيين، واستطعنا بذلك أن نهرب. وخارج المعسكر، كان على أحد أعضاء حركة المقاومة الاجنبية ان يزورنا بملابس رسمية وبوثائق. ولكن ظهرت في اللحظة الأخيرة بعض الصعوبات الفنية، وكان علينا أن نعود أدراجنا إلى المعسكر مرة أخرى. ولقد استفدنا من هذه الفرصة لكي نزود أنفسنا بالمؤن – وهي عبارة عن قليل من البطاطس المتعفنة – ولكي نبحث عن حقيبة نشدها الى ظهورنا.

اقتحمنا جناحا فارغا من معسكر النساء، الذي كان خاليا، حينما جرى ترحيل النساء إلى معسكر آخر. كان الجناح في فوضى كبيرة، وكان واضحا أن نساء كثيرات قد استحوذن على المؤن ولذن بالفرار. وكانت هناك خرق بالية، وقش، وطعام

فاسد، وآنية فخارية محطمة. وكانت بعض الأنية ما تزال في حالة جيدة، ويمكن أن تكون ذات قيمة بالنسبة لنا؛ ولكننا قررنا الا نأخذها. وقد علمنا أن هذه الآنية في الفترة الأخيرة، عندما غدت الظروف باعثة على اليأس، قد استخدمت ليس فقط لأجل الطعام، وانما أيضا كأحواض للغسيل ولقضاء حاجة التبرز والتبول (ولقد كانت هناك أوامر صارمة تمنع اقتناء أي نوع من أنواع الآنية داخل الجناح. الا أن بعض الأشخاص قد اضطروا إلى كسر هذه القاعدة، وخاصة مرضى التيفوس، الذين بلغ بهم الضعف حدا لا يستطيعون معه الخروج من أماكنهم بالجناح حتى بمساعدة الآخرين). وبينما كنت أرقب المكان، اقتحم صديقي الجناح وعاد بعد فترة وجيزة يحمل حقيبة خبأها تحت معطفه. ولقد رأى حقيبة أخرى بالداخل كان عليّ أن آخذها. لذا غيرنا موقعنا، ودخلت إلى الجناح. وبينما كنت أبحث في المهملات، وعثرت على الحقيبة وفرشة للأسنان، إذا بي أرى فجأة، من كل الأشياء المتروكة، جثة امرأة.

عدت مسرعا إلى جناحي لأجمع كل ما أملكه: «إناء الطعام، قفازين مهلهلين «موروثين» عن مريض مات بالتيفوس، قصاصات قليلة من الورق غاصة بملاحظاتي التي كنت أسجلها بطريقة اختزالية (على هذه القصاصات – كما ذكرت من قبل – بدأت إعادة كتابة الخطوط الذي فقدته في معسكر آوشويتز). وقمت بجولة أخيرة سريعة لتفقد مرضاي، الذين: كانوا يرقدون محتشدين على الألواح الخشبية المتآكلة على كلا جانبي الأجنحة. وجئت إلى الشخص الوحيد من بلدي، والذي كان يوشك على الموت، والذي كنت أطمح في إنقاذ حياته رغم حالته. وقد حاولت أن أخفي قصدي من الهرب بنفسي، إلا أن زميلي بدا كما لو كان يخمن بأن شيئا خاطئا يعتمل في نفسي (وربما كنت أبدي عصبية قليلة). وسألني بصوت هدَّه التعب: «هل أنت، ايضا، تنوي على الرحيل؟» فأنكرت ذلك، ولكني وجدت من الصعب عليّ أن أتجنب تصويب نظرته الحزينة، وبعد تفقدي للمرضى عدت إليه. ومرة أخرى أستسلمني عيناه بنظرة بائسة ترحب بي، ولكني شعرت بها كما لو كانت توجه إليَّ اتهاما. هذا الشعور المؤلم، الذي استحوذ عليَّ عندما أخبرت صديقي بعزمي على الهرب معه، قد غدا أكثر وطأة. وفجأة قررت أن أحمل قدري بين يدي هذه المرة فقط. فانصرفت جريا خارج الجناح وأخبرت صديقي بأني قررت ألا أذهب معه. وحالما أخبرته بقراري الأخير ببقائي مع مرضاي، انزاح عني ما كان جاثما على صدري من شعور مؤلم. لم أكن أعلم بما ستجلبه الأيام التالية، ولكني اكتسبت سلاما داخليا لم أخْبُرْه من قبل. عدت إلى الجناح، وجلست إلى جانب قدمي ابن بلدي وحاولت أن أهدئ من روعه، ثم أخذت في التحادث مع الآخرين، محاولا تهدئتهم من هذيانهم.

توقع الحرية وحان يومنا الأخير بالمعسكر. فعندما اقتربت جبهة القتال، جري ترتيب عمليات النقل الجماعي لترحيل كل المسجونين تقريبا إلى معسكرات أخرى، أما المسئولين عن المعسكر ورجال الكابو والطباخون، فقد لاذوا بالفرار. في هذا اليوم صدر أمر بإخلاء المعسكر تماما قبل غروب الشمس. وحتى القلة من المسجونين المتبقين (المرضى وبعض الأطباء والممرضين) كان عليهم أن يرحلوا. وفي المساء، ستوقد النيران في المعسكر، ولكن الشاحنات التي ستجمع المرضى لم تصل في موعدها بعد الظهر. وبدلا من ذلك أغلقت أبواب المعسكر فجأة واخضعت الأسلاك الشائكة لمراقبة شديدة، حتى لا يسعى أي شخص إلى محاولة الفرار. وبدا أن المسجونين المتبقين قد حان مصيرهم ليحترقوا مع المعسكر. وللمرة الثانية قررت أنا وصديقي أن نلجأ إلى الهرب.

وصدر الينا أمر بدفن ثلاثة أشخاص خارج سور الأسلاك الشائكة. ولقد كنت أنا وصديقي الشخصين الوحيدين بالمعسكر اللذين لديهما قوة تكفي للقيام بهذه المهمة. أما المسجونون الأخرون الذين يرقدون في الأجنحة القليلة الباقية ما لا يزال يستخدم، فقد كانوا كلهم تقريبا طريحي الأرض من الحمى والهذيان. والآن أعددنا خططنا: فمع الجثة الأولى سنقوم بتخبئة حقيبة صديقي، داخل كيس قديم للغسيل استخدمناه ككفن؛ ومع الجثة الثانية نخبئ حقيبتي أيضاء بينما نلوذ بالهرب في عملية دفن الجثة الثالثة. وقد استطعنا تنفيذ العمليتين الأوليتين وفقا للخطة. وبعد أن عدنا من عملية دفن الجثة الثانية، انتظرت صديقي الذي كان يحاول العثور على قطعة من الخبز حتى يمكن أن نجد شيئا نأكله أثناء الأيام القليلة التالية التي

سنقضيها في الغابات... انتظرت... مضت دقائق... أخذ صبري ينفذ أكثر وأكثر لعدم عودته. فبعد ثلاث سنوات من السجن، كنت اتصور الحرية بفرح، متخيلا روعة الوصول إلى جبهة القتال، ولكننا لم تمض بعيدا.

ففي نفس اللحظة التي عاد فيها زميلي، انفتحت بوابة المعسكر على مصراعيها. واندفعت سيارة ملونة فخمة من الألومنيوم، مطبوع عليها صلبان حمراء كبيرة، الى ارض استعراض المسجونين. فقد وصل مندوب الهيئة الدولية للصليب الاحمر بجنيف ووضع المعسكر ونزلائه تحت رعايتها. وعين هذا المندوب لنفسه بيتا يقيم فيه في منطقة مجاورة، ليكون على مقربة من المعسكر في كل الأوقات في حالة الطوارئ. ومن يقلق الان بشأن الهرب؟ فها هم يقومون بتفريغ صناديق الأدوية من السيارة، وبتوزيع السجائر علينا، وبتصويرنا. وسادت الفرحة. ولم تعد هناك حاجة الان الى المخاطرة بالجري نحو جبهة القتال.

في غمرة انفعالنا نسينا الجثة الثالثة، لذا قمنا بحملها خارجا ووضعناها في القبر الضيق الذي حفرناه للجثث الثلاث. ولقد صار الحارس الذي يصحبنا – وقد كان شخصا مسالما – رقيقا تماما معنا بشكل مفاجئ. فلقد رأى كيف تدور الدوائر وتتغير الأحوال، وحاول أن يكسب ودنا. واشترك معنا في الصلوات القصيرة التي أقمناها على الموتى قبل أن نواريهم التراب. ولقد جاءت كلمات الصلاة التي رجونا بها سلاما، بعد التوتر والاستثارة التي عشناها في الأيام والساعات الماضية في سباقنا مع الموت، أشد حرارة من أي صلاة تلفظ بها صوت اي انسان في أي وقت مضى.

بين الأمل واليأس

هكذا انقضى اليوم الأخير في المعسكر في توقع الحرية. ولكن بهجتنا جاءت مبكرة للغاية. فقد أكد لنا مندوب الصليب الأحمر أن ثمة اتفاقية قد أبرمت، وأنه لا ينبغي إخلاء المعسكر. ولكن في تلك الليلة وصل رجال ال «س س» ومعهم شاحنات، وكانوا يحملون معهم امراً بإخلاء المعسكر، اما المسجونون المتبقون فسيجرى ترحيلهم إلى معسكر رئيسي، ومنه يرسلون إلى سويسرا خلال ثمان وأربعين ساعة – لكي يتم هم استبدال أسرى الحرب. لقد استطعنا بصعوبة أن نتعرف على رجال ال «س س»، فقد كانوا يبدون صداقة كبيرة، ويحاولون إقناعنا بدخول الشاحنات بدون خوف، ويقولون لنا أننا ينبغي أن نكون شكورين على حسن حظنا. وقد تزاحم المسجونون الأقوياء داخل الشاحنات، بينما صعد اليها بصعوبة المرضى والضعاف منهم. ووقفت أنا وصديقي – وفي ذلك الوقت لم نخبئ حقائبنا – في المجموعة الأخيرة، التي سيختار منها ثلاث عشر سجينا يركبون الشاحنة الأخيرة. وقام كبير الأطباء بحساب العدد المطلوب، ولكنه أغفلني أنا وصديقي. وتم تحميل الثلاثة عشر سجينا داخل الشاحنة، وكان علينا أن نمكث لشاحنة أخرى. وقد تملكتني الدهشة والغضب وخيبة الأمل، وعاتبت كبير الاطباء الذي اعتذر بقوله إنه كان مجهدا ومشتت الفكر. وقال إنه يعتقد أننا لا زلنا ننوي الهرب. وجلسنا والصبر قد نفذ منا، واضعين حقائبنا خلف ظهرينا، وانتظرنا مع القلة الباقية من المسجونين وصول شاحنة أخيرة. كان علينا الانتظار لفترة طويلة. وأخيرا اضطجعنا على فراش حجرة الحارس المهجورة، ونحن متعبين من الإثارة التي عشناها في الساعات والايام القليلة الأخيرة، والتي فيها كنا نتأرجح باستمرار بين الأمل واليأس. وغلبنا النعاس ونحن بملابسنا وأحذيتنا، استعدادا للرحيل.

واستيقظنا على أصوات البنادق والمدافع؛ واقتحمت نيران الرصاص وقذائف المدافع جناحنا، واندفع كبير الأطباء بعنف إلى داخل الجناح وأمرنا بأن ننبطح أرضا. في تلك اللحظة قفز أحد المسجونين من الفراش على بطني بحذائه. وقد أيقظني ذلك، وحسنا قد فعل! ثم أخذنا نتطلع إلى ما يحدث: إن جبهة القتال قد وصلت الينا! واخذ القصف يتضاءل، ولاح الفجر. وفي الخارج على السارية الموجودة عند بوابة المعسكر، كان علم أبيض يرفرف في الهواء.

بعد عدة أسابيع اكتشفت أنه حتى في تلك الساعات الأخيرة كان القدر يلعب معنا نحن القلة الباقية من المسجونين. واكتشفنا عندئذ كيف تكون القرارات الانسانية غير أكيدة، خاصة في أمور الحياة والموت. فلقد وُجهت بصور جري أخذها في معسكر صغير لا يبعد كثيرا عنا، ووجدت آن زملائي الذين اعتقدوا أنهم راحلون إلى الحرية قد أخذوهم في تلك الليلة في الشاحنات إلى هذا المعسكر، حيث قاموا بإغلاق الأبواب والمنافذ الموجودة في الأجنحة التي وضعوهم فيها، وأحرقوهم حتى الموت. وكان يمكن التعرف من الصور على جثثهم شبه المتفحمة. مرة أخرى اخذت أفكر في قصة «الموت في طهران».



صورة عامة عن الحياة النفسية للسجين

لقد كانت حالة البلادة عند المسجونين، بصرف النظر عن دورها كميكانزيم دفاعي، نتاج عوامل أخرى ايضا، ومنها الجوع ونقص النوم (كما يؤثران في الحياة العادية كذلك) وهما اللذان أسهمها في خلق هذه الحالة وفي حالة التهيج العام التي كانت خاصية أخرى للحالة العقلية للمسجونين. يرجع نقص النوم جزئيا إلى إزعاج الحشرات التي تمكنت من الأجنحة المزدحمة بشكل مزعج بسبب نقص الشروط الصحية. كذلك أسهم عدم تزويدنا بالنيكوتين والكافين في خلق حالة البلادة والتهيج العام.

بالإضافة إلى هذه الأسباب المادية، كانت هناك أسباب عقلية، في شكل عقد معينة. فكان أغلب المسجونين يعانون من نوع من عقدة النقص. لقد صرنا أو توهمنا أنفسنا على أنها مجرد «شخص ما». وكانت تجري معاملتنا كأشياء لا وجود لها إطلاقاً، أي ككيانات في العدم. (اما الوعي بالقيمة الداخلية للفرد فقد صار يعلو في أشياء أسمى وأكثر روحية، ولا يمكن أن تهزها حياة المعسكر. ولكن كم من الأشخاص الأحرار، ولندع المسجونين جانبا، يمتلك ذلك الوعي؟) لقد كان السجين العادي يشعر بنفسه، وبدون تفكير واع، على أنه شخص منحط لا قيمة له كلية. يتضح ذلك حينما نلاحظ التناقضات الموجودة في البناء الاجتماعي الفريد للمعسكر. فهذا الإحساس لم يكن يشعر به على الاطلاق المسجونون المرضى عنهم ورجال الكابو والطباخون وأمناء المخازن وشرطة المعسكر، وإنما على العكس كانوا يشعرون برفعة منزلتهم. بل وقد نمت فيهم بعض أوهام العظمة. وجرى التعبير عن ردود الأفعال العقلية للأكثرية الحاقدة المتذمرة نحو هذه الأقلية المفضلة بطرق عديدة، أخذت شكل إطلاق النكات في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال، سمعت سجينا يتحدث مع آخر عن أحد رجال الكابو، قائلا: «تخيل! لقد عرفت ذلك الرجل حينما كان فقط الرئيس لبنك كبير. اليس من حسن الحظ أنه قد ارتفع عاليا جداً في العالم؟».

حينما كانت الأكثرية المنبوذة تدخل في صراع مع الأقلية المفضلة (وكان هناك الكثير من هذه المواقف، بدءاً من توزيع الطعام)، تكون النتيجة تفجراً لهذه الحالة. ومن ثم، تصبح حالة التهيج العام (والتي ناقشنا أسبابها المادية من قبل) أكثر حدة حينما تضاف اليها هذه التوترات العقلية. فليس هناك ما يدعو للدهشة إن كان هذا التوتر ينتهي غالبا إلى صدام عام بينهما، ولما كان السجين يشهد باستمرار مناظر الضرب والاقتتال، فان نزعة الاندفاع نحو العنف كانت في تزايد مستمر. وأنا نفسي كنت أشعر بقبضتي بدي تطبقان حينما يتملكني الغضب في حالة الجوع والتعب. ولقد كنت في العادة متعبا للغاية، لأنه كان علينا أن نوقد مدفأتنا طيلة الليل – وهي المدفأة التي كان مسموحا لنا أن نحتفظ بها في جناحنا لأجل مرضي التيفوس– ومع ذلك، فقد كانت بعض الساعات الأكثر شاعرية تلك التي كنت أقضيها في وسط الليل حينما كان كل المسجونين الآخرين في حالة هذيان من الحمى او يغطون في النوم. كنت أرقد متمدداً أمام المدفأة، وأشوي بعض البطاطس القليلة المسروقة على النار التي نوقدها بفحم نباتي مسروق. الا أني في اليوم التالي كنت اشعر دائما بأني أكثر تعبا

وتبلدا وتهيجا.



الحاجات والأحلام والواقع

بينما كنت أعمل كطبيب في جناح مرضي التيفوس، كان عليّ أيضا أن آخذ مكان رئيس هذا الجناح، والذي كان مريضا. لذا كنت مسئولا أمام سلطات المعسكر عن نظافة الجناح إذا جاز لنا استخدام مصطلح «نظافة» لوصف تلك الحالة. لقد كان الغرض من ادعاء التفتيش الذي يخضع له الجناح بصفة متكررة هو التعذيب وليس الصحة. في كان يعني المفتشون فحسب هو ما إذا كانت هناك كومة من القش متروكة في الممر الرئيسي، وما إذا كانت بطانيات المرضى القذرة والمهلهلة والملبدة بالحشرات قد قاموا بطيها بدقة عند أقدامهم. أما أقدار النزلاء ومصائرهم فلم تكن تعنيهم بالمرة. وقد كنت إذا أعلنت عن حضوري برقة، خالعا قبعة السجن من على رأسي ومحدثا صوتا بكعب حذائي وأقول: «جناح رقم 9/6: ٥٢ مريض، وشخصان مسئولان عن التمريض، وطبيب واحد»، فإن ذلك يرضيهم. ثم يتركون الجناح خارجا. ولكن حتى أن يعودوا وقد كانوا يتأخرون لساعات، بل وأحيانا لا يعودون على الاطلاق – أجد نفسي مضطرا أن أقوم بفرد البطاطين، وبالتقاط القش المتساقط من الفراش، وألعن تلك الشياطين التعسة التي تتبول في فراشها وتهدد بالإخلال بكل جهودي في حفظ النظام والنظافة. وقد كانت البلادة تزداد بصفة خاصة بين المرضى المحمومين، لذا لم يكن يصدر منهم أي رد فعل الا إذا صاحوا فيهم. وحتى هذا كان يخفق في بعض الأوقات، الأمر الذي كان يتطلب ضبطا هائلا للنفس بألا يصطدم أحد بهم. فقد كانوا يبدون تهيجا شديدا في مواجهة بلادة الشخص الأخر وخاصة في مواجهة الخطر (اي التفتيش المرتقب) الذي كان يتسبب نتيجة لهذا الموقف.

الحرية والاختيار

ان في محاولتي لتقديم هذه الصورة النفسية. عن الخصائص المميزة لنزيل معسكر الاعتقال وتفسيرها من منظور علم النفس المرضي، ربما أعطى الانطباع بأن الكائن الحي الانساني يتأثر تماما وحتما بالمحيطين به، (في هذه الحالة يتمثل التركيب الفريد لحياة المعسكر في كل ما يحيد بالنزيل، الأمر الذي يجبر السجين على أن يجعل سلوكه يساير نمطا معينا من الأفعال). ولكن ماذا عن الحرية الانسانية؟ ألا توجد حرية روحية فيما يتعلق بالسلوك ورد الفعل إزاء الأشخاص المحيطين بالفرد؟ هل صحيحة تلك النظرية التي تجعلنا نعتقد أن الإنسان لا يعدو أن يكون نتاج عوامل بيئية وظروف كثيرة – وهي ذات طبيعة بيولوجية ونفسية واجتماعية؟ وهل الانسان النتاج العرضي لهذه العوامل ولا شيء غير هذا؟ والأكثر اهمية، هل ردود أفعال المسجونين إزاء العالم الفريد لمعسكر الاعتقال تثبت أن الإنسان لا يستطيع التخلص من تأثيرات المحيطين به؟ أليس لدى الإنسان أي اختيار لأفعاله في مواجهة تلك الظروف؟

تستطيع الإجابة على هذه الأسئلة من وحي الخبرة وكذلك من حيث المبدأ. تبين خبرات حياة المعسكر أن الإنسان يستطيع أن يكون له اختياره لأفعاله. وهناك أمثلة كافية، وحتى ذات طبيعة بطولية، تثبت أن البلادة يمكن التغلب عليها، وأن التهيج يمكن قمعه. فالإنسان «في مقدوره» آن يحتفظ ببقية من الحرية الروحية، ومن استقلال العقل، حتى في تلك الظروف المريعة من الضغط النفسي والمادي.

اننا نحن الذين عشنا في معسكرات اعتقال نستطيع أن نتذكر أولئك الأشخاص الذين يمرون على الأجنحة لكي يهدئوا من روع الآخرين، ويضحون بإعلائهم آخر كسرة من خبز تتبقى معهم. ربما كان هؤلاء الأشخاص قلة من حيث العدد، ولكنهم يقدمون دليلا كافيا على أن كل شيء يمكن أن يؤخذ من الإنسان عدا شيئا واحدا: وهذا الشيء الواحد هو آخر شيء من الحريات الإنسانية – وهو أن يختار المرء اتجاهه في ظروف معينة، أي أن يختار المرء طريقه.

كانت هناك على الدوام اختيارات مما يأتي به الشخص. ففي كل يوم، وفي كل ساعة تتأتى الفرصة لاتخاذ قرار – وهو القرار الذي يحدد ما إذا كنت تنوي أن تخضع أو لا تخضع لتلك القوى التي تهدد بأن تسلبك من ذات نفسك... من حريتك الداخلية؛ وهو القرار الذي يحدد ما إذا كنت تنوي أن تصبح أو لا تصبح لعبة في يد الظروف، متخليا عن الحرية والكرامة لتصبح متشكلا في القالب المميز للنزيل بالمعسكر.

وإذا نظرنا إلى ذلك من وجهة النظر هذه، فإن ردود الأفعال العقلية لدى نزلاء معسكر الاعتقال ينبغي أن تبدو لنا أكثر من مجرد تعبير عن ظروف مادية واجتماعية معينة. وحتى بالرغم من أن ظروفا مثل نقص النوم وعدم كفاية الطعام والضغوط العقلية المختلفة قد تفترض أن النزلاء مجبرون على الاستجابة بطرق معينة، فإنه يصير واضحا في نهاية التحليل آن نمط الشخص الذي يصير عليه السجين انما هو نتيجة لقرار داخلي، وليس نتيجة لمؤثرات المعسكر وحدها. ومن ثم، فإن أي إنسان يستطيع، حتى في الظروف، أن يقرر ماذا يريد أن يكون عقليا وروحيا. وأن يقرر أنه سوف يحتفظ بكرامته الانسانية حتى في معسكر اعتقال.

العظمة الداخلية لقد قال دوستويفسكي ذات مرة: «يوجد شيء واحد فقط يروعني وهو: «ألا أكون جديرا بآلامي». هذه كلمات راودت عقلي مرارا وألحت عليه بعد أن أصبحت مدركا لأولئك الشهداء الذين يحمل سلوكهم في المعسكر، ويفصح عذابهم وموتهم فيه، عن الحقيقة بأن الحرية الداخلية الأخيرة لا يمكن فقده. ويمكن القول كذلك أنهم كانوا جديرين بآلامهم؛ فالطريقة التي تحملوا بها آلامهم تمثل انجازا داخليا أصيلا. تلك هي الحرية الروحية – وهي التي لا يمكن سلبها من الانسان – وهي التي تجعل الحياة ذات معنى وذات هدف.

ان الحياة المتسمة بالنشاط تفيد في إعطاء الانسان فرصة لتحقيق القيم في عمل إبداعي، بينما تقدم الحياة السلبية القائمة على الاستمتاع فرصة أمام الفرد لكي يخبر الجمال أو الفن او الطبيعة. ولكن هناك كذلك غرضا من تلك الحياة الجرداء التي تنقصها في الغالب ألوان الإبداع والاستمتاع مما يسمح بقبول احتمال واحد فحسب من السلوك الأخلاقي الراقي: الا وهو، اتجاه الانسان نحو وجوده؛ ذلك الوجود المقيد بقوى خارجية. فالحياة الإبداعية وحياة الاستمتاع كلاهما محرمتان عليه. ولكن ليس معنى هذا أن الإبداع والاستمتاع هما ألوان الحياة الغنية بالمعنى دون غيرهما. فإذا كان هناك معنى في الحياة بصفة عامة، فإنه بالتالي ينبغي أن يكون هناك معنى للآلام والمعاناة، فالآلام والمعاناة جزء من الحياة ويتعذر الخلاص منهما، شأنهما في ذلك بل في مقدمتها القدر والموت. وبدون المعاناة وبدون الموت لا تكتمل حياة الانسان.

إن الطريقة التي يتقبل بها الانسان قدره ويتقبل بها كل ما يحمله من معاناة، والطريقة التي يواجه بها محنه، كل هذا يهيئ له فرصة عظيمة – حتى في أحلك الظروف – لكي يضيف إلى حياته معنى أعمق. وقد تظل هذه الحياة حياة شجاعة، كريمة، لا تقوم على الأنانية. ويجوز أن ينسى الانسان في نضاله المرير من أجل المحافظة على الذات، يجوز أن ينسى كرامته الإنسانية، ويصبح أقرب في كيانه إلى الحيوان منه إلى الإنسان. وهنا يجد الإنسان أمامه فرصة إما أن يقتنصها أو يتركها تفلت من بين يديه. ويجوز في الموقف الصعب أن يفيد في تحقيق القيم المعنوية ويجوز أن يضيعها. وبذلك يقرر الشخص ما إذا كان جديرا بآلامه أو غير جدير بها.

ولا تتصور أن هذه الاعتبارات امور خيالية لا وجود لها على الأرض، أو أنها بعيدة عن الحياة الواقعية. فالحقيقة بأن هناك قلة من الناس قادرة على التوصل إلى تلك المعايير المعنوية العالية. فكان من بين المسجونين قلة استطاعت أن تحتفظ بحريتها الداخلية الكاملة وأن تتوصل إلى تلك القيم التي أتاحتها آلامها؛ وفي ذلك الدليل الكافي على أن القوة الداخلية للإنسان قد تعلو به فوق قدره في هذا العالم الخارجي. ولا يوجد أمثال هؤلاء الأشخاص في معسكرات الاعتقال فحسب. فحيث يواجه الإنسان أمرا مقدرا لا بد من وقوعه تكون هناك فرصة تحقيق شيء من خلال المعاناة.

ولنأخذ القدر الذي ينتظر الشخص المريض – وخاصة أولئك الذين يتعذر شفاؤهم. لقد قرأت ذات مرة خطابا كتبه شاب قعيد صغير السن، يخبر فيه صديقا له بأنه قد اكتشف لتوه أنه لن يعيش طويلا، حيث لن يجدي في علاجه حتى إجراء أي عملية جراحية. وكتب أنه يتذكر فيلما رآه، يجري فيه تصوير إنسان ينتظر الموت بطريقة تنم عن شجاعة وعزة. ويعتبر هذا الشاب الصغير أن ذلك يمثل إنجازا عظيما لمواجهة الموت بصدر رحب. ومما كتبه هذا الشاب كان المقدر يقدم له فرصة مماثلة.

ولعل من رأي منا الفيلم المعروف به «البعث» (Resurrection) – وهو الفيلم المأخوذ عن رواية وضعها تولستوي منذ عدة سنوات، تراوده أفكار مماثلة، حيث كانت توجد فيه مُقَدِّرات هائلة ورجال عظام. ولم يكن لنا نحن، في ذلك الوقت الذي رأينا فيه الفيلم، أي مقدر هائل؛ ولم تكن لدينا أية فرصة لتحقيق مثل تلك العظمة. فبعد أن رأينا ما رأيناه في الصور في الفيلم توجهنا إلى مقهى قريب، ومع تناولنا لقدح من القهوة ولشيء من الطعام نسينا الأفكار الغير الطبيعية الغريبة التي مرت بخاطرنا لدقيقة واحدة. الا انه حينما واجهنا نحن بأنفسنا مقدرا هائلا، وحينما قابلناه بقرار يصدر عنا بعظمة روحية، عندئذ كنا قد نسينا تلك الحلول التي توصلنا اليها منذ زمن بعيد أيام شبابنا، حيث شعرنا إزاءها بالإخفاق.

ربما كان قد جاء يوم بالنسبة لبعضنا، رأوا فيه نفس الفيلم مرة ثانية، أو رأوا فيلما مماثلا. ولكن ربما كانت هناك عندئذ صور أخرى مما تكشف في نفس الوقت أمام أعينهم الداخلية؛ فمن هذه صور أناس تحقق في حياتهم أكثر كثيرا مما يعرضه فيلم عاطفي. فقد ترد إلى عقل الواحد بعض تفصيلات والعظمة الداخلية» (Inner greatnass) لشخص معين – من هذه مثلا قصة الشابة التي شهدت بنفسي موتها في معسكر اعتقال. وهي في ذاتها قصة بسيطة. وهناك القليل مما يمكن أن نحكيه عن هذه القصة، ولكنها في نظري تستحق الذكر كما لو كنت أنا الذي ابتدعتها. فهذه القصة تبدو بالنسبة لي أشبه بقصيدة شعرية رائعة.

كانت هذه الشابة تعرف أنها سوف تموت في الأيام القليلة التالية ولكنها كانت مبتهجة حين تحدثت معها رغم معرفتها أنها ستموت عما قريب. قالت لي: «إني مغتبطة أن القدر قد لطمني بقسوة، ذلك أني في حياتي السابقة كنت مدللة، ولم آخذ واجباتي الروحية مأخذ الجد». وتقول، وهي تشير من خلال نافذة الجناح: «إن هذه الشجرة الموجودة هنا هي الصديق الوحيد الذي كان لي في وحدتي». فمن خلال تلك النافذة كانت الشابة تستطيع أن ترى فقط غصنا واحدا من شجرة كستناء، وكان على الغصن برعمان. قالت لي: «غالبا ما كنت أتحدث إلى هذه الشجرة». ولقد راعني كلامها ولم أكن أعرف كيف أتناول كلماتها... فهل كانت تهذي؟ وهل تراودها هلوسات من آن لآخر؟ وسألت الشابة بقلق عما إذا كانت الشجرة تجيب عن أسئلتها. فأجابت: «نعم». فسألتها: «ماذا كانت تقول؟ أجابت: «لقد قالت لي، أنا هنا – أنا هنا – أنا الحياة، أنا الحياة الابدية».

الخبرة بالزمان والمكان

لقد ذكرت أن ما كان مسئولا بشكل نهائي عن حالة الذات الداخلية عند المريض لم يكن ما ذكرناه وعددناه من اسباب بدنية نفسية بقدر ما كان نتاجا لقرار متحرر. فالملاحظات النفسية للمسجونين تبين أن الأشخاص الذين سمحوا لاستمساكهم الداخلي بذواتهم المعنوية وكياناتهم الخلقية (سمحوا له) بأن يسترخي ويستقر، هم أولئك الذين سقطوا في نهاية الأمر ضحية للعوامل والمؤثرات الباعثة على الانحلال والتفسخ في حياة المعسكر. والسؤال الذي يبرز الآن: «ما الذي يُكوّن هذا الاستمساك الداخلي»؟ (inner hold).

يتفق المسجونون السابقون، حينما يكتبون أو يروون خبراتهم، على أن أكثر المؤثرات الباعثة على الاكتئاب هي أن المسجون لم يكن يعرف طول الفترة التي سيقضيها بالسجن، اذ لم يكن يتزود بأي تاريخ لإبرائه. (وفي معسكرنا كان من الحماقة أن نتكلم في هذا الموضوع الذي لا وجود له). وفي الواقع أن فترة بقاء السجين في معسكرنا لم تكن غير مؤكدة فحسب ولكنها أيضا غير محددة. وفي ذلك يشير أحد علماء النفس في دراسة مشهورة إلى أننا يمكن أن نسمي الحياة في معسكر اعتقال كهذا على أنها «وجود مؤقت». ويمكن أن نضيف الى ذلك على انها «وجود مؤقت لنهاية غير معروفة».

لا يعرف الوافدون الجدد أي شيء في العادة عن الظروف السائدة بالمعسكر. أما أولئك الذين جاءوا عائدين من معسكرات أخرى، فإنهم كانوا يضطرون إلى التزام الصمت، في حين أن بعض المعسكرات لم يعد منها أحد على الإطلاق. عند دخول الأشخاص في المعسكر كان يحدث تغير في عقولهم. فمع نهاية اللايقين يأتي لا يقين النهاية. لقد صار من المستحيل التنبؤ بما إذا كان هذا الشكل من أشكال الوجود سوف ينتهي، ومتى سينتهي.

تحمل الكلمة اللاتينية «finis» معنيين: أحدهما النهاية أو الخاتمة، وثانيهما الغاية التي يصل المرء إليها. والشخص الذي لا يستطيع أن يرى نهاية «وجوده المؤقت» يكون غير قادر على أن يرنو إلى هدف غائي في الحياة. إنه توقف عن الاستمرار في الحياة من أجل المستقبل، وذلك على عكس الإنسان في حياته العادية. ومن ثم تتغير البنية الكلية لحياته الداخلية. تتضح علامات حالة التحلل هذه في مجالات أخرى من الحياة. ومن أمثلة ذلك، حالة العامل العاطل فهي تشبه ذلك الموقف. فوجوده يصبح مؤقتا، ولا يستطيع بشكل ما أن يعيش من أجل المستقبل، أو أن يرنو إلى هدف. وقد أوضحت بعض البحوث التي أجريت على عمال عاطلين كانوا يشتغلون بالتعدين، أنهم كانوا يعانون من نوع معين من اختلال الإحساس بالزمن – او ما يسمى ب «الزمن الداخلي» (inner time) – وذلك نتيجة لحالة البطالة عندهم. كذلك المسجونون، فقد كانوا يعانون من «خبرة الزمن» (time-experience) الغريبة هذه. ففي المعسكر، على سبيل المثال، تبدو الوحدة الزمنية الصغيرة (اليوم)، والمليئة بالرعب والإرهاب والتعب على أنها بلا نهاية. وربما تبدو وحدة زمنية أكبر، ولتكن أسبوعا، على أنها فترة قصيرة وتمر بسرعة بالغة. وقد كان زملائي يوافقونني حينما أقول ان اليوم في المعسكر يستغرق وقتا أطول من الأسبوع. وقد كان التناقض في خبرة الزمن تناقضا كبيرا مما يؤدي الى الارتباك! وفي هذا الصدد أتذكر كتاب «الجبل السحري» (The Magic Mountain)، لـ «توماس مان»، وهو الذي يتضمن بعض ما أشرنا اليه من معالم سيكولوجية. يدرس «مان» النمو الروحي لأشخاص في وضع نفسي مماثل – وهم أشخاص مصابون بمرض السل يقيمون في إحدى المصحات دون أن يعرفوا اي تاريخ لإبرائهم. فهم يخبرون وجودا مماثلا – مجردا من الرؤية المستقبلية وخلوا من أي هدف.

وقد ذكر لى أحد المسجونين فيما بعد، وكان قد مشى عند وصوله مع طابور طويل من النزلاء الجدد من المحطة الى المعسكر، أنه قد شعر حينذاك كما لو كان يسير في جنازته. لقد بدت حياته بدون مستقبل على الاطلاق. واعتبرها أنها قد انتهت وولت، واعتبر نفسه أنه قد مات بالفعل. وكان هذا «الشعور بالعدم» (feeling of lifelessness) يزداد بشدة نتيجة لأسباب أخرى: فمن حيث الزمان، كانت فترة السجن التي يشعر بها النزلاء تتصف بشكل حاد باللانهائية وانعدام

المحدودية؛ ومن حيث المكان، كانت الحدود الضيقة للسجين. فلقد أصبح أي شيء خارج الأسلاك الشائكة منعزلا ومتنائيا – بعيد المنال، وغير حقيقي بشكل ما. لقد بدا كل ما كان خارج المعسكر من أحداث وأناس ومن ألوان الحياة العادية بها كل هذا كما لو كان من عالم الأشباح. كان السجين يرى هذه الحياة الخارجية من منظور إنسان ميت - أي أنه كان يرقبها من عالم اخر.

الأفكار الراجعة إلى الزمن الماضي

ان الانسان الذي كان يدع نفسه تتهاوى لأنه لم يستطع أن يرى لنفسه أي هدف مستقبلي، كان يجد نفسه مغمورا بأفكار لأمور قديمة. لقد تكلمنا في موضع مختلف آخر عن الميل الذي يجعل السجين يرنو إلى الماضي، لكي يساعد على جعل الحاضر، بكل ما يتضمنه من رعب، أقل واقعية. لكن هناك خطورة في تجريد الحاضر من واقعيته وسلب هذه الواقعية. لقد صار من السهل أن نرقب الفرص لكي نجعل من حياة المعسكر شيئا إيجابيا، وهي فرص توجد بالفعل. فاعتبار «وجودنا الوقتي» على أنه وجود غير واقعي كان في حد ذاته عاملا هاما في جعل المسجونين يفقدون تمسكهم بالحياة؛ وبصيرة ما أصبح كل شيء تافها لا قيمة له. ونسي أولئك الأشخاص أن ذلك الموقف الخارجي البالغ الصعوبة هو في الغالب ما يمنح الانسان الفرصة لكي ينمو معنويا فيها وراء ذاته. فبدلا من أن يأخذوا صعوبات المعسكر كاختبار لقوتهم الداخلية، فانهم استخفوا بحياتهم واعتبروها شيئا لا جدوى منه وبذلك لم يأخذوها مأخذ الجد. لذا فقد فضلوا أن يغمضوا أعينهم، وأن يعيشوا في الماضي، ومن ثم صارت الحياة بالنسبة لهؤلاء الناس فارغة مجردة من معانيها.

الانتصار الداخلي

ومن الطبيعي أن قلة من الناس فحسب هم الذين يكون في مقدورهم أن يصلوا إلى مستويات معنوية عالية عظيمة. وقليلون هم الذين تتاح الفرصة أمامهم للوصول إلى العظمة الانسانية حتى من خلال إخفاقهم الدنيوي الواضح ومن خلال موتهم، وهو إنجاز لا يستطيعون التوصل اليه أبدا في الظروف العادية. أما بالنسبة للآخرين منا - وهم المعتدلون وذوو الحماس الفاتر – فانهم تنطبق عليهم كلمات بسمارك: «الحياة أشبه بالتواجد عند طبيب الأسنان. فانت تعتقد دائما أن الأسوأ هو الذي لا يزال في طريقه اليك، رغم أنه يكون قد انتهى بالفعل». وخلافا لهذا، نستطيع القول إن معظم الناس في معسكر الاعتقال تعتقد أن الفرص الحقيقية للحياة قد فاتت. الا أنه، في الحقيقة، كانت هناك فرصة وتحدي. فالمرء يستطيع أن يعمل من هذه الخبرات: نصرا، ويحول الحياة إلى انتصار داخلي، أو يستطيع أن يتجاهل التحدي ويركن ببساطة إلى البلادة والاجترار، كما فعل غالبية المسجونين.

التطلع الى المستقبل

إن أي محاولة لمحاربة التأثير النفسي المرضي لحياة المعسكر على السجين بواسطة طرق العلاج النفسي أو الصحة النفسية كانت تهدف إلى منحه قوة داخلية عن طريق تبصيره بهدف مستقبلي يستطيع به أن يتطلع إلى الأمام. ولقد حاول بعض المسجونين بغريزتهم أن يتوصل الواحد منهم بنفسه الى هدف خاص به. فالخاصية المميزة للإنسان انه يستطيع أن يحيا بواسطة «تطلعه إلى المستقبل» (sub specie aeternitatis). وفي هذا خلاصة من وجوده في أحلك الظروف، رقم انه يجد نفسه في بعض الأوقات مضطرا إلى التفكير في مشكلاته.

وهناك خبرة شخصية أتذكرها. حين كانت الدموع تنهمر من عيني من وطأة الألم (فقد كانت بقدمي قروح مفزعة نتيجة ارتدائي لحذاء ممزق)، وأخذت أعرج سيرا على الاقدام لبضعة كيلومترات مع طابور طويل من الرجال من المعسكر إلى موقع عملنا. وكانت الرياح القاسية الباردة تصفعني. أخذت إذا ذاك أفكر في المشكلات الصغيرة التي لا تنتهي لحياتنا التعيسة. ما الذي سنأكله هذه الليلة؟ هل أذا منحونا قطعة من السجق كحصة اضافية، أستطيع استبدالها بقطعة من الخبز؟ هل أستطيع الاتجار بأخر سيجارة تبقت معي كي استبدلها بشيء من الحساء؟ هل أستطيع الحصول على قطعة من السلك استخدمها كرباط للحذاء؟ هل أصل إلى موقع عملي في الوقت الملائم كي ألحق بالمجموعة التي أعمل معها عادة، أم سأوضع مع مجموعة أخرى تعمل تحت إمرة رئيس فظ؟ كيف أتقرب إلى حرس الكابو، الذين يستطيعون مساعدتي في الحصول على عمل بالمعسكر بدلا من القيام بهذا العمل اليومي الشاق الذي يستلزم منا سيرا على الأقدام لفترة طويلة؟

لقد سئمت تلك الحالة التي اضطرتني، في كل يوم وفي كل ساعة، الى التفكير فقط في تلك الأشياء التافهة، واشمأزيت مما كنت فيه، وعليه أجبرت أفكاري على التحول إلى موضوع آخر. فجأة رأيت نفسي واقفا في إحدى القاعات على منصة لإلقاء محاضرة عظيمة. وأمامي كان يجلس مستمعون على مقاعد مريحة، ويصغون إليّ بانتباه. وكان موضوع هذه المحاضرة عن سيكولوجية معسكر الاعتقال! ولقد صار كل ما كان يكدرني ويقمعني في تلك اللحظة موضوعيا ومرئيا وموصوفا من وجهة النظر العلمية البعيدة. بهذه الطريقة نجحت إلى حد ما في أن أعلو فوق الموقف، وأن أسمو فوق المعاناة والآلام التي كانت تعتمل في نفسي في تلك اللحظة، فرأيتها كما لو كانت في الماضي بالفعل. لقد أصبحت أنا ومتاعبي موضوعا لدراسة نفسية علمية شيقة أضطلع بها بنفسي. وما الذي يقوله «سبينوزا» في كتابه «الاخلاق»: «ان الانفعال، وهو في جوهره معاناة، يتوقف عن أن يكون انفعالا ومعاناة حالما نكَوِّن صورة واضحة ودقيقة عنه»[2] .

وماذا يحدث عند فقدان الثقة في المستقبل

أن السجين الذي فقد ثقته في مستقبله وفي المستقبل عامة، يكون قد حكم على نفسه بالفناء. وهو، مع فقدانه للثقة في المستقبل، يفقد تماسكه المعنوي، ويكون بذلك قد ترك نفسه للتدهور، وأصبح عرضة للانهيار العقلي والجسمي. وعادة ما كان يحدث ذلك فجأة، في شكل ازمة، أعراضها مألوفة لنزلاء المعسكر اصحاب الخبرة. كنا جميعا نخشى مجيء تلك اللحظة – ليس من اجل ذواتنا إذ لا يكون لهذا أي مغزى أو معنى، ولكن من اجل أصدقائنا. كانت تبدأ هذه الأزمة عادة مع السجين برفضه في صباح أحد الأيام أن يرتدي ملابسه أو يغتسل أو يخرج إلى أرض استعراض طوابير المسجونين. ولم يكن للتوسلات، ولا للصفات، ولا للتهديدات أي تأثير. هناك يستلقي على الأرض، دون أي حراك. وإذا كانت هذه الأزمة ترجع إلى مرض ما، فانه يرفض أن يؤخذ إلى قسم المرضى ويعزف عن أن تقدم له أي معونة لمساعدته. فهو بكل بساطة يعلن رفضه ويأسه. ويبقى راقدا حيث هو وسط ما يفرزه جسمه من عرق وبول وغير ذلك، ويظل هكذا فلا يوجد ما يقلقه او يحيره.

وقد حدث في أحد المرات أن عشت مشهدا دراميا للحلقة التي تربط ربطا متينا بين فقدان الثقة في المستقبل وهذا الرفض الخطير. فقد أفضى اليَّ ذات يوم رئيس الجناح «ف»، وهو مؤلف وملحن ذائع الصيت، قال: «يا دكتور، أود أن أخبرك بشيء. لقد عشت حلما غريبا. فثمة صوت أخبرني بأني أستطيع ان اتمنى شيئا، وبأنه على الا اقول الا ما أود أن أعرفه، وبأن كل أسئلتي سوف تجاب. فماذا تعتقد إني طلبت؟ طلبت أن أعرف متى ستنتهي الحرب بالنسبة لي. أنت تعرف يا دكتور ماذا أعني بكلمة – بالنسبة لي! أردت أن أعرف متى سيتم الافراج عنا وعن معسكرنا، ومتى توضع نهاية لألأمنا ومعاناتنا».

سألت: «ومتى راودك هذا الحلم؟».

أجاب: «في فبراير عام 1945». وقد كنا وقتئذ في بداية شهر مارس.

«وبماذا أجاب الصوت في الحلم؟».

فهمس في أذني كما لو كان يفضي إليَّ بسر خطير: «الثلاثين من مارس».

حينما روي لي «ف» حلمه هذا، كان لا يزال مفعما بالأمل ومقتنعا بأن صوت حلمه حقيقي. ولكن كلما اقترب اليوم الموعود، حملت إلينا اخبار الحرب ما وصل الى المعسكر بما لا نريد؛ فبدا واضحا أنه من غير المحتمل اطلاقا أن يتم الافراج عنا في ذلك التاريخ المرتقب. وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس، صار «ف» مريضا على حين غفلة، وارتفعت حرارة جسمه. وفي الثلاثين من مارس، وهو اليوم الذي اخبرته النبوءة بأن فيه سوف تنتهي الحرب وتتوقف الآلام بالنسبة له، أصابته الحمى والم به الهذيان، وفقد الوعي. ثم مات في اليوم الحادي والثلاثين من مارس. وكانت الدلائل الظاهرة كلها تدل على أنه لقي حتفه من التيفوس.

العقل والجسم

إن من يعرف مدى الارتباط الوثيق بين حالة العقل عند الإنسان من توافر الأمل والشجاعة أو الافتقار اليهما – ويربط بين هذا وبين حالة الجسم ومناعته، فانه يفهم أن الفقدان المفاجئ للأمل والشجاعة قد يكون له تأثير مميت. فالسبب الرئيسي لموت صديقي هذا هو أن ما كان ما يتوقعه من إفراج أصبح بعيد المنال، وأن أمله قد خاب بشدة. وأن هذا قد أدى فجأة إلى تقليل مقاومة جسمه ضد العدوي الكامنة بمرض التيفوس. لقد صارت ثقته في المستقبل منعدمة وأصبحت إرادته على الحياة مشلولة، فوقع جسده ضحية للمرض – وبذلك كان صوت حلمه هو الصحيح برغم كل شيء.

تتفق هذه الملاحظات المتعلقة بهذه الحالة الواحدة والنتائج المستمدة منها مع بعض الملاحظات التي جذبت انتباهي عن طريق رئيس أطباء معسكر الاعتقال. ففي الفترة ما بين أعياد الميلاد عام 1944 وحلول عام ١٩٤٥ الجديد زاد معدل الموت في المعسكر في الأسبوع عن أي معدلات سابقة. وتفسير هذه الزيادة، من وجهة نظر رئيس الأطباء، لا يكمن في ظروف العمل الشاق أو في نقص الغذاء أو في تغير الجو أو في انتشار أوبئة جديدة، وانما يكمن ببساطة في أن أغلب المسجونين قد عاشوا في الأمل الساذج بأنهم سوف يعودون إلى بيوتهم مرة أخرى عند حلول أعياد الميلاد. وكلما أخذ الوقت يقترب دون أن تكون هناك أخبار مشجعة، كان هذا مدعاة إلى أن يفقد المسجونون شجاعتهم، وإلى أن تتملكهم بالتالي خيبة الأمل. وكان لهذا تأثير خطير على ما كان لديهم من قوة للمقاومة، مما أدى إلى موت عدد هائل منهم.

ويل لمن لا يرى في الحياة معنى ويؤيد هذا ما ذكرته من قبل، فإن أي محاولة يستخدمها الشخص لكي يسترد قوته الداخلية في المعسكر ينبغي أن تنجح أولا في أن تجعله يبصر لنفسه هدفا مستقبليا. وفي ذلك نأخذ توجيهاتنا من كلمات «نيتشه» حين يقول: «من يمتلك سببا يعيش من أجله فإنه يستطيع غالبا أن يتحمل بأية طريقة وبأي حال»، نأخذها بمثابة شعار يوجه الجهود المبذولة في سبيل العلاج النفسي ومحقق الصحة النفسية للمسجونين. فحيثما تتوافر فرصة لذلك، ينبغي أن نقدم لهم سببا يعيشون من أجله أو هدفا لحياتهم، لكي نقويهم على تحمل ال «كيف» الرهيبة لوجودهم. فالويل لمن لا يرى في حياته معنى، ولا يستشعر هدفا أو غرضا لها، ومن ثم لا يجد قيمة في مواصلة هذه الحياة. وسرعان ما يحس بالضياع. تتضح الإجابة التقليدية التي بها يرفض ذلك الانسان كل سند يشجعه في العبارة التالية: «ليس عندي شيء أتوقعه. من الحياة أكثر من

ذلك». ما هو إذن نوع الإجابة التي نستطيع أن نعطيها لذلك الانسان؟

المسئولية ومعنى الحياة

فما كان يعوزنا حقيقة هو تغير أساسي في اتجاهنا نحو الحياة. اذ كان علينا أن نعلم أنفسنا، كما كان علينا أن نعلم الأشخاص الذين استبد بهم اليأس، بأن ما هو متوقع من الحياة ليس في واقع الأمر هو موضع الأهمية، بل ان ما يعنينا هو ما الذي تتوقعه الحياة منا. كان علينا أن نتوقف عن السؤال عن معنى الحياة، وأن نفكر بدلا من ذلك في أنفسنا كما لو أنها في موضع تساؤل من قبل الحياة – في كل يوم وفي كل ساعة. وإن إجابتنا ينبغي أن تقوم، لا على الكلام او التأمل، ولكن على العمل الحق والمسلك الحق. فالحياة تعني في النهاية الاضطلاع بالمسئولية لكي يجد الانسان الإجابة الصحيحة لمشكلاته ويحقق المهام التي تفرضها على كل شخص بصفة مستمرة.

أما هذه المهام، أو بعبارة أخرى معنى الحياة، فإنها تختلف من شخص لأخر، ومن لحظة لأخرى. لذا، كان من المستحيل تحديد معنى الحياة بطريقة عامة. فلا يمكن أبدا أن نجيب على الاسئلة المتعلقة بمعنى الحياة بواسطة تقديم عبارات عامة جارفة. «فالحياة» لا تعني شيئا غامضا، ولكنها تعني شيئا حقيقيا ومحددا للغاية، مثلما تكون مهام الحياة أيضا حقيقية ومحددة للغاية. فهذه المهام تشكل مصير الشخص؛ فكل شخص كائن انساني مختلف ومتفرد متميز. ولا يمكن مقارنة انسان بإنسان آخر ولا مصير إنسان بمصير إنسان آخر، وليس هناك من موقف يعيد نفسه بالضبط كما كان، بل إن كل موقف يستدعي استجابة مختلفة. فنجد في بعض الأحيان أن الموقف الذي يجد الإنسان نفسه فيه قد يستلزم منه أن يسعى الى تشكيل قدره أو مصيره بأفعاله وأعماله، وفي أوقات أخرى قد يكون أكثر نفعا بالنسبة له أن يفيد من فرصة التأمل وأن يحقق وجوده وقوته بهذه الطريقة. وقد تستلزم الحياة ببساطة من الإنسان في بعض الأحيان أن يتقبل قدره ويصدع له ويتحمل متاعبه وأعباءه. إن كل موقف يتميز بتفرده، ومع ذلك توجد دائما إجابة صحيحة واحدة فقط للمشكلة التي يفرضها الموقف الراهن.

فحينما يجد الإنسان أن مصيره هو المعاناة، فإن عليه أن يتقبل آلامه ومعاناته كما لو أنها مهمة مفروضة عليه – وهي مهمة فريدة ومتميزة. وعليه ان يعترف بالحقيقة بأنه حتى في المعاناة فهو فريد ووحيد في الكون. ولا يستطيع أحد أن يخلصه من معاناته او يعاني بدلا منه. ففرصته الفريدة تكمن في الطريقة التي يتحمل بها أعباءه ومتاعبه.

وبالنسبة لنا نحن المسجونين، لا تشكل هذه الأفكار تأملات منعزلة عن الواقع. اذ كانت الأفكار الوحيدة التي أمكن أن تكون ذات عون لنا. فلقد حافظت علينا من اليأس، حتى حينما تراءى لنا وسط هذه الظروف أن لا توجد فرصة كي يخرج الإنسان حيا. لقد تركنا مرحلة السؤال عن معنى الحياة منذ فترة طويلة، ذلك لأنه بحث ساذج يفهم الحياة على أنها تحقيق هدف ما من خلال الخَلقْ الفعال لشيء ذي قيمة. أما معنى الحياة، بالنسبة لنا، فيتضمن الدوائر الأوسع من الحياة والموت، وينطوي على المعاناة وعلى فقدان الحياة.

وحالما يتكشف لنا معنى المعاناة، فإننا نرفض أن نقلل من ألوان العذاب بالمعسكر أو أن يتجرد منها عن طريق تجاهلها أو اللجوء الى الأوهام الكاذبة والتمسك بتفاؤل مصطنع كاذب. لقد أصبحت المعاناة مهمة من المهام التي لا نريد أن ندير لها ظهورنا والتي بوسعنا أن نحقق إنجازا من فرصها الكامنة. وهي تلك الفرص التي جعلت الشاعر «ريلكي» يقول: «أن هناك الكثير من الآلام ومن ألوان المعاناة مما يتحتم علينا اجتيازه واختراقه! يتكلم «ريلكي» عن اجتياز المعاناة واجتياز الآلام، كما يتكلم آخرون عن «اجتياز مهام العمل». فهناك الكثير من الآلام والمعاناة ما يتحتم علينا أن نجتازه. لذا، فمن الضروري أن نواجه كل المعاناة، محاولين الاحتفاظ بلحظات الضعف وبفترات الدموع المنهمرة إلى الحد الأدنى. ولكن لم تكن هناك من

حاجة إلى الشعور بالخجل من الدموع، لأن الدموع تحمل دليلا على أن الإنسان يحظى بأعظم شجاعة، وهي شجاعة المعاناة. الا أن قلة قليلة فحسب هي التي تحققت من ذلك. فمن آن لآخر كان يعترف بعضهم بخجل من بكائهم، مثل زميلي الذي اجاب على سؤالي عن كيفية تغلبه على مرضه باعترافه بأنه قد استفرغ بالبكاء معاناته من جوانيته وجنباته.

كانت البدايات الغضة للعلاج النفسي او الصحة النفسية، حينما كان ذلك ممكنا في المعسكر، إما فردية أو جماعية من حيث طبيعتها. وغالبا ما كانت المحاولات الفردية للعلاج النفسي نوعا من «إجراء إنقاذ الحياة».

فعادة ما كانت تهتم هذه الجهود باتقاء الانتحار. وتمنع قوانين المعسكر الصارمة أي جهود تبذل لإنقاذ إنسان حاول الانتحار. فقد كان من المحظور، على سبيل المثال، إنزال رجل من على جبل علق نفسه عليه محاولا الانتحار. ولذا، كان من الأهمية البالغة أن نمنع هذه المحاولات من الوقوع.

أتذكر حالتين شرعتا في الانتحار، تحملان أحداهما مع الأخرى تشابها شديداً. وقد أفصح كلا الرجلين عن عزمهما على الانتحار. وكان كلاهما يبدي نفس التبرير – بأنه لم يعد هناك شيء أكثر يمكن توقعه من الحياة وقد حاولنا مساعدتهما بأن نبصرهما بأن الحياة لا زالت تتوقع منهم بعض الاشياء؛ فهناك أشياء متوقعة منهم في المستقبل. وقد وجدنا، في الحقيقة، أن هذا الشيء المتوقع بالنسبة لأحدهما هو ابنه الذي يهيم به والذي ينتظره ببلد اجنبية. اما بالنسبة للآخر، فقد كان ذلك شيئاً ولم يكن شخصاً. فقد كان هذا الرجل عالما، ألف سلسلة من الكتب التي لا زالت بحاجة إلى الاتمام. ولا يستطيع أن يقوم بعمله هذا أي شخص آخر، كما أن شخصا آخر لا يستطيع أن يأخذ مكان الأب في عطفه على ابنه.

هذا التفرد، الذي يميز كل فرد عن غيره والذي يعطي الفرد معني لوجوده، ينطوي على عمل إبداعي، بقدر ما ينطوي على الحب الانساني. وحينما يتحقق الشخص من استحالة أن يحل أحد في مكانه، فإن هذا يسمح بظهور المسئولية بكل ضخامتها وأبعادها مما يحمله الشخص لأجل وجوده واستمراره وبكل ما يحمله من عظمة. ان الانسان الذي يصبح واعيا بالمسئولية التي يحملها إزاء انسان آخر ينتظره بشوق وحنان، أو ازاء عمل لم يكتمل، سوف لا يكون قادراً ابدا على التفريط في حياته. فهو يعرف «سبب» وجوده ويشعر بالغاية منه، ويكون قادراً على تحمله بأي شكل من الأشكال.

القدوة والكلمة وأثرهما العلاجي

ومن الطبيعي أن تكون فرص العلاج النفسي الجماعي في المعسكر محدودة. وكان المثل الحق أو القدوة الحقة أكثر فعالية من الكلمات التي يمكن أن تستخدم. لقد كان لرئيس الجناح الذي لم يتحيز إلى سلطات المعسكر، وكان بسبب سلوكه المشجع لنا، آلاف الفرص التي بها باشر تأثيرا معنويا بعيد المدى على اولئك المسجونين الذين كانوا تحت إمرته. وواضح أن التأثير المباشر للسلوك أكثر فعالية عادة من تأثير الكلمات. لكن كانت الكلمة في بعض الأحيان فعالة أيضا، حينها تقوى استقبالية العقل بواسطة بعض الظروف الخارجية. وفي ذلك أتذكر حادثة حينها كانت هناك فرصة لعمل علاجي نفسي لنزلاء جناح بأكمله، يعزي إلى تعاظم تفتحهم واستقبالية عقولهم بسبب موقف خارجي معين.

لقد كان يوما سيئا. ففي عرض الطابور، جرى الاعلان عن الأفعال الكثيرة التي ستعتبر، من الآن فصاعدا، كأعمال تخريبية تستحق العقاب بالموت الفوري شنقا، ومن بين هذه جرائم مثل قطع شرائح صغيرة من البطاطين البالية التي كنا نتدثر بها (وذلك لكي نلفها على رسغ القدم)، او السرقات التافهة للغاية. إذ حدث منذ عدة أيام أن تسلل أحد المسجونين الجوعى إلى مخزن البطاطس وسرق بعض الأرطال القليلة منها. وقد اكتشفت هذه الفعلة، وتعرف بعض المسجونين على «اللص».

وحينما علمت سلطات المعسكر بذلك، أمرت بأن يسلم الشخص المذنب اليها أو أن المعسكر كله سوف يحرم من الطعام لمدة يوم كامل. ومن الطبيعي أن يفضل ال ٢٥٠٠ رجلا الصمود والصيام.

وفي مساء ذلك اليوم الذي صمنا فيه رقدنا على ارض الجناح – في حالة مزاجية سيئة. وقد ندر كلامنا، وكانت كل كلمة تنم عن غيظ وتهيج. ثم، لكي تصير الأمور أسوأ مما هي عليه، انقطعت عنا الكهرباء. ووصلت حدة مزاجنا إلى أسوأ حالة. لكن رئيس جناحنا كان رجلا حكيما. فأفصح بكلام قليل عن كل ما يجري في عقولنا في تلك اللحظة. تحدث عن الزملاء الكثيرين الذين ماتوا في الأيام القليلة الماضية، أما بالمرض او بالانتحار. لكنه أشار أيضا إلى ما قد يكون السبب الحقيقي لموتهم: ألا وهو فقدان الأمل. وأكد على أنه ينبغي أن تكون هناك طريقة ما لمنع الضحايا ممن يحتمل وقوعهم في المستقبل من الوصول إلى هذه الحالة المتطرفة. وأشار إليَّ بأن أُقدم هذه النصيحة في مساعدتي للزملاء.

ويعلم الله، أني لم أكن في حالة تسمح لي بأن أقدم تفسيرات سيكولوجية أو بأن أعطي أية موعظة لكي أقدم لزملائي أي نوع من الرعاية الطبية لأرواحهم. فلقد كنت أشعر بالبرد والجوع، وبالتهيج والتعب، ولكن كان على أن أبذل الجهد وأن أستخدم هذه الفرصة الفريدة. فالآن يبدو التشجيع أكثر ضرورة منه في أي وقت آخر.

الأمل كمدخل علاجي

ومن ثم بدأت أولا بذكر أكثر الأشياء بساطة مما يبعث على الارتياح. قلت انه حتى في أوربا في الشتاء السادس للحرب العالمية الثانية، لم يكن موقفنا أسوأ ما كان يمكن أن يفكر الواحد فيه. وذكرت أن على كل فرد منا أن يسأل نفسه عن حقيقة الخسائر التي لا يمكن استبدالها أو إحلال غيرها محلها مما عانى منه حتى الآن. وبعد تأمل وتفكر قلت لهم أن هذه الخسائر بالنسبة لمعظمهم كانت في الحقيقة قليلة. فأولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة لدى كل واحد منهم سبب للأمل. فالصحة، والاسرة، والسعادة، والقدرات المهنية، والإثراء، والمكانة الاجتماعية – كل هذه أشياء يمكن أن يحققها الفرد مرة ثانية او يحييها ويجددها. ومع كل ذلك. فان جسدنا لا يزال سليما. بل إن كل ما تعرضنا له لا يزال مصدر قوة لنا في المستقبل. وفي ذلك أستشهد بقول نيتشه: «ان مالا يقتلني، يجعلني أقوى» (Was mich nicht umbringt, macht mich starker).

بعد ذلك تكلمت عن المستقبل. وقلت إن المستقبل بالنسبة للشخص السلبي المحايد لا بد أن يبدو بلا أمل. ووافقت على أن كل فرد منا ينبغي عليه أن يخمن لنفسه كم كانت فرصة في البقاء على قيد الحياة قليلة. وأخبرتهم أنه على الرغم من عدم وجود وباء التيفوس في المعسكر، الا أني قد أقدر فرصتي الخاصة في البقاء بحوالي فرصة واحدة في كل عشرين فرصة. لكني قلت أيضا أنه بالرغم من ذلك، فليست لدي أية نية لفقدان الأمل او التخلي عنه. وطالما أن الإنسان لا يعرف ما سيأتي به المستقبل، فإن معرفته ستكون أقل بما ستأتي به الساعة التالية. وحتى إذا كنا لا نتوقع أية احداث عسكرية ملموسة في الأيام القليلة التالية، فمن يعرف أفضل منا، وبخبرتنا بالمعسكرات، كيف تتفتح أمامنا في بعض الأحيان فرص عظيمة، وعلى نحو مفاجئ تماما، على الأقل بالنسبة للفرد. فعلى سبيل المثال، قد يُلحق السجين بشكل غير متوقع بجماعة خاصة تتمتع بظروف طيبة للعمل على غير العادة – وفي هذا يكون «الحظ الحسن» للسجين.

لكني لم أتكلم عن المستقبل فحسب وعن الستار الذي أسدل عليه. لقد أشرت أيضا إلى الماضي، وبكل مباهجه، وكيف أن نوره كان يسطع حتى في ظلام الحاضر. مرة أخرى، ولكني اتجنب أن أبدو كواعظ، استشهدت بقول الشاعر: «أن ما خبرته بنفسه، لا تستطيع قوة على ظهر الارض ان تأخذه منك»

(Was du erlebst, kann keine macht der welt dir rauhen). وليست خبراتنا فحسب، بل ان كل ما قمنا به من أعمال وكل ما مر في ذهننا من افكار عظيمة، وكل ما عشناه من الام ومعاناة – كل هذا لا يذهب أدراج الرياح، ورغم أنه وقع في الماضي، بل نستعيده ونبعث فيه الحياة. وفي هذا نوع من الوجود للفرد، وربما هو أكثر الأنواع رسوخا وقوة.

بعد ذلك تكلمت عن الفرص الكثيرة التي تعطي للحياة معنى. لقد أخبرت زملائي (الذين يرقدون بلا حراك، رغم ما قد يوجد من تنهدات تتردد على أسماعنا من آن لآخر) أن الحياة الانسانية، تحت أي الظروف، لا تتوقف أبدا عن أن يكون لها معنى، وان هذا «المعنى اللانهائي» (infinite meaning)، للحياة يتضمن المعاناة والموت، الحرمان والفناء. وطلبت من المخلوقات التعيسة التي كانت تصغي إليَّ بانتباه في ظلام الجناح أن تواجه الجدية في موقفنا. فهؤلاء الأشخاص ينبغي الا يفقدوا الأمل، وانما ينبغي أن يحتفظوا بشجاعتهم وفي يقينهم بأن اخفاقهم في كفاحهم وعدم تحقق الأمل فيه لا ينتقص من كرامة هذا الكفاح ومن معناه. وقلت إذا نظر الينا شخص ما – صديق، أو زوجة، أو شخص على قيد الحياة او في عداد الموتى، أو خالق أو مخلوق – فإنه يجب الا يتوقع منا أن نخيب أمله. فهو يأمل أن يجدنا يعاني باعتزاز وبكبرياء – لا بتعاسة – ونعرف كيف نواجه الموت بكرامة.

واخيرا تكلمت عن تضحياتنا، التي كانت تحمل معنى في كل حالة. هذه التضحيات قد تبدو من حيث طبيعتها على أنها بغير ذات معنى في الحياة العادية، في عالم النجاح المادي. ولكن في الواقع كانت تضحياتنا تنطوي على معنى. وقلت بصراحة، أن أولئك المسجونين المتدينين منا يستطيعون فهم ذلك بدون صعوبة. وذكرت لهم أن زميلا لنا عند عودته إلى المعسكر قد حاول أن يعقد ميثاقا مع السماء بأن معاناته وموته ينبغي أن يفديا الإنسان الذي أحبه من نهاية أليمة. فبالنسبة لذلك الرجل، كان للمعاناة والموت معني؛ وفي هذا تضحية تنطوي على أعمق المعاني. فهو لم يرد أن يموت من أجل لا شيء، ولا يريد أحد ذلك.

لقد كان الغرض من كلماتي هو ان نجد معني كاملا في حياتنا، عندئذ وحينئذ، أي في ذلك الجناح من المعسكر وفي ذلك الموقف الذي ينعدم فيه الأمل انعداما يكاد يكون تاما. ورأيت أن جهودي كانت ناجحة. فحينها أضاء المصباح ثانية، رأيت الأوجه التعيسة من أصدقائي تتقدم متعثرة نحوي لتعبر لي عن شكرها والدموع في عيونها. لكن ينبغي لي أن اعترف هنا أنني نادرا ما كنت أجد في نفسي القوة الداخلية لكي أتصل برفاقي في الآلام والمعاناة، كما أني أعترف أنني قد أضعت فرصا كثيرة لكي أفعل ذلك.

الطور الثالث من ردود الأفعال النفسية: سيكولوجية السجين بعد الإفراج عنه

نأتي الآن إلى المرحلة الثالثة من ردود الأفعال العقلية عند السجين، وهي: سيكولوجية السجين بعد الإفراج عنه. ولكن قبل ان نتطرق إلى هذا الموضوع، فإنه من الأهمية بمكان بالنسبة لعالم النفس، وخاصة لمن لديه معرفة شخصية بهذه الأمور، أن يتساءل: ما هو التكوين النفسي لحراس المعسكر؟ كيف يكون ممكنا لرجال من لحم ودم أن يعاملوا الآخرين بالطريقة التي ذكرها مسجونون كثيرون؟ وكيف تحدث هذه الأشياء سيكولوجيا؟ وللإجابة على هذه الأسئلة دون دخول في تفاصيل كثيرة، تجدر الإشارة إلى بعض الأشياء:

أولا: كان هناك بين الحراس بعض الحراس الساديين، ذوي النزعة اللاشعورية إلى تعذيب الأخرين – وهم ساديون بكل ما

يحمله ذلك التعبير من معني كلينيكي.

ثانيا: كان يجري دائما اختيار هؤلاء الحراس الساديين حينما تكون هناك حاجة إلى فئة قاسية من الحراس.

كنا نشعر بغبطة عظيمة في موقع العمل حينما كانوا يسمحون لنا بأن نقوم بتدفئة أنفسنا لبضعة دقائق قليلة (بعد ساعتين من العمل في الصقيع القارس) أمام موقد صغير يشعل بقطع من الخشب وأغصان الأشجار. لكن كان هناك دائما بعض المشرفين على العمل من الحراس الذين يجدون لذة عارمة في أن يحرموننا من هذه المتعة. وكم كانت وجوههم تعكس هذه المتعة بوضوح حين لا يكتفون بمنعنا من الوقوف بجوار الموقد، وإنما يضيفون إلى هذا أن يقلبوا الموقد ويفرغوا نيرانه الحانية في الثلج لإخماده! وإذا اتخذ أحد الحراس من سجين موقفا ينم عن كراهية، فان هناك دائما شخصا متخصصا معروفا بولعه الشديد بتعذيب الآخرين، يبعث اليه بهذا السجين السيء الحظ.

ثالثا: أن مشاعر غالبية الحراس قد تبلدت بسبب السنوات التي شهدوا فيها الطرق الارهابية بشكل متزايد بالمعسكر. وكان هؤلاء الأشخاص القساة معنويا وعقليا يرفضون على الأقل أن يتخذوا دورا نشطا في الإجراءات السادية. الا أنهم لم يمنعوا الآخرين من ممارسة هذه الإجراءات.

رابعا: ينبغي أن نقرر انه حتى بين الحراس، كان هناك بعضهم ممن ينظرون الينا بعين العطف والشفقة. وسوف أشير فقط إلى قائد المعسكر الذي أطلق منه سراحي. لقد وجدنا بعد الإفراج أن هذا الرجل قد دفع من جيبه نقودا، ليست بالمبلغ الصغير، لكي يشتري دواءًا لمسجونيه من أقرب سوق بالمدينة. أما مأمور المعسكر، وهو نفسه سجين، فقد كان أقسى من أي شخص من حراس المعسكر. فهو يضرب المسجونين الآخرين لأبسط شيء، بينما لم يرفع قائد المعسكر، على حد علمي، يده أبدا على أي سجين منا.

من الواضح أن مجرد المعرفة بأن الشخص، حارسا كان أم سجينا بالمعسكر، فإن هذا في الغالب لا يعني شيئا. فالشفقة الانسانية يمكن أن توجد في كل الجماعات، حتى في تلك الجماعات التي يمكن إدانتها ككل بسهولة. فالحدود بين الجماعات متداخلة، وبالتالي ينبغي الا نحاول تبسيط المسائل بالقول بأن هؤلاء الأشخاص ملائكة وأن الآخرين شياطين. ومما لا شك فيه، أنه لإنجاز عظيم بالنسبة لحارس أو رئيس حرس أن يكون شفوقا على المسجونين رغم كل تأثيرات المعسكر، بينما كانت، من ناحية أخري، خسة السجين الذي يعامل زملاءه بسوء تستحق كل ازدراء يتضح إذن أن المسجونين قد وجدوا نقص الخلق عند أولئك المسجونين خاصة غلاظ القلوب منهم، بينما قد تأثروا بعمق بالشفقة القليلة التي يتلقونها من أي حارس من الحراس. أتذكر كيف أن حارسا ذات يوم قد أعطاني سرا قطعة من الخبز التي كنت أعرف أنه قد ادخرها من حصته في طعام الإفطار. وكان الذي حرك دموعي في ذلك الوقت أبعد بكثير من مجرد قطعة الخبز الصغيرة. لقد كان ذلك هو «الشيء» الانساني الذي اعطاه هذا الشخص لي أيضا – تلك هي الكلمة والنظرة اللتان صاحبتا تلك الهدية.

من كل ذلك ربما نتعلم أنه يوجد جنسان فحسب من الناس في هذا العالم – «جنس» الانسان المهذب، و«جنس» الإنسان السافل. وكلاهما يوجد في كل مكان؛ إنهما يتغلغلان في كل الجماعات. وليس هناك من جماعة تتألف كلية من أشخاص مهذبين أو أشخاص سفلة. وبهذا المعنى، لا توجد جماعة ذات «جنس نقي» – ومن ثم كان يجد السجين منا من آن لآخر زميلا وديعا طيب القلب من بين حراس المعسكر.

إن الحياة في معسكر اعتقال لتمزق الحجاب عن النفس الإنسانية وتعريها إلى أعماقها. هل مما يبعث على الدهشة أن نجد في تلك الأعماق مرة ثانية الخواص الإنسانية التي هي بطبيعتها مزيج من الخير والشر؟ إن التصدع الناجم من فصل الخير عن

الشر، وهو تصدع يمر به كل البشر، يصل إلى أدنى الأعماق ويصبح واضحا حتى في أغوار جهنم التي يكشف معسكر الاعتقال عنها.

★

والآن نتناول في هذا الجزء الأخير من سيكولوجية معسكر الاعتقال: سيكولوجية السجين الذي جرى الإفراج عنه. عند وصف خبرات الافراج، وهي خبرات شخصية بطبيعتها، سوف نلتقط خيوط ذلك الجانب من حكايتنا في صباح ذلك اليوم الذي رفرف فيه العلم الأبيض فوق بوابة المعسكر، بعد أيام من التوتر الشديد. وهذه الحالة من الترقب الداخلي قد تبعها استرخاء كامل. لكن من الخطأ تماما الاعتقاد بأن جنون الفرحة قد تملكنا. فما الذي حدث إذن؟

فقدان القدرة على الاحساس بالسرور

بخطى متثاقلة أخذنا نجر اقدامنا إلى بوابة المعسكر. وصرنا نتلفت من حولنا بجبن ونحملق في بعضنا البعض، وكانت تسيطر الشكوك على أفكارنا. ثم غامرنا ببضع خطوات قليلة إلى خارج المعسكر. وفي هذه المرة لم تتصايح الأوامر الينا، كذلك لم تكن هناك حاجة إلى الجري بسرعة فرارا من لطمة أو ركلة. لا – يا للدهشة! ففي هذه المرة قام الحراس بتقديم السجائر الينا! وكان من الصعب علينا في البداية أن نتعرف عليهم؛ فبسرعة قد تغيروا وظهروا بمظهر الكياسة والرقة. مشينا ببطء عبر الطريق الممتد من المعسكر. وسرعان ما صارت أقدامنا تؤلمنا وتهددنا بالتوقف. ولكن اخذنا نعرج بها، فقد أردنا أن نرى ما يحيط بالمعسكر لأول مرة من خلال أعين أناس أحرار. «الحرية» – كلمة رددناها لأنفسنا، إلا أننا لم نتمكن من إدراكها. لقد كنا نردد هذه الكلمة مرارا خلال كل السنوات التي كنا نحلم فيها بالحرية، بحيث أنها قد فقدت معناها. فواقع الحرية لم ينفذ إلى وعينا، فلم نستطع آن ندرك الحقيقة بأن الحرية كانت من نصيبنا.

وصلنا إلى مروج خضراء غنية بالزهور. ومع أننا قد رأينا وتحققنا من وجود هذه الزهور، إلا أننا لم نحس بأية مشاعر نحوها. أما أول شرارة للبهجة فقد راودتنا حينما رأينا ديكا له ذيل فيه ريش متعدد الألوان. ولكن هذا الإحساس قد بقي كمجرد شرارة فحسب؛ فنحن لا زلنا بعد لا ننتمي إلى هذا العالم.

في المساء حينما التقينا جميعا مرة ثانية في جناحنا وهمس أحدنا سرا إلى زميل له: «قل لي، هل كنت مسرورا اليوم؟».

وأجاب الأخر، وقد غمره شعور بالخجل لأنه لم يعرف أننا جميعا نحس نفس الشعور: «بصدق، لا»! لقد فقدنا في الواقع القدرة على الاحساس بالسرور، وبالتالي علينا أن نقوم ببطء بعملية إعادة تعلم لهذه المشاعر.

يمكن أن يطلق، من الناحية النفسية، على ما حدث للمسجونين المفرج عنهم مصطلح «اختلال الشخصية» (depersonalization). فكل شيء قد بدا غير حقيقي، وظهر بغيضا، كما لو أنه في حلم. لم نستطع أن نصدق أن ذلك كان حقيقيا. وكم كنا غالبا نعيش في خداع بواسطة الأحلام في السنوات الماضية! كنا نحلم بأن يوم التحرر قد أتي، وبأنه سوف يجري إطلاق سراحنا، ونعود لمنازلنا، ونستقبل اصدقاءنا، ونعانق زوجاتنا، ونجلس إلى المائدة لنحكي كل الأشياء التي عشناها، بل نحكي أيضا كيف كنا نرى غالبا يوم التحرر في أحلامنا. وعندئذ دوت صفارة في آذاننا، إشارة لنا لكي نستيقظ، وبذلك تأت أحلامنا بالحرية الى نهايتها. فالآن قد صار الحلم حقيقة. لكن هل نستطيع أن نصدقه في الحقيقة؟

الشهية الزائدة

لقد تعرض الجسم لخبرات من الكف أقل مما تعرض له العقل. لذا فقد أفاد من الحرية الجديدة من اللحظة الأولى. فقد بدأ يأكل بنهم، لساعات ولأيام، بل حتى في منتصف الليل. وكانت كميات الطعام التي تلتهمها تبعث على الدهشة. وحينها يُدعى أحد المسجونين إلى منزل أحد المزارعين الأصدقاء، كان يأكل ويأكل، ثم يحتسي القهوة التي تطلق لسانه. فيأخذ في التحدث ولعدة ساعات غالبا. فالضغط الذي كان جاثما على عقله لسنوات قد انقشع في النهاية. ولو سمعه شخص يتكلم، لخرج بانطباع مؤداه انه مضطر إلى التكلم، وأن رغبته في الكلام لا تقاوم.

الكلام الزائد

أعرف أشخاصا قد خضعوا لضغط ثقيل لفترة وجيزة من الوقت (على سبيل المثال، استجوابهم بواسطة الجستابو)، كانوا يأتون بردود فعل مماثلة. تنقضي أيام كثيرة، حتى لا ينفك لسانه فحسب، ولكن شيء داخل نفسه كذلك؛ ثم ينطلق شعوره فجأة من خلال القيود الغريبة التي حبست ذلك الشعور. في أحد الأيام، بعد فترة قليلة من الإفراج، كنت أسير في المدينة بجوار المروج الغنية بالزهور، ولعدة أميال، صوب سوق المدينة بالقرب من المعسكر. وكانت الطيور تحلق في السماء، وأسمع غناءها الذي يبعث على البهجة. لم يكن هناك أي شخص يمكن رؤيته لعدة أميال من حولي؛ لم يكن هناك أي شيء عدا الأرض والسماء المترامييتن وتغريد الطيور ورحابة الفضاء. توقفت، ونظرت من حولي وتطلعت إلى السماء – ثم ركعت على ركبتي – في تلك اللحظة لم أعرف عن نفسي ولا عن العالم الا القليل جدا، ولكن كانت هناك جملة واحدة في عقلي أرددها: «لقد دعوت الله من سجني الضيق، فأجابني في رحابة الكون».

الطريق من حرب الأعصاب إلى السلام العقلي

لم أعد أستطيع أن أتذكر كم من الوقت بقيت فيه راكعا في ذلك المكان، حيث اردد تلك الجملة، لكني أعرف أنه في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، بدأت حياتي الجديدة. وأخذت في التقدم خطوة بخطوة، حتى صرت مرة أخرى كائنا انسانيا.

لا شك أن الطريق الذي تركنا فيه التوتر العقلي الحاد للأيام الأخيرة في المعسكر (الطريق من حرب الاعصاب إلى السلام العقلي) لم يكن خاليا من العقابات. فمن الخطأ أن نعتقد أن السجين المفرج عنه لم يكن بحاجة الى رعاية معنوية أكثر من ذلك. وينبغي أن نضع في الاعتبار أن الشخص الذي كان تحت ذلك الضغط العقلي الهائل لتلك الفترة الطويلة، من الطبيعي أن يكون في خطر بعد إطلاق سراحه، خاصة وأن هذا الضغط قد استُبْعد على حين فجأة تماما. هذا الخطر (من منظور الصحة النفسية) هو صورة نفسية مطابقة للقيود التي رزح تحتها. فكما أن الصحة الجسمية للغواص تتعرض للخطر إذا ترك مكان الغوص فجأة (حيث يكون تحت ضغط جوي عال)، كذلك فإن الشخص الذي يجري تحريره فجأة من الضغط العقلي قد يعاني من اختلال في صحته المعنوية والروحية.

خلال هذا الطور النفسي يستطيع أي شخص أن يلاحظ أن الناس ذوي الطبائع الأكثر بدائية لا يستطيعون الهرب من تأثيرات القسوة التي احاطت بهم في حياة المعسكر. فالآن، وبعد تحررهم، صاروا يعتقدون أنهم يستطيعون استخدام حريتهم بلا قيود وبلا هوادة. فكان الشيء الوحيد الذي تغير بالنسبة لهم هو أنهم الأن القامعون بدلا من المقمعين. لقد صاروا محرضين،

وليسوا أهدافا، للقوة العاتية، وللظلم المقصود. ويبررون سلوكهم بخبراتهم البشعة. وهذا ما يتكشف غالبا في احداث تافهة بوضوح. كان هناك صديق لي يسير معي عبر حقل صوب المعسكر، وفجأة وجدنا أنفسنا في حقل به محاصيل خضراء. وبطريقة آلية، تجنبت السير في هذا الحقل، ولكنه شدني من يدي وجرني إلى هذا الحقل. تلعثمت بعض الشيء إزاء مراعاة هذا النبت الصغير الأخضر لكي لا نطأه بأقدامنا. تملكه الغضب، ورمقني بنظرة غاضبة وصاح: «انت لا تتكلم! يكفي ما فقدناه. ان زوجتي وإبني قد أعدما بالغاز – ولن أشير إلى أي شيء آخر – وانت تريد أن تمنعني من أن أدوس على بعض سيقان قليلة من الشوفان!»

كان من الواجب إعادة هؤلاء الأشخاص إلى الحقيقة المألوفة بأنه ليس من حق أي شخص أن يأتي بخطأ، حتى ولو وقع عليه خطأ، وكانت إعادة هؤلاء الأشخاص الى هذه الحقيقة تتم ببطء شديد. كان علينا أن نسعى إلى اعادتهم إلى هذه الحقيقة، والا فإن النتائج سوف تكون أسوأ من مجرد إتلاف بضعة سيقان من الشوفان. وإني لا زلت أرى السجين الذي لف أكمام قميصه وضغط بيده اليمنى أسفل أنفي وصاح: «اقطع يدي هذه إذا لم ألطخها بالدم في ذلك اليوم الذي أعود فيه إلى بلدي»! وأود أن أذكر أن الشخص الذي قال هذه الكلمات لم يكن زميلا رديئا. لقد كان أفضل زملائي في داخل المعسكر وكذلك بعد خروجنا منه.

وبالإضافة إلى الفساد الخلقي الناجم عن التحرر المفاجئ من الضغط العقلي، كانت هناك خبرتان أساسيتان تهددان بتدمير الطابع المميز للسجين المفرج عنه، وهما: القسوة (Bitterness) والتحرر من الوهم (disillusionment)، حينما يعود الى حياته السابقة.

القسوة

تعزي القسوة إلى عدد من الاشياء التي كان يلاقيها في مدينته قبل اعتقاله بالمعسكر. فحينما يجد الشخص، عند عودته، أنه في أماكن كثيرة لا يلقى الا هز الكتفين والعبارات المبتذلة، فإنه ينزع إلى أن يصبح قاسيا والى آن يسائل نفسه لماذا كل هذا الذي لقيه. إنه حينما يسمع نفس العبارات تقريبا في كل مكان – «إننا لم نعلم بذلك»، و«نحن قد عانينا أيضا» – فانه يسأل نفسه: اليس عندهم في الحقيقة شيء أفضل من ذلك يستطيعون أن يقولوه لي؟

التحرر من الوهم

اما خبرة التجرد من الوهم فهي مختلفة. ذلك أن الأمر لم يكن خاصا بالرفاق (الذين كانت سطحية مشاعرهم ونقصها مما يبعث على الاشمئزاز والتقزز بحيث يشعر الشخص في النهاية كما لو أنه دبيب يزحف في جحر فلا يسمع ولا يرى أية كائنات انسانية بعد الان) كان خاصا بالمقدر نفسه وبالمصير، فهذا هو ما بدا قاسيا للغاية فالإنسان الذي ظل لعدة سنوات يعتقد أنه قد وصل إلى الحد المطلق لكل معاناة ممكنة، انما يجد الآن أن المعاناة أمر لا حدود له، وانه لا زال يمكن ان يعاني بشدة أكثر مما كان.

حينما تكلمنا عن محاولات تزويد الإنسان في المعسكر بالشجاعة العقلية، قلنا إنه ينبغي تبصيره بشيء ما يتطلع اليه في المستقبل. ينبغي تذكيره بأن الحياة لا تزال تنتظره، وبأن إنسانا في انتظار عودته. لكن ماذا عن مرحلة ما بعد الافراج؟ كان هناك بعض الأشخاص الذين وجدوا أنه ليس هناك من ينتظرهم. وويل لذلك الفرد الذي وجد أن الشخص، الذي كانت

مجرد ذكراه وحدها تبعث فيه شجاعة في المعسكر، لم يعد موجودا! وويل لذلك الفرد الذي، حينما يأتي في النهاية يوم أحلامه، يجده مختلفا تماما عن كل ما كان يتشوق اليه! ربما ركب عربة، وسافر الى المنزل الذي كان يراه لسنوات في عقله، وفي عقله فحسب، ودق على جرس الباب، كما تشوق في الاف من أحلامه إلى أن يفعل ذلك، الا انه يجد في النهاية أن الشخص الذي كان يفتح الباب ليس هناك، ولن يكون هناك أبدا مرة ثانية.

هكذا قلنا جميعا لبعضنا البعض في المعسكر بانه لن توجد سعادة على الأرض تستطيع أن تعوضنا عن كل ما عانيناه. لم نكن نأمل في السعادة – فلم تكن هي التي أمدتنا بالشجاعة وأعطت معنى لمعاناتنا وتضحياتنا واقدامنا على الموت. بل إننا لم نكن مهيئين لعدم السعادة. هذا التحرر من الوهم، الذي كان بانتظار عدد من المسجونين ليس بقليل، كان خبرة يصعب المرور فيها ويتعذر التغلب عليها سواء عند هؤلاء المسجونين ام بالنسبة للطبيب النفسي الذي يروم مساعدتهم على التخلص منها. لكن ذلك لا يجوز أن يكون مثبطا للطبيب النفسي، بل، على العكس، يزوده بمشير إضافي.



فبالنسبة لكل شخص من المسجونين المفرج عنهم، يأتي ذلك اليوم حينما لم يعد قادرا على أن يفهم، مستعيدا خبراته في المعسكر، كيف أنه قد تحمل كل ما مر به. وكما أن يوم تحرره قد أتي في النهاية، حينما بدا كل شيء له كحلم جميل، فان هذا اليوم يأتي أيضا حينما تبدو له كل خبراته في المعسكر على أنها ليست إلا كابوسا.

اما الخبرة التي تتوج كل هذه الخبرات، بالنسبة للشخص العائد إلى منزله، فهي ذلك الشعور العجيب بأنه، بعد كل ما لقيه من معاناة، لا يوجد ثمة شيء يستوجب الخوف بعد الآن – عدا الخوف من الله سبحانه وتعالى.

الجُزء الثاني:
المبادئ الأساسيّة للعلاج بالمعني

عادة ما يتساءل القراء لسيرتي الذاتية القصيرة عن إيضاح مباشر أكثر تفصيلا واكتمالا لنظريتي في العلاج. وبناء على ذلك فقد أضفت قسما موجزاً عن العلاج بالمعنى إلى الطبعة الأصلية من كتابي (من معسكر الموت إلى الوجودية) .(From Death - Camp to Existentialism)
لكن ذلك لم يكن كافيا، ووجدت نفسي مطالبا بمزيد من التناول الموسع. لذلك فقد عمدت في الطبعة الحالية إلى أن أعيد كلية كتابة نظريتي وإلى أن أتوسع كثيراً في عرض وجهات نظري.

لم تكن المهمة سهلة إلى هذا الحد، فلكي أقدم للقارئ داخل حيز قصير كل المادة العلمية التي استغرقت أربعة عشر مجلداً باللغة الألمانية، انما هو في الغالب مهمة عسيرة. يذكرني ذلك بطبيب امريكي حضر إلى عيادتي بڤيينا ذات مرة وسألني: «والآن، يا دكتور، هل أنت محلل نفسي؟» وعندئذ أجبت: «لست بالضبط محللا نفسيا، ولنقل معالجا نفسياً». ثم استمر يسألني: «ما هي المدرسة التي تناصرها؟، أجبت: «إنها نظريتي، وهي تعرف ب «العلاج بالمعنى». فسألني: «هل تستطيع أن تخبرني في جملة واحدة ماذا تقصد بالعلاج بالمعنى؟ على الأقل، ما الفرق بين التحليل النفسي والعلاج بالمعنى؟» قلت: «نعم، ولكن أولا هل تستطيع أن تخبرني في جملة واحدة بماهية التحليل النفسي كما تعتقد؟» وهذه كانت اجابته: «أثناء التحليل النفسي ينبغي أن يرقد المريض على أريكة (كنبة) ويحكي لك أشياء، يكون في بعض الأحيان من غير المقبول جدا الإفصاح عنها». عندئذ أجبته على الفور بالعبارة المرتجلة التالية: «الآن، في العلاج بالمعنى قد يظل المريض جالسا معتدلا في وضعه الطبيعي، لكنه ينبغي أن يسمع أشياء، يكون في بعض الأحيان من غير المقبول جدا سماعها».

ومن الطبيعي، أني كنت أقصد بهذه العبارة بعض المزاح ولم أقصد صياغة معدلة للعلاج بالمعنى. ومع ذلك، فإنها تنطوي على بعض الشيء، بقدر ما يعتبر العلاج بالمعنى، مقارنة بالتحليل النفسي، طريقة «أقل استرجاعية» و«أقل استبطانيه» .(less retrospective, less introspective) فالعلاج
بالمعنى يركز أكثر على المستقبل، أي يركز على التعيينات والمعاني التي ينبغي أن يضطلع بها المريض في مستقبله، ولا يركز العلاج بالمعنى في نفس الوقت على كل تكوينات الدائرة المفرغة وميكانزمات التغذية الراجعة (المرتدة) التي تلعب دورا هائلا في نمو الأمراض النفسية. ومن ثم، يوضع حدا لما يميز الشخص العصابي من تمركز حول الذات، بدلا مما يخضع له هذا التمركز من نمو وتدعيم بشكل مستمر.

لا ريب أن هذا النوع من العرض لهذه النظرية فيه تبسيط زائد - ففي العلاج بالمعني يُواجَه المريض فعلا بمعنى حياته، كما يعاد توجيهه وتوجهه نحو معنى هذه الحياة، ولذا، فان صياغتي لتعريف لمفهوم العلاج بالمعني تصدق من حيث أن الشخص العصابي يحاول الهرب من الوعي الكامل بمهامه في الحياة. وإذا استطعنا أن نجعله واعيا بهذه المهام، وأن نوقظ فيه الوعي الأكمل بها، فان هذا يمكن أن يسهم كثيرا في تعضيد قدرته على التغلب على عصابه.

والان فلأفسر لماذا استخدمت المصطلح «Logotherapy» (العلاج بالمعنى) كاسم لنظريتي. «Logos» – كلمة يونانية تشير إلى «المعنى» Meaning. اذن، العلاج بالمعنى، أو كما يطلق عليه البعض «مدرسة ڤيينا الثالثة في العلاج

النفسي» [3]، يركز على معنى الوجود الإنساني وكذلك على سعي الإنسان إلى البحث عن ذلك المعنى. هذا السعي إلى أن يجد معنى في حياته، وفقا للعلاج بالمعنى، هو القوة الدافعية الأولية في الانسان. وفي ذلك يتضح لماذا أتكلم عن «إرادة المعنى»، خلافا لمبدأ اللذة (Pleasure principle) (أو كما نستطيع أن نطلق عليه أيضا مصطلح إرادة اللذة) (The will to pleasure)، الذي تمركز حوله التحليل النفسي الفرويدي، وكذلك خلافا لمبدأ إرادة القوة (The will to power) الذي اهتم به علم النفس الأدلري (نسبة إلى «آدلر» عالم التحليل النفسي).

ارادة المعنى
((THE WILL TO MEANING

إن سعى الإنسان إلى البحث عن معنى هو قوة أولية في حياته وليس «تبريرا ثانويا» (Secondary rationalizatic) لحوافزه الغريزية. وهذا المعنى فريد ونوعي من حيث أنه لابد أن يتحقق بواسطة الفرد وحده ويمكن لهذا أن يحدث؛ وعندئذ فقط يكتسب هذا المعنى مغزى يشبع إرادة المعنى عنده. يزعم بعض علماء النفس أن المعاني والقيم «ليست الا ميكانزمات دفاعية، وتكوينات ردود أفعال واعلاءات». ولكن إذا تكلمت عن نفسي وعن وجهة نظري، فأنا لا ابتغي مجرد العيش من أجل «ميكانزماتي الدفاعية»، ولست مستعدا للموت من أجل «تكوينات ردود أفعال» فحسب. فالإنسان، مع ذلك، قادر على أن يحيا وعلى أن يموت أيضاً من أجل مثله وقيمه وطموحاته!

وقد أجري في فرنسا، منذ عدة سنوات، استطلاع للرأي العام. وقد أظهرت النتائج أن ٨٩٪ من الأشخاص المستفتيين قد أقروا أن الأنسان يحتاج «شيئا ما» لكي يعيش من أجله. وبالإضافة إلى ذلك فان ٦١٪ منهم يسلمون بأنه كان يوجد شيء ما أو شخص ما في حياتهم، والذي من أجله كانوا على استعداد حتى للموت. وقد كررت تطبيق هذا الاستفتاء في عيادتي بفيينا على المرضى وكذلك على العاملين المستخدمين بالعيادة، وكانت النتائج على وجه التقريب على نحو مماثل لتلك النتائج التي حصلوا عليها من آلاف الأشخاص المستفتيين في فرنسا، بحيث أن الاختلاف كان بنسبة ٢٪ فقط. بقول آخر، أن إرادة المعني هي في معظم الناس حقيقة وليست مجرد اعتقاد (fact, not faith).

ومن الطبيعي، أنه قد توجد بعض الحالات التي يكون فيها اهتمام الفرد بالقيم عبارة في الواقع عن تمويه للصراعات الداخلية المستترة؛ ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فإنها تمثل استثناءات من القاعدة وليست القاعدة ذاتها. في مثل هذه الحالات يكون للتفسير النفسي الدينامي ما يسوغه كمحاولة لإماطة اللثام عن الديناميات اللاشعورية الكامنة. وعلينا في تلك الحالات أن نتناول في الواقع «قيما كاذبة» (pseudo-values) (وخير مثال لذلك هو الشخص المتعصب)، وأن نكشف عنها القناع كما هي. ومع ذلك، فان عملية كشف القناع (unmasking)، أو افضاح الزيف (debunking) ينبغي أن تتوقف حالما يُواجَه الشخص بما هو حقيقي وأصيل في الانسان، كرغبته مثلا في حياة تكون ذات معنى بقدر الإمكان. وإذا لم تتوقف هذه العملية عندئذ، فإن الشخص الذي يقوم بها انما يكشف عن إرادته الرامية إلى التقليل من قدر الطموحات المعنوية لدى الشخص الآخر.

علينا أن نحتاط إذن من النزعة إلى تناول القيم في ضوء مجرد تعبير الشخص ذاته عن نفسه. فالمعنى (Logos) ليس انبثاقا من الوجود ذاته فحسب، ولكنه بالأحرى شيء يواجه هذا الوجود. وإذا لم يكن المعنى الذي ينتظر تحقيقه من الانسان في الواقع شيئا سوى تعبير عن الذات، أو لم يكن أكثر من مجرد إسقاط لتفكيره الهوائي المراد (wishful

thinking projection)، فانه يفقد على الفور طبيعته الباعثة على التحدي والعمل؛ ولا يعود بذلك يدفعه الى أن يحشد طاقاته وينطلق إلى التقدم. ولا يصدق ذلك على ما يعرف بالإعلاء بالحوافز الغريزية فحسب، ولكنه يصدق أيضاً على ما يسميه «كارل يونج» (C.G.Jung) ب «النماذج أو الطرز الأصلية للاشعور الجمعي»، بقدر ما (archetypes of collective unconscious) تعتبر هذه الأخيرة أيضاً تعبيراً عن الذات، أي عن الذات الإنسانية ككل. يصدق ذلك أيضا على زعم بعض المفكرين الوجوديين الذين لا يرون في المثل عند الانسان شيئاً سوى اختراعاته الخاصة به. فالإنسان، وفقا لجان بول سارتر، يخترع نفسه، ويصمم «جوهره»؛ أي يبتدع ويصمم حقيقة ماهيته، بما في ذلك ما ينبغي أن يكون عليه أو يصير به. ومع ذلك، فاني أعتقد أن معنى وجودنا ليس أمراً نبتدعه نحن أنفسنا، وانما هو بالأحرى أمر نكتشفه ونستبينه.

ومن ثم، تعتبر البحوث النفسية – الدينامية (Psychodynamic research) في ميدان دراسة القيم اتجاها مشروعا؛ ولكن يبقى السؤال ما إذا كانت هذه البحوث دائما ملائمة، وفوق كل ذلك، ينبغي أن نتذكر أن أي بحث من هذه البحوث لا يستطيع، من حيث المبدأ، أن يكشف الا عن ماهية القوة الدافعة في الانسان. ومع ذلك، فإن القيم لا تحفز الانسان؛ انها لا تدفعه، وانما بالأحرى تشده وتجذبه. وفي هذا يكمن الاختلاف؛ وهذا أشبه بما أتذكره دائما عن أبواب الفنادق الأمريكية حينما أمر بها. فهناك باب ينبغي جذبه وشده، بينما ينبغي دفع الباب الآخر. والآن، إذا قلت إن الإنسان يُجذب بالقيم، فان ما يشير اليه ذلك ضمنا هو تلك الحقيقة بأن هناك دائما حرية متضمنة فيها: حرية الانسان في الاختيار بين القبول أو الرفض لما هو معروض عليه، أي في تحقيق إمكانات المعنى (meaning potentiality)، والا فقدها.

ومع ذلك، ينبغي أن يكون واضحاً تماماً أنه لا يمكن أن يوجد في الانسان شيء يمكن أن نسميه الحافز المعنوي (moral drive)، أو حتى الحافز الديني (religious drive)، بنفس الطريقة التي نتكلم بها عن الغرائز الأساسية كمحددات حتمية للانسان. فالانسان لا يساق أبدا إلى السلوك الأخلاقي المعنوي؛ ولكنه في كل حالة يتخذ قرارا بأن يسلك على نحو أخلاقي. والانسان لا يفعل ذلك لكي يشبع حافزاً أخلاقيا معنوياً أو لكي يكون له ضمير سليم. أي أنه لا يسلك بطريقة أخلاقية حتى يكون له ضمير سليم ولكنه يسلك هكذا من أجل سبب يوطن نفسه عليه، أو من أجل إليه الذي يعبده أو من أجل شخص يحبه. والواقع أن الفرد، إذا كان يفعل ذلك في الواقع من أجل أن يكون له ضمير سليم، فانه سيصبح شخصا «فريسيا»[4] (مرائيا)، ويمتنع عليه أن يكون شخصا اخلاقيا بحق. وأعتقد أن القديسين لم يشغلهم ببساطة أمر سوى خدمة الله، واني أشك في أن أذهانهم قد شغلت حينذاك بالرغبة في أن يصبحوا قديسين. وإذا كان الأمر كذلك فانهم يصيرون اشخاصا كماليين أكثر من أن يصيروا قديسين. ولا شك أن «الضمير السليم هو أفضل وسادة» كما تذهب مأثورة المانية، الا أن الأخلاق الحقة هي أكثر من حبة دواء منوم، أو من عقار مهدئ.

الاحباط الوجودي
(EXISTENTIAL FRUSTRATION)

قد تتعرض إرادة المعنى عند الانسان أيضاً إلى الإحباط، وهو ما يعرف ب «الاحباط الوجودي» وفقا لنظرية العلاج بالمعنى. يمكن استخدام مصطلح «وجودي» بطرق ثلاث: لكي يشير اولا إلى الوجود ذاته، أي أسلوب الوجود المميز للإنسان؛ وثانية

إلى معنى الوجود؛ وثالثاً الى السعي للتوصل إلى معني محسوس ملموس في الوجود الشخصي، أي إلى إرادة المعني.

وقد يتمخض الاحباط الوجودي أيضاً عن المرض النفسي. ولهذا النمط من المرض النفسي يبتكر العلاج بالمعنى مصطلح «العصاب المعنوي المنشأ» (Noogenic neurosis) خلافا للعصاب بمعناه الشائع لهذه الكلمة، أي خلافا للعصاب لنشأ. ولا يكمن أصل العصاب المعنوي المنشأ في البعد النفسي ولكن بالأحرى في البعد «العقلي أو الروحي» «noologic al (وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية «noos» وتعني العقل) للوجود الانساني. وهذا مصطلح آخر للعلاج بالمعنى يشير إلى أي شيء يتعلق بالمحور «العقلي» أو «الروحي» من شخصية الإنسان. ولكن، ينبغي الا يغيب عن أذهاننا أنه داخل الإطار المرجعي للعلاج بالمعنى، لا يكون لمصطلح «روحي» دلالة دينية بشكل أساسي وانما يشير إلى البعد الانساني خاصة.

العصاب المعنوي المنشأ
(NOÖGENIC NEUROSIS)

لا يتولد العصاب المعنوي المنشأ من الصراعات بين الحوافز والغرائز وانما يتولد بالأحرى من الصراعات بين القيم المختلفة؛ وبعبارة أخرى ينشأ العصاب المعنوي المنشأ من الصراعات المعنوية الأخلاقية؛ أو إذا تكلمنا بطريقة أكثر عمومية، من المشكلات «الروحية». ومن بين تلك المشكلات، الاحباط الوجودي الذي يلعب غالبا دورا كبيرا.

من الواضح أنه في حالات المرض النفسي المعنوي المنشأ لا يكون العلاج الملائم والفعال هو العلاج النفسي بصورة عامة وانما يكون هو بالتحديد العلاج بالمعنى – وهو ذلك العلاج الذي يجرؤ على الدخول إلى البعد المعنوي الروحي من الوجود الإنساني. وفي الواقع، أن المقصود بمصطلح «Logos» باليونانية ليس المعنى، فحسب وانما هو «الروح» أيضاً. فالمشكلات المعنوية الروحية، مثل طموح الانسان الى وجود ذي معنى وكذلك مثل إحباط هذا الوجود؛ كل هذه يجري تناولها بواسطة العلاج بالمعني على أساس مفاهيم معنوية روحية. فهي تؤخذ بإخلاص وبحماس بدلا من العودة بها وتتبعها الى الجذور والمصادر اللاشعورية، وبالتالي بدلا من تناولها على اساس المفاهيم الغريزية دون غيرها.

وإذا فشل طبيب في التمييز بين جوانب البعد الروحي وجوانب البعد الغريزي، فانه قد يختلط عليه الأمر وبذلك يقع في ارتباك شديد. ويمكنني بهذه المناسبة أن أسوق المثال التالي: حضر إلى مكتبي في فيينا أحد الدبلوماسيين الأمريكيين الكبار بطلب أن يستكمل علاجا بالتحليل النفسي كان قد بدأه منذ خمس سنوات مع أحد المحللين النفسيين في نيويورك. وفي مستهل المقابلة سألته لماذا يعتقد أنه ينبغي أن يحلل نفسيا، ولماذا برز تحليله إلى المحل الأول. وقد تبين لي أن هذا المريض لم يكن متوافقا مع مهنته، ووجد أنه من الصعب عليه غالبا أن يساير السياسة الخارجية الأمريكية. الا أن محلله أخبره مرارا أنه يجب أن يحاول التصالح مع والده وأن يصل الى تسوية ما بينهما من خلاف، لأن حكومة الولايات المتحدة وكذلك رؤساؤه «لم يكونوا شيئا سوى» صوراً لوالده، وبالتالي فان عدم رضائه عن عمله كان يرجع إلى الكراهية التي يكنها لا شعورياً نحو والده. وخلال تحليل نفسي استغرق خمس سنوات، جري حض المريض أكثر وأكثر على قبول تفسيرات محلله حتى صار عاجزا في النهاية عن أن يرى غابة الحقيقة بسبب أشجار الرموز والصور. وبعد بضع مقابلات، كان واضحاً أن إرادة المعنى عنده كانت قد تعرضت للإحباط بواسطة مهنته، وأنه قد صار يشتاق بالفعل لكي يلتحق بنوع آخر من العمل. ونظرا لعدم توافر الأسباب التي تجعله لا يتخلى عن مهنته، ويلتحق بمهنة أخرى، فانه تخلى عنها والتحق بعمل آخر، مع وجود نتائج مشجعة. لقد ظل يجاهد في عمله الجديد لأكثر من خمس سنوات، كما قرر ذلك حديثاً. وأشك أني، في هذه الحالة، كنت أتناول حالة

عصابية على الاطلاق؛ وهذا هو السبب الذي جعلني أعتقد أنه لم يكن بحاجة إلى أي علاج نفسي، ولا حتى إلى علاج بالمعنى، وذلك لسبب بسيط وهو أنه لم يكن مريضا بالفعل. ليس كل صراع بالضرورة عصابيا؛ فمقدار من الصراع سوي وصحي. كذلك ليست كل معاناة ظاهرة مرضية؛ وهي بالتالي ليست عرضا من أعراض العصاب. لذا فإن المعاناة قد تكون إنجازا انسانيا طيبا، خاصة إذا كانت تنشأ من الإحباط الوجودي. وأني لأنكر بقوة أن بحث الإنسان عن معنى لوجوده، أو حتى تشككه في هذا المعنى، انما يشتق في أي حالة من أي مرض، أو يتمخض عن أي مرض. فالإحباط الوجودي ليس في حد ذاته ظاهرة مرضية ولا هو عرض ذو أصل مرضي.

ويمكن أن نقول إن اهتمام الانسان بالحياة وقلقه بشأن جدارتها وحتى يأسه منها لا يخرج أحيانا عن كونه ضيقا معنوياً روحياً وليس بالضرورة أن يكون مرضاً نفسياً بحال من الأحوال. وهنا يكون تفسير هذا الضيق المعنوي أو الروحي على أنه مرض نفسي هو ما يدفع الطبيب الى أن يدفن اليأس الوجودي عند مريضه تحت كومة من العقاقير المهدئة. ولكن مهمته هي بالأحرى أن يقود المريض من خلال أزماته الوجودية إلى النمو والارتقاء.

أن العلاج بالمعنى يعتبر أن مهمته مساعدة المريض على أن يجد معنى في حياته. وبقدر ما يجعله العلاج بالمعنى واعياً بالمعنى الكامن (hidden logos) لوجوده، فان هذا العلاج عملية تحليلية. وفي ذلك يشبه العلاج بالمعنى التحليل النفسي. الا أنه في محاولة العلاج بالمعنى لجعل الشيء شعوريا مرة ثانية (بعد أن كان لا شعوريا)، فان هذا العلاج لا يقصر نشاطه على الحقائق الغريزية داخل اللاشعور عند الفرد، ولكنه يهتم أيضا بالحقائق المعنوية (الروحية) مثل تحقيق امكانات المعني (potential meaning) لوجوده، وكذلك إرادة المعنى عنده. ومع ذلك، فان أي تحليل حتى حين يمسك عن تضمين البعد المعنوي أو الروحي في عمليته العلاجية، فانه يحاول أن يجعل المريض واعياً بما هو تواق اليه بالفعل في أعماق كيانه. أن الفرق الأساسي بين العلاج بالمعني وبين التحليل النفسي أن العلاج بالمعني يعتبر الانسان كائنا ينصب اهتمامه الرئيسي على تحقيق المعنى وتحقيق القيم، بدلا من أن يهتم بمجرد إرضاء أهوائه وإشباع حوافزه وغرائزه، أو بدلا من أن يهتم بمجرد إحداث المصالحة بين المطالب المتصارعة التي يفرضها الهو والأنا والأنا الأعلى، أو بدلا من أن يهتم بمجرد المواءمة والتكيف للمجتمع والبيئة.

الديناميات المعنوية
(NOÖ – DYNAMICS)

حقاً، أن بحث الإنسان عن المعنى وسعيه نحو تحقيق القيمة ربما يثير توترا داخلياً بدلا من أن يؤدي إلى اتزان داخلي. ومع ذلك، فإن هذا التوتر هو بالضبط المتطلب الذي لا بد منه للصحة النفسية. واني لأتجرا بالقول، أنه لا يوجد شيء في الدنيا، يمكن أن يساعد الانسان بفاعلية على البقاء حتى في أسوأ الظروف، مثل معرفته بأن هناك معنى في حياته. وفي ذلك تنطوي كلمات «نيتشه» على حكمة عظيمة: «إن من عنده سببا لأن يعيش من أجله، فانه غالبا يستطيع أن يتحمل في سبيله بأي شكل من الأشكال». وأستطيع أن أرى في هذه الكلمات شعاراً يصدق على أي علاج نفسي، في معسكرات الاعتقال النازية، يمكن أن نشهد (وهذه الشواهد قد أكدها أيضا الأطباء النفسيون الأمريكيون سواء في اليابان أو كوريا) على أن الأشخاص الذين كانوا يعرفون بأن هناك مهمة تنتظر منهم أن يقوموا بتحقيقها، هم أولئك الذين كانوا أكثر ميلا إلى البقاء.

وبالنسبة لي، فحين جرى اعتقالي بمعسكر آوشويتز، صادرت السلطات لي – مخطوطا لكتاب كان في سبيله إلى النشر [5]. ولا شك، أن اهتمامي العميق بكتابة هذا المخطوط من جديد قد أعانني على البقاء وسط أهوال المعسكر. فعلى سبيل المثال،

حين شعرت أنني كنت مريضا بحمى التيفوس أخذت ادون على قصاصات صغيرة من الورق ملاحظات كثيرة قصدت بها أن تمكنني من إعادة كتابة المخطوط، آملا أن أعيش الى اليوم الذي يطلق فيه سراحي. وإني لعلى يقين بان اعادة تأليف هذا المخطوط المفقود في الثكنات المظلمة لمعسكر الاعتقال في بافاريا قد ساعدتني على التغلب على خطر الانهيار.

ومن ثم يمكن أن ترى أن الصحة النفسية تستند الى درجة من التوتر – التوتر بين ما أنجزه الفرد بالفعل وما لا يزال عليه أن ينجزه، أو الفجوة بين واقع الفرد وما ينبغي أن يصير عليه. ذلك التوتر كامن في الوجود الإنساني وبالتالي فلا غني عنه بالنسبة للصحة النفسية. وينبغي اذن الا نتردد في أن نضع أمام الإنسان تحديات عليه أن يواجهها بما عنده من معان كامنة عليه أن يحققها، فكل ما نفعله في هذه الحالة هو أن نستدعي إرادة المعنى عنده من حالة كمونها. وأعتبر أنه لتصور خاطئ وخطير للصحة النفسية الزعم بأن ما يحتاجه الانسان في المحل الأول هو «التوازن» (equilibrium)، أو كما يعرف ب «استعادة الاتزان» (homeostasis) في البيولوجيا، أي «حالة اللاتوتر» (tensionless state). فليس ما يحتاجه الإنسان حقيقة هو حالة اللاتوتر ولكنه يحتاج الى السعي والاجتهاد في سبيل هدف يستحق أن يعيش من أجله. فالإنسان لا يحتاج الى التخلص من التوتر بأي ثمن، ولكن يحتاج إلى استدعاء امكانات المعني – ذلك المعنى الذي ينتظر أن يقوم بتحقيقه. إن ما يحتاجه الانسان ليس استعادة

الاتزان ولكن ما أسميه ب «الديناميات المعنوية»، في مجال للتوتر – يتمثل أحد قطبيه في المعنى اللازم تحقيقه، ويتمثل القطب الأخر في الانسان الذي ينبغي أن يقوم بتحقيقه. ولا يجوز أن نعتقد أن هذا يصدق على الحالات السوية دون غيرها؛ ولكنه يصدق أكثر على الأشخاص العصابين. فإذا أراد مهندسون معماريون تقوية قنطرة متداعية للسقوط، فانهم يزيدون من الحمل الذي يوضع عليها، لأن الأجزاء بهذه الوسيلة تترابط مع بعضها بشكل أكثر تماسكا. ومن ثم، فاذا أراد معالجون تعزيز الصحة النفسية عند مرضاهم، فانهم ينبغي الا يخافوا من زيادة ذلك الحمل من خلال إعادة توجه الفرد نحو معنى حياته.

وبعد أن أوضحنا التأثير المفيد ل «التوجه نحو المعنى» (meaning orientation)، أنتقل الى التأثير الضار لذلك الشعور الذي يشكو منه مرضي كثيرون في هذه الأيام، وأعني به الشعور الكلى والمطلق ب «اللامعني» (meaninglessness) لحياتهم. فأشخاص كهؤلاء يعوزهم الأحساس أو الشعور بمعنى يستحق أن يعيشوا من أجله. وهم يعانون من خبرة فراغهم الداخلي، من خواء وفجوة بداخل نفوسهم؛ وانهم بذلك يصبحون مقيدين مأسورين في ذلك الموقف الذي أُطْلُق عليه مصطلح «الفراغ الوجودي».

الفراغ الوجودي
(THE EXISTENTIAL VACUUM)

الفراغ الوجودي ظاهرة واسعة الانتشار في القرن العشرين. وتلك ظاهرة يمكن تفسيرها وفهمها: اذ يمكن ارجاعها إلى فقدان ذي شقين، مما كان محتوما على الإنسان أن يمر به منذ أن أصبح كائناً بشرياً بحق ففي بداية التاريخ الانساني، فقد الانسان بعض الغرائز الحيوانية الأساسية مما يكمن فيه سلوك الحيوان وما يستشعر الحيوان بواسطته الأمن والطمأنينة. وهذا الأمان، كالجنة، قد أُغلق بابها في وجه الإنسان إلى الأبد؛ وصار على الانسان أن يأتي باختيارات. الا أنه، بالإضافة إلى ذلك، فإن الإنسان قد عانى من فقدان آخر في تطوره الحديث، ويتمثل هذا فيما يجري الآن بسرعة كبيرة من تناقص في الاعتماد على التقاليد التي أدت إلى دعم سلوكه. فليس هناك من غريزة ترشده الى ما عليه أن يفعله، ولا من تقليد يوجهه إلى الطريقة التي يتخذها في سلوكه وأفعاله، وسوف لا يعرف عما قريب ما يرغب فيه أو ما يريد أن يفعله. ومن ثم، سوف يخضع أكثر وأكثر

الى تحكم ما يريده الآخرون منه أن يفعله، وبالتالي سوف يقع بشكل متزايد فريسة للمسايرة والامتثال.

وقد أجري تلاميذي بقسم الأعصاب في «مستشفى فيينا البوليكينيكي» دراسة مسحية إحصائية مستعرضة على المرضى والهيئة التمريضية. وقد كشفت هذه الدراسة عن أن ٥٥٪ من الأشخاص المستفتيين قد أظهروا بدرجات متباينة درجة واضحة من الفراغ الوجودي. وبعبارة أخرى، فان أكثر من نصف هؤلاء الأشخاص قد خبروا فقدانا للشعور بأن الحياة ذات معنى.

ويكشف هذا الفراغ الوجودي عن نفسه أساسا في حالة الملل. هنا نستطيع أن نفهم «شوبنهاور» حينما قال إن الإنسانية قد حكم عليها بشكل واضح أن تتأرجح إلى الأبد بين طرفين أحدهما الضيق وثانيهما الملل. وقد سبب الملل في واقع الأمر مشكلات تحتاج إلى حل أكثر مما تحتاجه مشكلات الضيق؛ وقد خلق هذا بدوره من غير شك مشكلات أكثر أمام الأطباء النفسيين. وهذه المشكلات تنمو حدتها بشكل متزايد، وذلك لأنه من المحتمل أن يؤدي تقدم النظام الآلي الى زيادة هائلة في أوقات الفراغ بالنسبة للشخص العادي. ومن المؤسف أن أشخاصاً كثيرين سوف لا يعرفون ماذا يفعلون بكل أوقات فراغهم مما سيتوافر لهم حديثا.

والآن فلنفكر، على سبيل المثال، فيما يعرف با «عصاب يوم الراحة الأسبوعية» [6] ، وهو نوع من الاكتئاب يصيب الأشخاص الذين يصيرون واعين بما ينقص حياتهم من مضمون حينما ينتهي اندفاع الأسبوع المزدحم بالمشاغل ويصبح الفراغ بداخل نفوسهم جليا. وفي ذلك يمكننا أن نتتبع حالات الانتحار، وهي ليست بقليلة، ونردها إلى هذا الفراغ الوجودي. كذلك لا نستطيع فهم ظاهرات منتشرة، مثل الإدمان وجناح الأحداث، دون أن تتعرف على الفراغ الوجودي الكامن وراءها. كما أن هذا يصدق على الأزمات التي يخبرها المسجونون في معاقلهم والمسنون في شيخوختهم.

وهناك علاوة على ذلك، أقنعة مختلفة ومظاهر متعددة يبدو بها الفراغ الوجودي. ففي بعض الأحيان يكون هناك تعويض لإرادة المعنى المحْبِطة بإرادة القوة، بما في ذلك الشكل الأكثر بدائية لإرادة القوة وهو إرادة المال. وفي حالات أخرى، تحل إرادة اللذة محل إرادة المعنى المحْبِطة. وهذا هو السبب في أن الاحباط الوجودي ينتهي غالبا بالتعويض الجنسي. ونستطيع أن نلاحظ في تلك الحالات، أن اندفاع الطاقة الجنسية يصبح متفشيا في حالات الفراغ الوجودي.

ونجد أموراً مماثلة في الحالات العصابية. فهناك أنماط معينة من ميكانزمات التغذية الراجعة وتكوينات الدائرة المفرغة سوف نتطرق اليها فيما بعد. الا أننا نستطيع أن نلاحظ من وقت لآخر أن هذا «البحث في الأعراض المرضية» (symptomatology) قد اجتاح الفراغ الوجودي، الذي استمر في الازدهار فيه. وعند مرضي كهؤلاء، لا يكون ما نتناوله عصابا معنويا. ومع ذلك، فإننا لا ننجح في مساعدة المريض على التغلب على حالته، إذا لم نستكمل العلاج النفسي بعلاج بالمعنى. فلكي نملأ الفراغ الوجودي عند المريض، ينبغي وقايته من انتكاسات أخرى. ومن ثم، فان العلاج بالمعنى لا يتضح كما أشرنا في حالات العصاب المعنوي المنشأ فقط، ولكنه يتضح أيضاً في حالات العصاب النفسي المنشأ، وبخاصة في حالات العصاب النفسي – جسمي (أو كما يعرف أحيانا ب «العصاب الكاذب» (pseudo-neurosis). وفي ذلك تصدق عبارة «ماجدة آرنولد» من أن «أي علاج، بصرف النظر عن محدداته، ينبغي أن يكون بشكل ما علاجاً بالمعنى» [7] .

والآن فلنفكر فيما يمكن أن نفعله إذا كان المريض يسأل عن معنى حياته.

معنى الحياة

إني لأشك فيما اذا كان طبيب يستطيع الإجابة على هذا السؤال بعبارات عامة. ويرجع ذلك إلى أن معنى الحياة يختلف من شخص لآخر، وعند الشخص الواحد من يوم ليوم، ومن ساعة إلى أخرى. اذن، فان ما يشغل بالنا ليس هو معنى الحياة بصفة عامة، ولكن الذي يهمنا هو المعنى الخاص للشخص عن الحياة في وقت معين. فوضع السؤال في عبارات. عامة أشبه بسؤال نوجهه إلى بطل من أبطال الشطرنج حين نطلب منه أن يعين أفضل حركة أو أفضل طريقة في العالم لنقل قطع الشطرنج. والجواب ببساطة أنه لا يوجد مثل ذلك الشيء كحركة أفضل أو حتى كحركة جيدة دون أن تكون ذات علاقة بموقف معين في مباراة معينة ودون أن تكون ذات علاقة بالشخصية المميزة للاعب الخصم. يصدق ذلك أيضاً على الوجود الإنساني. لذا ينبغي ألا نبحث عن معنى مجرد للحياة. فلكل فرد مهنته الخاصة أو رسالته الخاصة في الحياة التي تفرض عليه مهاماً محدودة عليه أن يقوم بتحقيقها، وفي ذلك لا يمكن أن يحل شخص محل شخص آخر، كما أن حياته لا يمكن أن تتكرر. ومن ثم، تعتبر مهمة أي شخص في الحياة مهمة فريدة مثلما تعتبر فرصته الخاصة في تحقيقها فريدة كذلك.

فطالما أن كل موقف في الحياة يمثل تحديا للإنسان كما يمثل مشكلة بالنسبة له تتطلب منه أن يسعى إلى حلها، فان السؤال عن معنى الحياة قد يصبح غير ذي موضوع من الناحية الواقعية. وأخيراً، ينبغي ألا يسأل الانسان عن معنى حياته وانما على الفرد أن يدرك أنه هو الذي يُوَجَّه السؤال اليه. وباختصار، فان كل انسان يجري سؤاله بواسطة الحياة نفسها؛ وأنه لا يستطيع أن يجيب الا الى الحياة وذلك عن طريق الاجابة عن حياته ذاتها؛ فهو يستطيع أن يستجيب الى الحياة عن طريق الافصاح عن مسؤوليته والتعبير عنها. وهكذا، فان العلاج بالمعنى يرى في «الالتزام بالمسؤولية» (responsibleness) الجوهر الحقيقي للوجود الإنساني.

جوهر الوجود

ان التأكيد على الالتزام بالمسؤولية جزء لا يتجزأ من العلاج بالمعنى وهو ينعكس في الضرورة الملحة اليه، وهذا ما يتمثل في العبارة التالية: «وهكذا تعيش كما لو أنك كنت تعيش بالفعل للمرة الثانية وكما لو أنك قد عملت على نحو خاطئ في المرة الأولى مثلما تفعل الآن!». ويبدو لي أنه لا يوجد شيء يستطيع أن يستثير احساس الفرد بالالتزام بالمسؤولية أكثر من هذا المبدأ، الذي يدعوه الى أن يتخيل أولاً أن الحاضر ماض، وثانياً، أن الماضي ربما يخضع أيضاً للتغير والتحسن. وتلك قاعدة سلوكية تواجه الانسان بما في الحياة من تناه وكذلك بما فيها من نهائية مما يحققه لحياته ولنفسه على حد سواء.

أن العلاج بالمعنى يحاول أن يجعل المريض واعياً كل الوعي بالتزامه بمسؤوليته؛ ولذلك يجب أن نترك له حرية اتخاذ القرار بشأن إدراكه لنفسه كشخص مسؤول يتحمل مسؤوليته باختياره لأهدافه في الحياة. ذلك هو السبب في أن المعالج بالمعنى هو آخر من يتوق من بين كل المعالجين النفسيين إلى فرض احكام قيمية على المريض، لأنه لا يسمح أبداً للمريض بان يوكل إلى المعالج مسؤولية إصدار الأحكام واتخاذ القرارات.

إنها لمهمة المريض إذن أن يقرر ما إذا كان عليه أن يفسر مهام حياته على اساس كونه مسؤولا أمام المجتمع أو أمام ضميره. الا أن الغالبية من الناس يعتبرون أنفسهم مسؤولين ومحاسبين أمام الله سبحانه وتعالى، وهم بذلك يمثلون أولئك الأشخاص الذين لا يفهمون حياتهم على أساس المهمة المقررة فم فحسب ولكنهم يفهمونها أيضاً في ضوء ما يقرره السادة ممن يكلفونهم بهذه الأعمال.

وليس العلاج بالمعنى تعليماً ولا وعظاً. فهو بعيد عن التفكير المنطقي وبعيد كذلك عن النصائح الأخلاقية. فالدور الذي

يلعبه المعالج بالمعنى، إذا تكلمنا بشكل مجازي، أقرب إلى دور اخصائي العيون منه إلى الرسام: فالرسام يحاول أن ينقل الينا صورة عن العالم كما يراها هو، في حين أن طبيب العيون يحاول أن يمكننا من أن نرى العالم كما هو في الواقع. وعلى هذا النحو يتحدد دور المعالج بالمعنى بمد المجال البصري للمريض وتوسيعه لكي يصبح المريض واعيا بالمجال الكلي للمعنى وما ينطوي عليه من قيم ويكون قادرا على رؤيته والتبصر به. فالعلاج بالمعنى ليس بحاجة اذن الى ان نفرض أي أحكام على المريض، لأن الحقيقة تفرض نفسها بالفعل وفي الواقع ولا تحتاج إلى تدخل أو وساطة.

وحين نعلن أن الأنسان مخلوق مسؤول، وينبغي أن يحقق المعنى الكامن لحياته، أود أن أؤكد على أن المعنى الحقيقي للحياة إنما يوجد في العالم الخارجي أكثر مما هو في داخل الانسان أو في تكوينه النفسي ذاته، كما لو أننا في نظام مغلق. وتعني هذه العبارة أن الهدف الحقيقي للوجود الإنساني لا يمكن أن يوجد فيما يسمى بتحقيق الذات. فالوجود الإنساني هو بالضرورة تسام بالذات وتجاوز لها أكثر من أن يكون تحقيقاً للذات. وتحقيق الذات ليس هدفاً ممكناً على الاطلاق؛ وذلك لسبب بسيط وهو أنه بقدر ما يسعى الانسان اليه، بقدر ما يخفق في الوصول اليه. والى الحد الذي يلتزم فيه الانسان بتحقيق معنى لحياته، فانه بهذا الحد أيضاً يحقق ذاته. وبعبارة أخرى، لا يمكن التوصل الى تحقيق الذات إذا جعله الشخص كغاية في حد ذاته، ولكن يكون هذا ممكناً إذا نظر اليه كأثر جانبي للتسامي بالذات فقط.

فلا يجوز أن نعتبر العالم الخارجي كمجرد تعبير عن ذات الفرد. كما أنه لا يجوز أن نعتبر العالم. كمجرد أداة، او كوسيلة لغاية تحقيق الفرد لذاته. في كلتا الحالتين، تتحول «النظرة إلى العالم» (Weltanschauung) إلى «انتقاص من قدر هذا العالم» (Weltentwertung).

إلى هنا نكون قد أوضحنا أن معنى الحياة يتغير دائماً، ولكنه لا يتوقف أبداً عن أن يكون موجوداً. ووفقاً للعلاج بالمعنى، نستطيع أن نكتشف هذا المعنى في الحياة بثلاث طرق مختلفة: (١) بواسطة الاتيان بفعل وعمل، (٢) بواسطة أن نخبر قيمة من القيم، (٣) وبواسطة أن نعيش حالة من المعاناة. بالنسبة للطريقة الأولى، وهي طريقة التحقيق أو الإنجاز، فهي واضحة تماماً. أما الطريقة الثانية والثالثة، فهما بحاجة إلى مزيد من الايضاح.

تتمثل الطريقة الثانية للتوصل إلى معنى في الحياة في أن يخبر الفرد شيئاً ما، كعمل من الأعمال المتصلة بالطبيعة أو الثقافة؛ وكذلك في أن يخبر شخصاً ما، أي بواسطة الحب.

معنى الحب

الحب هو الطريقة الوحيدة التي يدرك بها الانسان كائناً إنسانياً آخر في أعمق أغوار شخصيته. فلا يستطيع انسان أن يصبح واعياً كل الوعي بالجوهر العميق لشخص آخر الا إذا أحبه. فبواسطة الفعل الروحي للحب، يتمكن الانسان من رؤية السمات والمعالم الأساسية في الشخص المحبوب؛ بل ان الانسان يرى أكثر من ذلك، ما هو كامن في الأخر؛ يري ما ينبغي أن يتحقق مما لم يتحقق فيه بعد. وعلاوة على ذلك، فإن الشخص المحب بحبه انما يمكن الشخص المحبوب من تحقيق امكاناته. فبواسطة تبصيره ليكون على وعي بما يمكن أن يكون عليه وبما ينبغي أن يصير عليه، انما يجعل مما كان كامنا من هذه الامكانات حقيقة واقعة.

ونحن لا نفسر الحب، وفقا للعلاج بالمعنى، على أنه مجرد ظاهرة ثانوية مصاحبة [8] للحوافز والغرائز الجنسية في ضوء ما يعرف بالإعلاء. ذلك أن الحب ظاهرة أولية اساسية شأنها شأن الجنس والجنس، من الناحية السوية، اسلوب للتعبير عن الحب.

فالجنس تعبير مبرأ من الإثم، بل إنه تعبير مقدس، طالما أنه أداة للحب. لذا لا يفهم الحب على أنه مجرد أثر جانبي للجنس ولكن يفهم على أنه طريقة للتعبير عن الخبرة بتلك «المعية القصوى» (Ultimate togetherness)، التي تسمى بالحب.

أما الطريقة الثالثة للتوصل إلى معنى في الحياة فتتمثل في المعاناة.

معنى المعاناة

حينما يجد شخص نفسه في موقف لا مفر منه، وحينما يكون على شخص أن يواجه مقدرا لا يمكن تغييره، كأن يكون مرضاً عضالا مثل السرطان – عندئذ فقط يكون أمام الشخص فرصة أخيرة لتحقيق القيمة العليا، لتحقيق المعنى الأعمق وهو معنى المعاناة. والمهم فوق كل ذلك هو الاتجاه الذي نأخذه نحو المعاناة والاتجاه الذي نجعل به معاناتنا فوق أنفسنا.

ولأستشهد بمثال واضح: لجأ إليّ ذات مرة طبيب متقدم في العمر كان بعمل ممارساً عاماً وكان لجوؤه طلبا للاستشارة بسبب ما كان يعانيه من اكتئاب شديد. ذلك أنه لم يستطع أن يتغلب على مشكلة فقدانه لزوجته التي ماتت منذ عامين والتي كان يحبها فوق كل شيء في هذه الدنيا. والآن سألت نفسي كيف يمكن أن أساعده؟ وما الذي على أن أقوله له؟ رأيت أن أحجم عن أن أقول له أي شيء، وانما واجهته بالسؤال التالي: «دكتور، ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أنك توفيت أنت أولاً، وأن زوجتك ظلت باقية على قيد الحياة بعد وفاتك؟» قال الطبيب بنبرة تعكس إحساسه بالدهشة والألم: «كان هذا سيكون لها أمراً رهيباً للغاية، اذ كانت ستحس باللوعة والمعاناة!»، عندئذ أجبت: هكذا تري، يا دكتور، انها كانت ستعيش تلك الآلام وهذه المعاناة، وأنك أنت الذي عشت، من أجلها تتحمل المعاناة، وعليك الآن أن تضحي من أجلها بالبقاء وبتقديس ذكراها، ولم ينطق الزائر بكلمة واحدة ولكنه صافحني وانصرف بهدوء. إن المعاناة تتوقف عن أن تكون معاناة بشكل ما في اللحظة التي تكتسب فيها المعاناة معنى، مثل معنى التضحية.

ومن الطبيعي، أن هذا لم يكن علاجا بالمعنى الصحيح، طالما أن يأس الزائر – أولاً – لم يكن مرضاً، وثانياً، لأني لا أستطيع أن أغير من قدره، لأني لا أستطيع أن أعيد الحياة لزوجته. لكني في تلك اللحظة قد نجحت في تغيير اتجاهه نحو قدره غير القابل للتغيير، حيث أنه قد صار منذ ذلك الوقت فصاعدا قادراً على الأقل على أن يرى معنى في معاناته. فمن المبادئ الأساسية للعلاج بالمعنى أن الاهتمام الرئيسي عند الانسان لا يكون هو الحصول على اللذة أو تجنب الألم، وانما يكون بأن يرى معنى في حياته. وهذا هو السبب في أن الانسان مستعد للمعاناة، شريطة أن يكون لمعاناته معني.

ولا حاجة بنا للقول بأن المعاناة لا يكون لها معنى الا إذا كانت ضرورية، ولا غنى عنها على الاطلاق؛ ففي حالة مرض السرطان مثلا اذا كان من الممكن علاجه عن طريق عملية جراحية فلا يجوز أن يتحمل المريض قسوة المعاناة سيراً بها في طريق الآلام نحو خاتمة محتومة فليس في هذا أي بطولة وانما هو مجرد «ماسوكية» أو تعذيب للذات. أما إذا كان الطبيب لا يستطيع أن يعالج المرض ولا أن يخفف من آلام المريض، فانه ينبغي أن يستخدم مقدرة المريض على تحقيق معنى لمعاناته. وفي ذلك نجد أن العلاج النفسي التقليدي يهدف إلى إحياء مقدرة الشخص على العمل وعلى الاستمتاع بالحياة؛ في حين أن العلاج بالمعنى وان كان يتضمن كل هذا، الا أنه يمضي الى ما هو أبعد منه وذلك عن طريق جعل المريض يستعيد – إذا لزم الأمر – مقدرته على المعاناة، وبالتالي يجد معنى حتى في المعاناة.

وفي هذا الصدد تعلن «اديث فييسكويف – جولسون»، استاذة علم النفس بجامعة بيردو، بقوة في مقالتها عن العلاج

بالمعنى [9]، أن «فلسفتنا المعاصرة عن الصحة النفسية تؤكد الفكرة بأن الناس ينبغي أن يكونوا سعداء، وبأن انعدام السعادة عرض من أعراض سوء التكيف، وبأن نظاماً قيمياً كهذا ربما يكون مسؤولاً عن الحقيقة بأن عبء عدم السعادة مما لا مفر منها يتزايد بواسطة عدم السعادة الناجمة عن كون الفرد غير سعيد».

وفي دراسة أخرى تعبر هذه العالمة النفسية عن أملها في أن العلاج بالمعنى «ربما يعين على ايقاف اتجاهات غير صحية معينة موجودة في الثقافة المعاصرة للولايات المتحدة الأمريكية، حيث لا تتاح أمام الشخص المتألم الا فرصة ضئيلة للغاية لكي يكون فخوراً بمعاناته وكي يعتبرها مدعاة للفخار وليست مدعاة للخزي لأنه بالإضافة إلى كونه غير سعيد فانه فوق هذا يشعر بالخزي والعار من كونه غير سعيد» [10].

وهناك مواقف قد يُحْرم فيها الانسان من فرصة مزاولته لعمله أو من الاستمتاع بحياته، ولكن الذي لا يمكن استبعاده أبداً هو حتمية المعاناة. فاذا تقبلنا تحدي المعاناة بشجاعة، كان للحياة معنى حتى اللحظة الأخيرة، وتحتفظ الحياة بقوة بهذا المعنى حتى النهاية. وبعبارة أخرى، فان معنى الحياة هو معني مطلق غير مشروط لأنه يتضمن كذلك المعنى الكامن للمعاناة.

وأذكر بالمناسبة تلك الخبرة التي ربما كانت أعمق خبرة عشتها في معسكر الاعتقال. إذ لم يزد عدد الأشخاص الذين بقوا على قيد الحياة في المعسكر عن واحد من كل عشرين شخصاً، كما يمكن التحقق من ذلك بسهولة عن طريق الاحصاءات الدقيقة. وقد بدأ بالنسبة لي أنه من غير الممكن حتى انقاذ المخطوط الخاص بكتابي الأول والذي خبأته في معطفي حينما وصلت إلى معسكر آوشويتز. لذا، كان عليّ أن أتحمل فقدان ابني الروحي وأن أتغلب على هذه المحنة. وترائي لي في ذلك كما لو أنه لن يبقى لي في هذه الحياة أي شيء أو أي شخص؛ لا ابن بالجسد ولا ابن بالروح! وهكذا كان عليّ أن أواجه السؤال الهام وهو ما إذا كانت حياتي تحت تلك الظروف لها معنى أم خالية من المعني تماماً.

لم ألاحظ حينذاك أن إجابة على هذا السؤال الذي كنت اتصارع معه بعنف كانت مختزنة بالفعل عندي، وأنه سرعان ما سأتوصل إلى هذه الإجابة فيما بعد. هذه كانت حالتي حينها كان عليّ أن أسلم ملابسي وأن أرث بدلاً منها خرقا بالية لنزيل أرسلوه بالفعل إلى حجرة الإعدام بالغاز فور وصوله إلى محطة السكك الحديدية في آوشويتز. وبدلاً من الصفحات الكثيرة لمخطوطي، عثرت في جيب المعطف الذي أخذته حديثاً على صفحة واحدة ممزقة تحوي بعض الصلوات. كيف أقوم بتفسير هذه الصدفة على أنها تحد لكي أعيش أفكاري بدلاً من مجرد وضعها على الورق؟

وأتذكر أنه بعد فترة وجيزة، بدا لي أني سأموت في المستقبل القريب. الا أنه في هذا الموقف الحاسم، كان اهتمامي مختلفاً عن اهتمامات معظم زملائي. فكان السؤال الذي يعنيهم: «هل سنبقى أحياء بعد المعسكر؟ لأنه، إذا لم يكن الأمر كذلك، فكل هذه المعاناة بلا معنى». أما السؤال الذي كان يشغلني أنا، فهو: «هل لكل هذه المعاناة، ولهذا الموت من حولنا، معنى؟ لأنه، إذا لم يكن الأمر كذلك، فلن يكون هناك معنى للبقاء، لأن الحياة التي يتوقف معناها على تلك الأحداث العارضة – مثل ما إذا كان السجين سوف يفر من المعسكر أم لا – لا تكون جديرة بالعيش على الإطلاق».

المشكلات الكلينيكية الكبرى
(META-CLINICAL PROBLEMS)

يواجه الطبيب، بشكل متزايد، بالسؤالين التاليين: ما الحياة؟ وما المعاناة برغم كل شيء؟ والواقع أن أغلب المرضى الذين

يستشيرون الطبيب النفسي يواجهونه بمشكلات انسانية أكثر مما يواجهونه بأعراض عصابية. وكثيرون ممن يعرضون أنفسهم على الطبيب النفسي كانوا في الماضي يلجؤون إلى أحد رجال الدين؛ الا أنهم الآن يرفضون غالباً أن يسلموا أنفسهم لرجل دين، وبذلك نجد الطبيب النفسي يواجه الآن بمشكلات فلسفية أكثر مما يواجه بصراعات انفعالية.

المسرحيات النفسية القائمة على العلاج بالمعنى (Logodrama) (اللوجودراما)

أود أن استشهد بالمثال التالي: ذات مرة، حُولت إلى عيادتي سيدة بعد إقدامها على محاولة للانتحار، وكانت أما لولد توفي عن عمر يناهز الإحدى عشر عاماً. دعاها زميلي الدكتور «كوكوريك» لكي تنضم إلى مجموعة علاجية. وحدث أني دخلت إلى حجرة العيادة التي يجري فيها علاج بالمسرحيات النفسية. وكانت حينئذ تحكي قصتها – فقالت إنها عند موت ولدها، تُركت وحيدة مع ولد آخر أكبر منه سنا، وكان كسيحا يعاني من شلل الأطفال. وكان هذا الولد المسكين يتنقل على كرسي متحرك. الاّ أن الأم قد تمردت ضد قدرها. ولكنها حين حاولت أن تنتحر مع ابنها، كان هذا الابن الكسيح هو الذي منعها من أن تفعل ذلك، ذلك أنه أحب أن يبقى على قيد الحياة! فلقد ظلت الحياة، بالنسبة له، ذات معنى. ولماذا لم تكن هكذا بالنسبة لأمه؟ كيف يمكن أن يظل لحياتها معني؟ وكيف نستطيع أن نساعدها على أن تصبح واعية بهذا المعنى؟

اشتركت في المناقشة بطريقة ارتجالية، وأخذت أسأل سيدة أخرى في المجموعة. سألتها كم عمرها فأجابت: «ثلاثين عاما». قلت لها: «لا، ليس عمرك ثلاثين عاماً ولكنه ثمانون عاماً ثم أنك ترقدين على فراش الموت. والآن عليك أن تعودي بذهنك إلى ماضي حياتك – كانت حياتك رغم أنها ذاخرة بالنجاح المادي والمركز الاجتماعي الا أنها كانت خالية من أطفال لك». ثم دعوتها إلى أن تتخيل شعورها في هذا الموقف. «ماذا ستفكر في هذا الموقف؟ ما الذي ستقوله لنفسها؟» ولأقتبس ما قالته بالفعل من واقع شريط جرى تسجيله أثناء تلك الجلسة. «عجباً، لقد تزوجت من مليونير، وكانت حياتي سهلة ذاخرة بالثروة، وأخذت أعب من الحياة! صرت أداعب الرجال وأعذبهم! لكن عمري الآن، ثمانون عاماً، وليس لدى اطفال. واني الآن لأنظر إلى حياتي الماضية كامرأة عجوز، ولا أستطيع أن أرى من أجل ماذا كانت كل حياتي، وفي الواقع، كما ينبغي أن أقول، أن حياتي كانت خيبة وفشلاً!».

بعد ذلك دعوت أم الولد الكسيح لكي تتخيل نفسها، كما فعلت السيدة الأولى، تعود بذاكرتها إلى حياتها الماضية. ولنستمع إلى ما قالته كما هو مسجل على الشريط: «لقد كنت أتوق إلى أن يكون عندي أطفال، وقد تحققت هذه الرغبة لي، ورزقت بولدين: ولكن ولداً منهما قد توفي، وكان الأخر ولداً كسيحاً كان ينبغي أن أرسله إلى إحدى المؤسسات هذا إذا لم أكن قد اهتممت برعايته. ولكن رغم أنه كسيح وعاجز، الا أنه ولدي قبل كل شيء. لذا كان عليّ أن أوفر له حياة مكتملة طيبة ملائمة له، وأن اجعل منه كائناً إنسانياً أفضل». عند هذه اللحظة، انفجرت السيدة بالدموع والبكاء، واستمرت تقول: «بالنسبة لي، أستطيع أن أجول بذاكرتي في حياتي الماضية برضاء, وقناعة وسلام – لأني أستطيع أن أقول أن حياتي كانت ذاخرة بالمعنى، وأني قد حاولت جاهدة تحقيق هذا المعنى فيها؛ لقد بذلت قصارى جهدي – لقد بذلت كل ما في جهدي في سبيل ولدي. فلم تكن حياتي فشلاً!» لقد كانت تنظر إلى حياتها كما لو كانت تنظر اليها من على فراش الموت؛ ولكنها صارت فجأة قادرة على أن ترى معنى في حياتها يتضمن حتى كل معاناتها. وعلى هذا النحو صار واضحاً كذلك أن حياة قصيرة الأمد كحياة ولدها المتوفي على سبيل المثال، يمكن أن تكون بالنسبة اليها غنية بالبهجة والحب، وأن هذه الحياة يمكن أن تتضمن معنى أكثر من حياة استمرت ثمانين عاماً.

وانتقلت بعد فترة وجيزة إلى سؤال آخر، مخاطباً المجموعة ككل. وكان موضوع السؤال عن القرد الذي يستخدم في تجارب

للتوصل إلى مصل لشلل الأطفال، وعن أنه لهذا السبب يتعرض للهلاك مراراً، وعما إذا كان للقرد أن يكون قادراً على أن يدرك معنى لمعاناته. وبالإجماع، أجابت المجموعة بأن القرد ليس في مقدوره ذلك بطبيعة الحال، فبسبب إدراكه المحدود القاصر لا يستطيع أن يدخل في عالم الانسان، وهو العالم الوحيد الذي يمكن فيه إدراك المعاناة وفهمها. ثم مضيت قدماً بالسؤال التالي: «وماذا عن الأنسان؟ وهل أنتم متأكدون من أن العالم الانساني مرحلة نهائية في تطور الكون؟ ألا ترون أنه لا يزال يوجد بُعد آخر ممكن، وهو عالم ما وراء عالم الانسان – وهو عالم نجد فيه إجابة على السؤال الخاص بالمعنى الغائي للمعاناة الانسانية؟

المعنى الغائي
(THE SUPRA-MEANING)

يتجاوز المعنى الغائي بالضرورة ما لدى الإنسان من مقدرات عقلية محدودة ويسمو عليها؛ وحين نتكلم عن العلاج بالمعنى في هذا السياق فإننا نتكلم عن المعنى الغائي. وليس المطلوب من الانسان أن يتحمل ما في الحياة من لا معني كما يذهب بعض الفلاسفة الوجوديين؛ ولكن المطلوب أن يتحمل عجزه وعدم مقدرته عن إدراك امتلاء الحياة بالمعاني (Meaningfulness) إدراكا رشيدا بلغة عقلانية منطقية. فالمعنى أعمق من المنطق (Logos is deeper than logic).

ان الطبيب النفسي الذي يتجاوز مفهوم المعنى الغائي، يجد نفسه مرتبكا آن آجلاً او عاجلاً مع مرضاه وعملائه على نحو أشبه بما حدث لي حينها وجهت لي ابنتي التي تبلغ من العمر ستة أعوام السؤال التالي: «لماذا نتكلم عن الإله الطيب؟» قلت لها: «منذ عدة أسابيع، كنت تعانين من الحصبة، ثم بعث اليك الإله الطيب بالشفاء التام». لكن الطفلة الصغيرة لم تكن مقتنعة بل ردت على تلك الاجابة بمثلها: «حسناء ولكن لا تنسي من فضلك يا أبي: أنه هو الذي أرسل الحصبة لي».

الا أنه، حينما يكون المريض واقفا على أرض صلبة من الاعتقاد الديني، فلا يمكن أن يكون هناك اعتراض بشأن الاستفادة من التأثير العلاجي لمعتقداته الدينية مما ينبع من المصادر الروحية ويعتمد عليها، ولكي يفعل ذلك، فان الطبيب النفسي قد يضع نفسه في مكان المريض.

وهذا، على سبيل المثال، هو ما فعلته بالضبط ذات مرة، حينما جاءني رجل من رجال الدين وحكي لي قصته، لقد فقد زوجته الأولى واطفالها الستة في معسكر الاعتقال في آوشويتز حيث جرى إعدامهم بالغاز. أما زوجته الثانية فقد كانت عاقراً. وقد صرحت في هذا الصدد، أن الإنجاب لم يكن المعنى الوحيد للحياة، لأن الحياة ذاتها سوف تصبح عندئذ بلا معنى، وأن الشيء الذي يكون في حد ذاته بلا معنى لا يمكن ارجاع المعنى اليه لمجرد استبقائه وحفظه. إلا أن رجل الدين هذا قد قيم ورطته كشخص متزمت على أساس من اليأس فقد سيطر عليه وراعه أن لا يوجد ابن له يتلو عليه صلاة الموتى بعد موته.

لكني لم أتخل عن ذلك الموقف؛ فقد قمت بمحاولة أخيرة لمساعدته عن طريق سؤاله عما إذا كان يأمل أن يرى أولاده مرة ثانية في السماء. أعقب سؤالي انفجاره بالبكاء والدموع، وبدا جليا السبب الحقيقي ليأسه: لقد أوضح أن اطفاله، منذ أن ماتوا كشهداء أبرياء، يستحقون الجنة، ولكن بالنسبة لنفسه فانه لا يتوقع، كرجل مسن متورط في الخطيئة، أن يحظى بنفس المكانة. لم أكتف بذلك بل رددت عليه بحجة أخرى: «اليس من المعقول أن يكون هذا بالضبط هو معنى بقائك حياً بعد أبنائك، بحيث إنك سوف تتطهر خلال سنوات المعاناة هذه، لكي تصبح في النهاية أيضاً، رغم أنك لست بريئاً مثل أطفالك، مستحقاً للحاق بهم في الجنة؟ لذا، فان أي معاناة من معاناتك لن تذهب هباء». ولأول مرة منذ سنوات كثيرة لقى

ارتياحاً من معاناته من خلال النظرة الجديدة التي تمكنت من أن أبصره بها.

زوال الحياة

هناك أشياء يبدو أنها تنتزع المعنى من الحياة الانسانية؛ ومن بين هذه الأشياء المعاناة وفقدان الحياة، كما أن من بينها الضيق والموت. واني لا أَكلّ أبداً من القول بأن الجوانب الوقتية القابلة للزوال من الحياة في الحقيقة هي الإمكانات الكامنة لدى الانسان؛ غير أنها حالما تتحقق، فإنها تصير في تلك اللحظة ذاتها حقائق واقعية؛ وبذلك يتم انقاذها ويتم تسليمها للماضي، حيث تكون صيانتها وتكون المحافظة عليها من الزوال. فلا شيء يضيع في الماضي بطريقة يتعذر معها استرداده، بل إن كل شيء يُحفظ فيه ويُصان بطريقة تتعذر معها إزالته أو محوه.

لذا، فان زوال وجودنا لا يحتم أن يجعل وجودنا هذا بلا معنى. لكنه يحدد التزاماتنا بالمسؤولية واستعدادنا لتحملها؛ ذلك أن كل شيء يتوقف على تحقيقنا لما عندنا من إمكانات مؤقتة سمتها الأساسية أنها قابلة للزوال. ويسعى الانسان دائماً ليقرر اختياراته المتعلقة بذلك القدر الهائل من الإمكانات الحالية – فمنها ما سيذهب الى الانتهاء والعدم ومنها ما سوف يتحقق ويعيش؟ وهناك من الاختيارات ما يصير حقيقة إلى الأبد، «كأثر قدم أبدي على رمال الزمان»؟ فينبغي أن يقرر الانسان في كل لحظة، ما سيتركه من أثر لوجوده وذكريات لحياته سواء أكانت آثاراً حسنة أو سيئة وذكريات عطرة أو عكس ذلك.

ولا ريب، أن الأنسان يهتم عادة بالمجال السطحي من الزوال دون غيره وبذلك يغفل الماضي بما فيه من تخزينات هائلة، حيث أنقذ أفعاله ومباهجه وكذلك معاناته وحيث صانها. ولا شيء من الماضي يمكن إزالته وإبطاله كما لا يمكن عمل شيء بمعزل عن الماضي. وهنا ينبغي أن أقول إن الوجود الواقعي هو النوع الأرسخ للوجود.

وإذا كان العلاج بالمعنى يضع في اعتباره أن قابلية الزوال للوجود ظاهرة حتمية، فليس معنى هذا أنه أتجاه تشاؤمي ولكنه اتجاه فعالي واقعي. ولكي نوضح هذه النقطة بشكل مجازي يمكننا القول: أن المتشائمين شأنهم شأن الشخص الذي يراقب نتيجة الحائط أو التقويم المعلق على الحائط بشيء من الخوف والحزن حين يراها تتناقص اذ ينزع منها ورقة في كل يوم يمر عليه يوماً من أيام عمره، وبهذا تتضاءل نتيجة الحائط ويري عمره يتضاءل معها. ومن ناحية أخرى، فان الشخص الذي يتصدى لمشكلات الحياة بفاعلية هو أشبه بالشخص الذي يزيل كل ورقة من نتيجته ويضبرها بدقة ويحفظها بعناية بعيداً مع مثيلاتها من أوراق سابقة، وذلك بعد أن يدوّن خلفها بعض المذكرات اليومية. وهو يستطيع أن يفكر ملياً باعتزاز وبهجة في كل النفائس الغنية التي تتضمنها هذه المذكرات، في كل الحياة التي عاشها بالفعل إلى الحد الأكمل. وما الذي يشغل باله إذا لاحظ أنه آخذ في التقدم في السن؟ هل لديه أي سبب لكي يحسد الشباب الصغير السن الذي يراه، أو يتوق حنيناً إلى شبابه الذي ولي؟ ما هي الأسباب التي تجعله يحسد شاباً صغير السن؟ هل ذلك لأن الفرص المتاحة أمام الشاب تجعل المستقبل ذخراً له؟ عندئذ سوف يقول: «لا، أشكرك. فبدلاً من هذه الاحتمالات، فان عندي في ماضي حقائق واقعية، فعندي حقيقة العمل الذي عملته، وحقيقة الحب الذي أحببته، وعندي فوق هذا وذاك، حقيقة المعاناة التي عانيتها. تلك هي الأشياء التي اشعر معها بأعظم فخر واعتزاز، وهذه هي الأشياء التي لا تستطيع أن تستثير حسد الناس أو حقدهم».

العلاج بالمعنى كأسلوب

أن الخوف الواقعي، كالخوف من الموت، لا يمكن تهدئته بواسطة تفسيره تفسيراً نفسياً – دينامياً، ومن ناحية أخرى، فان

الخوف العصابي (المرضي)، كالخوف من الأماكن الفسيحة، لا يمكن علاجه بواسطة فهم فلسفي، الا أن العلاج بالمعنى قد طور أسلوباً خاصاً أو تقنية خاصة لتناول تلك الحالات أيضاً. ولكي نفهم ما يجري حينها تُستخدم هذه التقنية، نتناول كنقطة انطلاق حالة نقابلها مراراً عند المرضى النفسيين، ونعني بها «القلق التوقعي» (anticipatory anxiety). مما يميز هذا الخوف أنه يخلق تماماً ما يكون الفرد خائفاً منه [11] . فعلى سبيل المثال، الشخص الذي يكون خائفاً من احمرار وجهه عند دخوله حجرة كبيرة ومواجهته لأشخاص كثيرين، فسوف يحمر وجهه بالفعل. وفي هذا الصدد، يمكن تحويل العبارة التي تقول بأن «الرغبة أم الفكرة» إلى عبارة تقرر بأن «الخوف أبو الحدث».

وبنفس الطريقة التي يجلب بها الخوف إلى الشخص ما يخاف منه، فان «النية القسرية أو العزم القسري» (forced intention) يجعل من المستحيل تحقيق ما يبتغيه الفرد قسراً واضطراراً. هذه النية المفرطة، أو كما أسميها ب «فرط النية» (whyper-intention)، يمكن ملاحظتها خاصة في حالات العصاب الجنسي. فبقدر ما يحاول الرجل أن يظهر فحولته الجنسية، أو بقدر ما تحاول المرأة أن تستعرض قدرتها على الإمتاع الجنسي، بقدر ما تقل قدرتهما على تحقيق النجاح الذي يبتغيانه. فلابد للذة أن تكون، بل ينبغي أن تكون، أثراً جانبياً أو حصيلة ثانوية، وهي تفسد وتتبدد حين تغدو وبقدر ما تغدو كغاية في حد ذاتها.

وعلاوة على النية المفرطة كما وصفتها عاليه، فان الانتباه المفرط، او كما يسمى ب «فرط التفكر» (-hivper reflection) في العلاج بالمعنى، قد يكون أيضاً مما يؤدي إلى المرض. ويوضح التقرير الكلينيكي التالي ما أعنيه في هذا الصدد: شابة حضرت إلى تشكو من برودها الجنسي. وقد أوضح تاريخ الحالة أنها في طفولتها قد تعرضت لبعض التناول الجنسي من أبيها. ومع ذلك، فان هذه الخبرة لم تكن في حد ذاتها كما يبدو هي مصدر الخبرة الصدمية التي تمخضت في النهاية عن عصابها الجنسي. فهذه الحالة قد تحولت، من خلال قراءة الكتابات الشائعة عن التحليل النفسي، إلى أن هذه المريضة قد عاشت كل الوقت في التوقع المخيف للضريبة التي ستدفعها يوماً ما جزاء خبرتها الصدمية. وقد تمخض هذا القلق التوقعي عن نية مفرطة لتأكيد أنوثتها، وكذلك عن انتباه مفرط متمركز حول ذاتها بدلاً من أن يكون متمركزاً حول قرينها. وكان في هذا ما يكفي لتعويق قدرة المريض على الوصول إلى الخبرة الذروية للذة الجنسية وذلك لأن الشبق الجنسي قد صار موضوع النية، وموضوع الانتباه على حد سواء، بدلاً من أن يظل نتيجة غير مقصودة لاهتمام غير مقصود بالشريك. وبعد أن خضعت لعلاج بالمعنى قصير المدى، تخلت عن تفكرها المصحوب بانتباهها وعزمها المفرطين بشأن قدرتها على أن تخبر ذروة الامتاع الجنسي. فحينما جرت إعادة تركيز انتباهها نحو الموضوع الملائم، وهو الشريك، أقر الإمتاع الجنسي نفسه تلقائياً [12] .

واستنادا على هذه الحقيقة ذات الشقين، بأن الخوف يجيب الى الشخص في الحقيقة ما يخاف منه وبأن فرط النية يحول دون تحقيق الفرد لما يبتغيه، يقيم العلاج بالمعنى طريقته التي تعرف ب «النية المناقضة ظاهرياً» أو طريقة «القصد العكسي» (paradoxical intention). وفقاً لهذه الطريقة تجري دعوة المريض بالخواف (الفوبيا) لكي ينوي، حتى ولو لدقيقة فقط، على ذلك الذي يخيفه على وجه التحديد.

والان فلأضح بشرح إحدى الحالات: لجأ إليّ طبيب شاب طلباً لاستشارتي بسبب خوفه من التعرق. فحينما يتوقع تصبب العرق منه، فان هذا القلق التوقعي كان كافياً للإسراع بإفراز العرق. ولكي أقطع الطريق أمام تكوين هذه الدائرة المفرغة نصحت المريض، في حالة عودة تصبب العرق، بأن يعتزم بصدق على أن يظهر للناس مقدار العرق الذي يتصبب منه. بعد أسبوع عاد ليقرر أنه حينما كان يلتقي بأي شخص يفجر فيه قلقه التوقعي، كان يقول لنفسه: «لقد تصببت عرقاً بمقدار قليل فقط من قبل، ولكني الآن سوف أتصبب بمقدار كبير!» وكانت النتيجة أنه، بعد المعاناة من خوفه المرضي لمدة أربعة

سنوات كاملة، كان قادراً بعد جلسة واحدة على أن يحرر نفسه نهائياً من هذا الحواف في غضون أسبوع واحد.

يلاحظ القارئ أن هذا الإجراء يقوم على إبدال اتجاه المريض بعكسه، وذلك بقدر ما يجري «إحلال والرغبة المناقضة ظاهرياً»، محل خوفه. بهذا العلاج، يجري تخليص القلق مما يدعمه، وبعبارة أخرى يجري تخليص أشرعة القلق من الرياح.

ومع ذلك، فان مثل هذا الإجراء ينبغي أن يفيد من المقدرة الإنسانية المتميزة الخاصة بالتحرر الذاتي (self-detac) الكامن في روح المرح عند الانسان. وقدرة الانسان على أن يتحرر الفرد من نفسه قدرة انسانية أساسية، وهي تتحقق حينما يجري تطبيق طريقة العلاج بالمعنى المعروفة ب «طريقة القصد العكسي». وفي نفس الوقت، يتمكن المريض من أن يضع نفسه في موقع يعلو به فوق عصابه. وفي ذلك تصدق عبارة نجدها في كتاب «جوردون أولبورت» (الفرد ودينه)[13] ، مفادها: «أن الشخص العصابي الذي يتعلم أن يضحك على نفسه قد يكون في سبيله إلى ضبط ذاته ومعالجتها، ربما إلى الشفاء». وطريقة القصد العكسي هي الصدق الأمبيريقي والتطبيق الكلينيكي لعبارة أولبورت.

ويمكن أن نستخدم مزيداً من تقارير بعض الحالات المزيد من إيضاح هذه الطريقة. وفيما يلي حالة المريض: كان يعمل كاتب حسابات، وقد تلقى علاجاً على أيدي أطباء كثيرين وفي عيادات مختلفة دون أي نجاح في العلاج. وحينما حضر الى عيادتي، كان في حالة يأس مفرط، معترفاً بأنه كان على وشك الاقدام على الانتحار. ولعدة سنوات كان يعاني من ظاهرة مرضية تعرف ب «عُقال الكاتب»[14] ، اشتدت عليه حديثاً بحيث صار في خطر من فقدان وظيفته. لذا فان علاجاً مباشراً قصير المدى يمكن أن يخفف من الموقف. عند بداية العلاج أوصاه مساعدي بأن لا يفعل الا عكس ما كان يفعله عادة؛ فبدلاً من أن يحاول الكتابة بدقة ووضوح، عليه أن يكتب بأسوأ نمط ممكن من الكتابة. ونصحناه بأن يقول لنفسه: «الآن سوف أظهر للناس كيف أني كاتب جيد ولكن رديء الخط!» وفي اللحظة التي حاول فيها عامداً أن يكتب بغير عناية، كان عاجزاً عن أن يفعل ذلك. ففي اليوم التالي قال لي: «لقد حاولت الكتابة بغير عناية وبخط رديء، ولكني ببساطة لم أستطع أن أفعل ذلك». وفي خلال ثمان وأربعين ساعة تخلص المريض بهذه الطريقة من «عقال الكاتب». وظل مبرأ من هذه الظاهرة المرضية أثناء فترة الملاحظة التي خضع لها بعد العلاج. والآن هو شخص سعيد مرة أخرى، وقادر تماماً على العمل.

وثمة حالة أخرى، تتعلق بالكلام وليس بالكتابة، أحالها اليّ زميل بقسم أمراض الحنجرة بالمستشفى البوليكلينيكي. تلك كانت أشد حالات اللجلجة في الكلام مما قابله زميلي في سنوات عمله الكثيرة. لم يحدث في حياة هذا الشخص المتلجلج أبداً، بقدر ما يتذكر ذلك، ان كان مبرأ من اضطرابه الكلامي، حتى ولو لمدة دقيقة، عدا مرة واحدة. حدث ذلك عندما كان في الثانية عشرة من عمره، وحاول ركوب سيارة دون أن يدفع ثمن التذاكر. وحينها أمسك به محصل الأجرة، اعتقد أن الطريقة الوحيدة التي يتخلص بها من هذا الموقف هي أن يستدر عطف المحصل وشفقته، ولذا حاول أن يوضح أنه ولد مسكين يتلجلج في الكلام. وفي ذلك الوقت الذي حاول فيه أن يتلجلج، لم يكن قادراً على أن يفعل ذلك. وفي الواقع، أنه قد مارس، وبدون قصد، طريقة «القصد العكسي» رغم أن هذا لم يكن لأغراض علاجية.

ومع ذلك، فان ما عرضنا له من حالات ينبغي الا يترك فينا انطباعاً بأن طريقة القصد العكسي طريقة فعالة في علاج «الحالات ذات العرض الواحد» (monosymptomatic cases) دون غيرها. فبواسطة هذه الطريقة من طرق العلاج بالمعنى، نجح مساعدي بمستشفى فيينا البوليكلينيكي في علاج حالات الوساوس القهرية (obsessive-compulsior)، بل الحالات المزمنة والأشد درجة من هذه الأمراض النفسية. وفي. ذلك أشير، على سبيل المثال، إلى حالة سيدة كانت تناهز الخامسة والستين من العمر، وقد ظلت تعاني لفترة ستين سنة من أفعال قسرية تتمثل في وساوس

الاغتسال. وكانت هذه الأفعال القسرية من الشدة بحيث أني توقعت أن القيام «بجراحة فصية»[15] هو الاجراء المتيسر الوحيد لعلاج حالتها. الا أن أحد مساعدي قد بدأ معها علاجاً بالمعني بواسطة طريقة القصد العكسي. وبعد مضي شهرين كانت السيدة المريضة قادرة على أن تزاول حياتها العادية. لقد اعترفت قبل ترددها عليّ العيادة: «أن الحياة بالنسبة لها جحيم لا يطاق». وكان من نتيجة أفعالها القسرية ووساوس الحواف من الميكروبات (bacterio-phobic obsession)، أن أعيقت تماماً وبذلك كانت في النهاية تلازم الفراش طيلة اليوم عاجزة عن أن تقوم بأي عمل من أعمال المنزل. ولا نستطيع القول على وجه الدقة أنها الآن قد برأت من هذه الأعراض، لأن الوساوس قد تراود عقلها مرة أخرى. ومع دلك، فهي قادرة على «أن تضحك عليها» كما تقول؛ وباختصار، فهي قادرة على تطبيق طريقة القصد العكسي.

يمكن أيضاً تطبيق طريقة القصد العكسي على حالات اضطرابات النوم. فالخوف من الأرق[16] يتمخض عن فرط النية في أن يخلد الانسان الى النوم، وهذه النية المفرطة بدورها تجعل المريض غير قادر على النوم.

للتغلب على هذا الخوف، أنصح المريض عادة بألا يحاول أن ينام ولكن عليه بالأحرى أن يحاول أن يفعل العكس، أي أن يظل يقظاً لأطول فترة ممكنة. وبعبارة أخرى، فان فرط النية في الخلود إلى النوم ينشأ من القلق التوقعي، فمعنى الاصرار المفرط على النوم أن الشخص سوف يعجز عن أن يخلد إلى النوم، ولهذا ينبغي أن يحل محله طريقة القصد العكسي بألا يخلد الى النوم، مما سيؤدي إلى حلول النوم في الحال.

تثبت طريقة القصد العكسي أنها أداة مفيدة في علاج حالات الوساوس القهرية والمخاوف المرضية، وخاصة تلك الحالات التي يكمن وراءها القلق التوقعي. وعلاوة على ذلك فهي أسلوب علاجي قصير المدي. ومع ذلك، فلا يجوز أن نخلص إلى نتيجة بأن ذلك العلاج القصير المدى يتمخض بالضرورة عن آثار علاجية وقتية فحسب، وفي ذلك نجد أن «أحد الأوهام الشائعة عن المدرسة الفرويدية الكلاسيكية – كما يقرر اميل جوثيل Emile A.Gutheil. هي أن استمرار فاعلية النتائج يتفق مع طول فترة العلاج»[17] . ومع ذلك فاني أجد في سجلاتي، على سبيل المثال، تقريراً عن حالة مريض استخدمت معه طريقة القصد العكسي منذ أكثر من عشرين عاماً؛ ومع ذلك، فإن الأثر العلاجي قد أثبت استمراره وبقاءه عند هذه الحالة.

ومن الحقائق البارزة أن طريقة القصد العكسي طريقة فعالة بصرف النظر عن مصدر العلة وأساسها في الحالة موضوع الدرس. يؤكد ذلك ما يقرره «اديث فييسكويف جولسون»[18] : «رغم أن العلاج النفسي التقليدي يصر على أن الممارسات العلاجية ينبغي أن تستند إلى نتائج البحث في مصدر العلة (Etiology)، فإنه من الممكن أن تكون هناك عوامل معينة تؤدي إلى العصاب إبان فترة الطفولة المبكرة، في حين أن ثمة عوامل مختلفة تماماً قد تؤدي إلى علاج العصاب إبان فترة الرشد».

فيما يعتبر غالباً على أنه سبب للعصاب، ونعني به العقد والصراعات والصدمات، هو في بعض الحالات عرض للعصاب أكثر من أن يكون سبباً له. ان الحيد البحري (سلسلة صخور قرب سطح الماء) الذي يظهر في حالة المد المنخفض ليس بكل تأكيد هو سبب المد المنخفض؛ ولكن الواقع أن المد المنخفض هو الذي يسبب ظهور الحيد البحري. والآن، ماذا نعني بمرض الانقباض السوداوي (الميلانخوليا) إن لم يكن نوعاً من المد الانفعالي المنخفض؟ مرة أخرى، إن مشاعر الذنب التي تظهر على نحو نمطي في أشكال «الاكتئاب النامي من الداخل» (endogenous depressions) والذي ينبغي ألا يختلط بالأشكال العصابية للاكتئاب!) ليست هي السبب لهذا النمط الخاص من الاكتئاب؛ ولكن العكس هو الصواب، فبقدر ما يؤدي هذا المد الانفعالي المنخفض إلى جعل مشاعر الذنب تظهر على سطح الوعي؛ فان هذا المد الانفعالي المنخفض هو

الذي يدفع هذه المشاعر الى الأمام.

أما بالنسبة للتعليل الحقيقي للأمراض النفسية، بصرف النظر عن العناصر التكوينية، سواء أكانت جسمية أم نفسية من حيث طبيعتها، فان ميكانزمات التغذية الراجعة كالقلق التوقعي تبدو على أنها العامل الأكبر الذي يكمن وراء هذه الأمراض النفسية ويوجدها. فالعرض يستجاب إليه بواسطة خوف مرضي، والخوف المرضي يفجر العرض، والعرض بد.

يدعم الخوف المرضي. ويمكن أيضا أن نلاحظ سلسلة مماثلة من الأحداث في حالات الوساوس القسرية، التي فيها يحارب المريض الأفكار التي تستحوذ عليه [19]. وهو بذلك يزيد من قوتها على إحداث الاضطراب فيه، طالما أن الضغط يعجل بأحداث ضغط مضاد. وبذلك، يتدعم العرض مرة ثانية! ومن ناحية أخرى، حالما يتوقف المريض عن محاربة وساوسه ويحاول بدلاً من ذلك أن يهزأ منها بواسطة تناولها بطريقة ساخرة، أي بواسطة تطبيق طريقة القصد العكسي، فإن الدائرة المفرغة تنكسر وتنفك، وبذلك يتضاءل العرض وينقص وفي النهاية ينمحي. وفي الحالات المحظوظة، حيث لا يوجد فراغ وجودي يستدعي العرض ويستثيره، فإن المريض سوف لا ينجح فحسب في السخرية من خوفه العصابي ولكنه سوف ينجح في النهاية في تجاهل خوافه تجاهلاً كلياً.

وكما نرى، فإن القلق التوقعي ينبغي أن يخضع لفعل مضاد بواسطة القصد العكسي؛ فرط النية وفرط التفكر ينبغي أن يُعَرضَّا لفعل مضاد بواسطة «خفض التفكر» (dereflection)؛ ومع ذلك، فإن خفض التفكر يكون في النهاية غير ممكن إلا إذا قام على أساس «إعادة توجه» (reorientation) المريض نحو عمله أو مهنته ونحو رسالته في الحياة.[20]

وعلى ذلك فان الاهتمام الذاتي عند المريض النفسي، سواء أكان هذا الاهتمام في شكل شفقة أو أسف أو في شكل ازدراء، ليس هو الذي يكسر تكوين الدائرة؛ وإنما السبيل إلى الشفاء هو الالتزام الذاتي واضطلاع الفرد مسؤولية نفسه (self-commitment).

العصاب الجماعي
(THE COLLECTIVE NEUROSIS)

لكل عصر عصابه الجماعي الخاص؛ لذا كان كل عصر بحاجة إلى علاجه النفسي الخاص لمواجهة عصابه. وفي ذلك يمكن وصف الفراغ الوجودي، الذي هو العصاب الجماعي المميز للعصر الحالي، على أنه شكل خاص وشخصي من أشكال «العدمية» (nihilism)، التي يمكن تعريفها على أنها الاعتقاد بأن الوجود منعدم المعنى أو لا معنى له. أما بالنسبة للعلاج النفسي فسوف لا يكون في مقدوره مع ذلك مواجهة هذه الحالة على نطاق جماعي إذا لم يحتفظ بنفسه متحرراً من تأثير الاتجاهات المعاصرة للفلسفة العدمية وإلا فإن العلاج النفسي سوف يمثل عرضاً للعصاب الجماعي أكثر من أن يكون العلاج المحتمل له. فالعلاج النفسي لا يعكس الفلسفة العدمية فحسب، ولكنه ينقل إلى المريض دون أن يقصد ودون أن يدرك صورة كاريكاتورية عن الإنسان أكثر من أن ينقل اليه صورة حقيقية.

فهناك، أولاً وقبل كل شيء، خطورة كامنة في الأخذ بمذهب «العدمية المشروطة» (Nothingbutness) للإنسان، وهي تلك النظرية التي تذهب إلى أن الانسان لا شيء إلا نتيجة للظروف البيولوجية والنفسية والاجتماعية، أو هو نتاج الوراثة والبيئة. فمن شأن تلك النظرة إلى الانسان أن تجعل منه كائناً آلياً، وليس كائناً إنسانياً. ومن شأن هذه «القدرية

العصابية» (neurotic fatalismn) أن تتربي وتتقوى بواسطة العلاج النفسي الذي ينكر أن الإنسان حر.

ولا ريب في أن الكائن الانساني هو شيء متناه، وأن حريته مقيدة، وليست هذه الحرية تحرراً من الظروف، ولكنها حرية اتخاذ موقف ازاء هذه الظروف. فلا شك أني لا أجد نفسي مسؤولاً عن الحقيقة بأن لدي شعر أشيب، ولكني أعتبر نفسي مسؤولاً عن الحقيقة بأني لا أذهب إلى الحلاق لكي يصبغه لي، كما تفعل السيدات. فهناك اذن قدر معين من الحرية متروك لكل شخص، حتى ولو كان هذا القدر قاصراً على اختياره للون شعره.

نقد الحتمية الشمولية

يوجه اللوم غالباً إلى التحليل النفسي على ما يعرف بمذهبه الجنسي الشمولي (pan-sexualism). واني بالأصالة عن نفسي لا شك فيها إذا كان هذا اللوم مشروعاً. ومع ذلك، ثمة شيء يبدو لي على أنه افتراض أكثر مغالطة وخطورة، ألا وهو ما أطلق عليه مصطلح «الحتمية الشمولية» (pan-determinism)، وأعني بذلك تلك النظرة إلى الانسان ما لا تضع في الاعتبار مقدرته على أن يتخذ موقفاً ازاء أي ظرف مهما كان الحال. فالإنسان ليس مشروطاً أو محتوم السلوك بصورة كلية ولكنه يقرر نفسه سواء سلم تسليماً كاملاً للظروف أو اتخذ بشأن هذه الظروف موقفاً. والانسان، بقول آخر، انما يقرر لنفسه، تسمي الغاية والنهاية «المقرر لنفسه» (self-determining) – وهذا هو جوهره. فالإنسان ليس ببساطة أمراً موجوداً، ولكنه يقرر دائماً وجوده الذي سيكون عليه، ويقرر ما الذي سوف يصير اليه في اللحظة التالية.

وقياساً إلى ذلك، فإن لكل كائن انساني حريته في أن يتغير في كل لحظة. ولذا، فإنه لا يمكننا التنبؤ بمستقبله الا داخل الإطار الواسع لمسح إحصائي يشمل جماعة كلية، ومع ذلك، فإن الشخصية الفردية تظل في أساسها غير قابلة للتنبؤ بها. فالأساس لأي تنبؤات ينبغي أن يتحدد بالشروط البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية. الا أن احدى الخصائص الأساسية للوجود الإنساني هي مقدرته على أن يرقى فوق تلك الظروف أو الشروط ويتجاوزها أو يسمو عليها، وبنفس الطريقة يتجاوز الانسان نفسه أو يسمو بها في النهائية، فالكائن الانساني هو كائن يتجاوز ذاته أو يسمو بذاته (self-transcending being).

والآن يمكنني أن استشهد بحالة الدكتور «ج». لقد كان هذا هو الرجل الوحيد الذي قابلته في كل حياتي، والذي تجرأت على أن أسميه بالكائن «المفيستوفيلي»[21]، أي إبليس أو الشيطان. كان يطلق عليه في ذلك الوقت بصفة عامة اسم «قاتل شتاينوف بالجملة»، وشتاينوف هو المستشفي الكبير للأمراض العقلية في فيينا. حينها بدأ النازيون «برنامج القتل الرحيم»[22]، أمسك بكل الخطوط في يديه، وكان متعصباً في المهمة الموكلة اليه بحيث أنه حاول ألا يدع مريضاً عقلياً واحداً ينجو من غرفة الاعدام بعد الحرب، عندما عدت إلى فيينا، وبعد أن نجوت بنفسي من هذا الإعدام في معسكر آوشوتيز، سألت عما حدث للدكتور ج. فقالوا لي: «أنه قد ألقي في السجن على أيدي الروس في إحدى زنزانات العزل في مستشفى شتاينوف. وفي اليوم التالي لسجنه ظهر باب زنزانته مفتوحاً ولم نعد نرى الدكتور «ج» مرة ثانية». وقد اقتنعت فيما بعد، مثل غيري، بأنه قد استطاع بمساعدة زملائه الهرب إلى أمريكا الجنوبية. الا أنه حدث أن لجأ الى استشارتي دبلوماسي نمساوي سابق كان قد سجن وراء الستار الحديدي لسنوات كثيرة، أولا في سيبيريا، ثم في سجن ليوبليانكا المشهور في موسكو. وبينما كنت أفحصه عصبية، سألني فجأة عما إذا كان قد حدث بالصدفة أن تعرفت على الدكتور ج. وبعد إجابتي بالتأييد استمر يقول: «لقد تعرفت عليه في سجن ليوبليانكا، حيث توفي عن عمر يناهز الأربعين، من سرطان في المثانة. الا أنه قبل موته، قد أثبت أنه أفضل زميل يمكن أن تتخيله! لقد كان يقدم السلوى والمواساة لكل شخص. وقضى حياته وفق أسمى معيار أخلاقي معنوي

يمكن تصوره وكان أحسن صديق قابلته أثناء سنواتي الطويلة في السجن!».

تلك هي قصة الدكتور ج، «قاتل شتاينوف بالجملة». فكيف يمكننا أن نجرؤ على التنبؤ بسلوك إنسان! ربما تتنبأ بحركات ماكينة، بل أكثر من ذلك، ربما تحاول أن تتنبأ بميكانزمات أو «ديناميات» النفس الإنسانية كذلك. ولكن الانسان أكثر من نَفْس (Man is more than psyche).

ومن الواضح أن الحتمية الشمولية مرض معد أصاب المربين؛ كما أنه قد أصاب الكثير من المدافعين عن الدين ممن هم على غير وعي بأنهم بهذه الطريقة يقوضون الأساس الحقيقي لمعتقداتهم. فإما الاعتراف بحرية الانسان في أن يتخذ قراراً بالتقرب إلى الله أو التباعد عنه، وكذلك إما الاعتراف بحرية الانسان في اتخاذ قرار لصالح الانسان أو ضده، وإلا فإن الدين يكون خدعة، وتكون التربية وهماً. فالحرية تتقرر بكليهما؛ وإلا فإنها عرضة لسوء الفهم.

ومع ذلك، فإن التقويم الحتمي الشمولي يؤكد أن الحياة الدينية للفرد مشروطة بالقدر الذي تعتمد فيه على خبرات الطفولة المبكرة، وأن مفهوم الله عند الفرد يتوقف على صورة الأب عنده. وخلافاً لهذه النظرة، فمن المعروف جيداً أن إبن السكير لا يكون بالضرورة هو نفسه سكيراً، وعلى هذا النحو أيضاً فان الانسان قد يقاوم التأثير الضار للصورة البشعة للأب ويقيم علاقة سليمة مع الله. بل أن أسوء صورة للأب لا تمنع الفرد من أن يقيم علاقة طيبة مع الله؛ وإنما الصحيح أن الحياة الدينية العميقة نزود الإنسان بما يعاونه في التغلب على كراهيته لوالده. ونجد على العكس من ذلك، أن الحياة الدينية الضعيفة لا تعزي بالضرورة في كل حالة إلى عوامل نمو في الفرد من طفولته [23].

فعندما نفسر الدين على أنه مجرد نتاج لديناميات نفسية، في ضوء عوامل دافعية لا شعورية، فإننا نضل السبيل ونفقد البصيرة بظاهرة لها أصالتها ولها وجودها الحق. وبهذا الفهم الخاطئ يتحول علم نفس الدين ويصير في الغالب تصوراً لعلم النفس كدين. وقد حدث هذا بالنسب لبعض مدارس علم النفس، وهي المدارس التي سعت إلى التأليه من علم النفس وطرحت عن طريقه تفسيرها لكل شيء ولكل ظاهرة.

فلسفة الطب النفسي

ليس هناك ما يمكن تصوره من حيث تأثيره الحتمي في الانسان أكثر من أن نتركه بدون أبسط درجة من درجات الحرية. ذلك أن بقية من بقايا الحرية، مهما كانت محدودة، تبقى للإنسان في الحالات العصابية وحتى الذهانية. ومعنى ذلك في الواقع، أن المحور الأعمق من شخصية المريض لا يتأثر حتى بالمرض العقلي. وبهذه المناسبة أتذكر شخصاً كان يبلغ من العمر ستين عاماً وكان يتردد على طلباً للعلاج بسبب هلوساته السمعية التي استمرت معه لسنوات طويلة. وقد وجدت نفسي حينذاك أمام شخصية محطمة. ذلك أن كل فرد في بيئته كان حينذاك يعتبره معتوها. ومع ذلك فإنه يصعب تصور ما كان يشع من هذا الشخص من فتنة خلابة ومن جمال راق! كان يود حينها كان طفلاً أن يكون قسيساً. ومع ذلك فقد كان راضياً بالبهجة الوحيدة التي كان يخبرها، وهي اشتراكه في فرقة الانشاد الديني بالكنيسة في صباح أيام الأحاد. والآن، تقول أخته التي صاحبته أنه في بعض الأحيان كان يصير متهيجاً وثائراً للغاية، الا أنه في اللحظة الأخيرة كان قادراً دائماً على أن يسترد ضبطه لذاته.

وقد صرت مهتماً بالديناميات النفسية الكامنة وراء الحالة، لأني اعتقدت أن عند هذا المريض تثبيت قوي على أخته؛ لذا سألت كيف تأتي له أن يسترد ضبطه لذاته وسألته: «لأجل من تفعل ذلك؟» هنا كانت وقفة لبضعة ثوان، ثم أجاب

المريض: «من أجل الله». وفي ذلك الوقت، تكشف عمق شخصيته عن حقيقتها، وقد أميط اللثام في قاع هذا العمر بصرف النظر عن فقر عطائه الذهني، عن حياة دينية حقيقية أصيلة.

فثمة مريض عقلي غير قابل للشفاء قد يفقد كل ما يرجي منه من نفع وفائدة، إلا أنه لا يزال يحتفظ بعزته وكرامته وقيمته ككائن انساني. وتلك هي «فلسفتي في الطب النفسي» (Psychiatric Credo). وبدونها ينبغي ألا أتصور أنه يجدر لي أن أكون طبيباً نفسياً. لأجل من؟ هل يكون هذا فقط من أجل ماكينة العقل المتعطلة التي لا يمكن اصلاحها؟ فاذا لم يكن الانسان بالفعل أكثر وأعظم من مجرد هذه الماكينة، لاستحق القتل الرحيم.

إعادة أنسنة الطب النفسي

لقد حاول الطب النفسي، لفترة زمنية كانت أطول مما يجب واستغرقت في الواقع نصف قرن من الزمان، أن يفسر العقل الانساني على أنه مجرد نظام آلي (ميكانزم)، واتجه بالتالي إلى أن يجري علاج الأمراض العقلية على أساس أنه مجرد تقنية (تكنيك). وأعتقد أن هذا الحلم قد تبدد. فما يلوح في الأفق في هذا الصدد في الوقت الحاضر، ليس هياكل للطب المتسم بسمات علم النفس (psychologised medicine)، وانما هو بالأحرى هياكل لطب نفسي إنساني النزعة (طب نفسي متأنسن) (humanised psychiatry).

ومع ذلك، فإن الطبيب الذي لا يزال يرى دوره أساساً على أنه دور الإخصائي الفني، فسوف يعترف بأنه لا يرى في مريضه شيئاً أكثر من ماكينة، بدلاً من أن يرى الكائن الانساني خلف المريض!

فالكائن الانساني ليس شيئاً واحداً بين أشياء أخرى؛ مما يحدد بعضها البعض الآخر، ولكن الانسان هو الذي يحدد في النهاية ذاته. فما يصير عليه – داخل حدود الوراثة والبيئة – إنما يكون قد حققه انطلاقا من ذاته. على سبيل المثال، في معسكرات الاعتقال – أي في هذا المعمل الحي وفي هذا المجال الاختباري – لاحظنا وشهدنا بعضا من زملائنا يسلكون كالخنازير، في حين يسلك البعض الأخر كالملائكة. ويوجد هذان النمطان من الإمكانات كلاهما بداخل الإنسان، ولكن النمط الذي يتحقق منها إنما يتوقف على ما يتخذ من قرارات ولكنه لا يتوقف على الظروف.

ان جيلنا لجيل واقعي لأننا قد توصلنا إلى أن نعرف الانسان كما هو في الواقع. ومع كل ذلك، فالإنسان هو ذلك الكائن الذي ابتدع غرف الإعدام بالغاز في أوشويتز، وبالرغم من ذلك فإنه هو أيضاً، ذلك الكائن الذي دخلها شامخ الأنف، مرفوع القامة، شاكراً ربه.

الجزء الثالث:
التسامي بالذات

التسامي بالذات كظاهرة إنسانية[24]

يتميز الوجود الإنساني بنوع خاص بظاهرتين انسانيتين:

الظاهرة الأولى وتتمثل في مقدرة الإنسان على «التحرر الذاتي» -self detachment (فرانكل، ١٩٦٤)، أما الظاهرة الثانية فتتمثل في مقدرة الإنسان على «التسامى بالذات» أو «تجاوز الذات» self-transcendence (فرانكل، ١٩٦٥ أ).

وفي الحقيقة، أن من بين ما يتميز به الانسان في صميم كيانه أن كونه إنساناً إنما يشير ويتوجه دائماً إلى شيء آخر يوجد في خارجه.

ولذا، فإن تناول الإنسان كمنظومة مغلقة closed system إنما ينطوي على فهم خاطئ وتفسير متعسف غير صحيح. وفي الواقع، أن كينونة الإنسان إنما تعني بعمق أنه منفتح على العالم - ذلك العالم الغني بكائنات اخرى عليه مواجهتها، والمليء بمعان عليه أن يحققها.

وقد لقيت خاصية «التسامي بالذات» أو تجاوزها كخاصية مميزة للوجود الإنساني إغفالا وإهمالاً من نظريات الدافعية التي قامت على أساس «مبدأ استعادة الاتزان» (Homeostasis principle). فوفقا لهذه النظريات، يهتم الانسان أساساً بالاحتفاظ بحالة من الاتزان الداخلي، أو بالسعي لاستعادتها، وأنه في سبيل هذه الغاية يهتم باختزال التوترات. ويفترض ذلك أيضاً أن يكون اختزال التوترات في نهاية التحليل السيكولوجي، هو الهدف من تحقيق الحوافز وإشباع الحاجات. وبهذه المناسبة تشير بحق «شارلوت بيهلر» (١٩٦٠) بقولها: «منذ أن وضع فرويد صياغته الأولى لمبدأ اللذة الى ان وصل إلى الصيغة الأخيرة لمبدأ إزالة التوتر واستعادة الاتزان، جرى تصور الهدف النهائي الذي لا يتغير - وهو هدف كل الأنشطة خلال الحياة كلها- على أنه إعادة تحقق الاتزان للفرد». ويخدم مبدأ اللذة، كما نرى، أغراض مبدأ استعادة الاتزان، ولكن هدف مبدأ اللذة يخدمه شيء آخر، وهو مبدأ الواقع. فوفقاً لما يقرره فرويد، يكون الهدف من مبدأ الواقع هو الحصول على اللذة، حتى وإن كانت مرجأة.

ويعترض «أولبورت» (١٩٥٥) على نظرية استعادة الاتزان ويقول إنها «لا تكفي. لأن تمثل طبيعة الاجتهاد أو السعي الملائم، مع العلم بأن من معالمه المميزة مقاومته للاتزان (أو الاستقرار): فالتوتر أمر من الأمور التي يجري الاحتفاظ بها بدلاً من اختزالها». أما «ماسلو» (١٩٥٤) وكذلك «شارلوت بيهلر» (١٩٥٩) فإنهما يعربان عن اعتراضات مماثلة. تقرر «بيهلر» في دراسة لها في عام 1964 أنه «وفقاً لمبدأ استعادة الاتزان عند فرويد، يتمثل الهدف الغائي في الحصول على ذلك النوع من الإشباع الكامل الذي يعيد الاتزان الى الفرد وذلك بأن يصل بكل رغباته إلى حالة من السكون او الاستقرار. ومن وجهة النظر هذه، تصير في الحقيقة كل المبتكرات الحضارية للبشرية نواتج عارضة للدوافع التي تدفع الانسان الى الاشباع

الشخصي». بل ان «شارلوت بيهلر» تبدي تشككها أيضاً فيما يمكن أن يسفر عنه تطوير نظرية التحليل النفسي في المستقبل، لأن «نظرية التحليل النفسي – كما تقول (١٩٦٥) – لا تستطيع أبداً برغم كل محاولات تجديدها، أن تتخلص من الغرض الأساسي الذي تقوم عليه ومؤداه أن الهدف الغائي الأولى لكل اجتهاد أو سعي هو تحقيق حالة الاتزان. أما ابتداع القيم وانجاز الأشياء فهذه كلها أهداف ثانوية، تعزي إلى تغلب الأنا والأنا الأعلى على الهو، ولكنها لا تفيد آخر الأمر الا في تحقيق حالة الاتزان». وعلى العكس من ذلك، «تنظر (بيهلر)» إلى الانسان على أنه يعيش بالقصدية أو الغرضية (Intentionality)؛ ومعنى الغرضية هي أن يعطي الانسان للحياة معني... وأن يبتدع فيها قيماً». وأكثر من هذا كله «أن الكائن الحي عنده في تكوينه اتجاه فطري صوب الخلق والابداع وصوب القيم».

أما نقدي الخاص لمبدأ اللذة فإنه يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. ذلك أن وجهة نظري في هذا الصدد تقوم على اعتقاد مؤداه أن مبدأ اللذة، في التحليل النهائي، إنما يهزم نفسه. فبقدر ما يهدف الفرد إلى الحصول على اللذة، بقدر ما يخيب هدفه في تحقيقها. ونجد بعبارة أخرى أن «السعي الحثيث وراء الحصول على السعادة» هو الذي يحول دون تحقيقها وهذه الخاصية – خاصية إحباط الذات مما يرتبط بالسعي وراء اللذة – هي التي تكمن وراء الكثير من أشكال العصاب الجنسي. فسواء في هزة الجماع الجنسي أو في الفعالية الجنسية فإن كلا منها يتعرض للاختلال إذا كان هو الهدف المقصود. يحدث هذا بشكل أكبر، كما هو الحال غالباً، إذا ارتبط القصد المتزايد بالانتباه المركز او الاهتمام المتزايد. فالقصد الزائد (Hyper-intention)، والتفكر الزائد (Hyper-reflection)، كما اسميها (١٩٦٥ ب)، قد يخلقان نماذج عصابية للسلوك.

فبقدر ما يزداد مقصد الفرد في أن يحصل على اللذة، بقدر ما يقل حصوله عليها. ويعزي ذلك إلى الحقيقة بأن اللذة بدلاً من أن تكون هدفاً في حد ذاتها، فإنها في الواقع أثر جانبي أو تلقائي للوصول إلى الهدف، وينبغي أن تظل هكذا. وعلى هذا النحو يمكنني القول إن بلوغ الهدف هو السبب الذي يفسر لماذا أنا سعيد. وإذا كان لدى سبب لأن أكون سعيداً، فلست بحاجة إلى الاهتمام باللذة والسعادة، ولا إلى السعي إليهما – فهما يتحققان بطريقة آلية وتلقائية عن طريق بلوغ الهدف.

ذلك هو السبب الذي يفسر لماذا لا يكون السعي وراء السعادة أمراً ضرورياً. بل لماذا يكون أيضاً من غير الممكن أن نسعى وراءها؟ ذلك أنه إلى الحد الذي يجعل الشخص من السعادة هدفاً لدافعيته، وبالتالي يجعل منها موضوعاً لانتباهه واهتمامه، فإنه يفقد البصيرة بالسبب الذي من أجله ينشد السعادة؛ ونتيجة لذلك فإن السعادة ذاتها تخبو وتتلاشي.

وواضح أن الأهمية التي يوليها علم النفس الفرويدي لمبدأ اللذة تناظرها الأهمية التي يوليها علم النفس الأدلري له «حافز المكانة» (Status drive) ومع ذلك، فإن هذا السعي هو أيضاً مما يهزم نفسه ومما يثبت أنه مدعاة لإحباط الذات لأنه بقدر ما يظهر الشخص دوافعه إلى المكانة ويستعرضها، فإنه – طال الزمن أو قصر – سوف يواجه بالنبذ على أنه شخص باحث عن المكانة ويهتم بها.

وفي نهاية التحليل، نجد أن الدافع للمكانة او إرادة القوة، من ناحية، ومبدأ اللذة (أو كما يمكن تسميته بإرادة اللذة) من ناحية أخرى، هيا مجرد مشتقات ثانوية للاهتمام الأولى عند الانسان، وهو إرادة المعنى، أو كما اسميها بالسعي الأساسي للإنسان كي يجد معنى وغرضاً وكي يحققهما. ويترتب على ذلك أن اللذة، بدلاً من أن تكون غاية لسعي الانسان، تكون الواقع نتيجة أو اثراً لتحقيق المعني. والقوة، بدلاً من أن تكون غاية في حد ذاتها، تكون في الواقع وسيلة لغاية، لأنه ما إذا كان الانسان يعيش ويمارس إرادة المعنى عنده، فإن قدراً معيناً من القوة – ولتكن قوة اقتصادية أو مالية – سوف يكون متطلباً أساسياً. أما إذا لقي الفرد إحباط إزاء اهتمامه الأصلي وسعيه لتحقيق المعنى، فإن هذا الفرد سيقنع بأن يكون راغباً في القوة،

أو سباعياً وراء اللذة.

يتفق افتراض إرادة المعنى مع ما تذهب اليه «شارلوت بيهلر» بشأن الاتجاهات أو الأغراض أو النزعات الأساسية الأربعة في الحياة [25]. فطالما أن تحقيق الاتجاهات أو النزعات، وفقاً لنظريتها أيضاً، هو الهدف النهائي، فإن الأغراض أو النزعات الأساسية الأربعة تضمن وتخدم هدف التحقيق. ومع ذلك، فإني أود أن أوضح أن ما يقصد بالتحقيق هنا هو تحقيق المعنى وليس تحقيق الذات.

فتحقيق الذات ليس هو الغاية القصوى عند الانسان، ولا حتى مقصده الأولى. ذلك أن تحقيق الذات، إذا صار غاية في حد ذاته فإنه يتعارض مع خاصية تجاوز الذات أو التسامي بالذات وهي الخاصية المميزة للوجود الإنساني. وبالإضافة إلى ذلك، فإن تحقيق الذات ما هو إلا نتيجة أو أثر – أي أنه نتيجة أو أثر لتحقيق المعنى، وينبغي أن يظل تحقيق الذات هكذا. ذلك أن الإنسان لا يحقق ذاته الا بمقدار تحقيقه لمعنى في هذا العالم. وعلى العكس من ذلك، إذا شرع الفرد في تحقيق ذاته بدلاً من أن يحقق معنى من المعاني، فإن تحقيق الذات سوف يفقد مبرراته في الحال.

يتفق هذا كل الاتفاق مع وجهة نظر «ماسلو» (١٩٩٠، ص ١٣٦)، حيث يقرر، على سبيل المثال، أن «مهمة تحقيق الذات» يمكن أن تتحقق على نحو أفضل «عن طريق الاضطلاع والالتزام بعمل هام». ولقد ناقشت هذا الموضوع وما يترتب عليه من قضايا بتفصيل أكثر في موضع آخر (فرانكل، ١٩٦٠) ولكن ما أود أن أضيفه هنا هو أن الاهتمام الزائد بتحقيق الذات يمكن إرجاعه إلى إحباط إرادة المعني. فكما أن الرمح إذا ضل الهدف يرتد إلى الصياد الذي ألقي به، فبنفس الطريقة ينكص الانسان إلى نفسه ويرجع اليها، ويفكر ملياً في أمرها، ويقصر اتجاهه على تحقيق الذات إذا افتقد رسالته وإذا لقي بحثه عن المعنى إحباطاً وكبتا (فرانكل، ١٩٦٣ ب).

لو سلمنا بأن التحقيق – وبتحديد أكثر، تحقيق المعني (Meaning fulfillment) – هو الهدف النهائي للحياة الانسانية، فإنه يترتب على ذلك أن النزعات أو المرامي المختلفة لا تؤدي في وقت واحد أو بطريقة متأنية الى هذا الهدف فحسب، كما هو الحال بالنسبة لوجهة نظر شالروت بيهلر عن النزعات أو الاتجاهات أو الأغراض الأربعة الرئيسية، ولكن أيضاً بطريقة متتابعة – أي وفقاً لمراحل متتابعة من النمو. وعلى هذا النحو يمكننا الزعم، كما يذهب «انجرسما» (١٩٦١، ص ٢٧)، بأن مبدأ اللذة في نظرية فرويد هو المبدأ الموجه للطفل الصغير، ومبدأ القوة في نظرية آدلر هو المبدأ الموجه للمراهق، في حين أن إرادة المعني هي المبدأ الموجه للشخص الراشد الناضج. «ومن ثم كما يقول انجرسما – يمكن النظر إلى نمو مدارس فيينا الثلاث في العلاج النفسي على أنه يعكس تطور نمو الفرد من الطفولة إلى النضج». والسبب الرئيسي لاشتراط ذلك التتابع هو أنه في المراحل المبكرة للنمو لا توجد مؤشرات لإرادة المعنى. الا أن هذه الحقيقة لا تعد مدعاة للبلبلة عندما نعترف بأن الحياة وحدة زمنية (Zeitgestalt)، وبأنها على هذا النحو لا تصير وحدة كلية إلا بعد أن يكتمل مجرى الحياة. لذلك فإن ظاهرة معينة قد تؤلف جانباً أساسياً من الجوانب المكونة للحياة الانسانية، ومع ذلك فإنها لا تتضح الا في مرحلة متأخرة من العمر، ويبدو ذلك بوضوح في مقدرة إنسانية هامة، وهي مقدرته على خلق الرموز واستخدامها. ولا شك أن اللغة خاصية إنسانية أساسية مميزة على الرغم من أن أحداً من الناس لم يشهد طفلاً وليداً متمكناً من اللغة.

يقرر «كرومباو وماهوليك» (١٩٦٣)، تأييداً لمفهوم إرادة المعني بالأدلة التجريبية، أن «اتجاه البيانات التجريبية والبيانات القائمة على الملاحظة إنما يؤيد وجود ما يذهب اليه فرانكل من وجود دافع فرضي في الإنسان». الا أن هذا يثير سؤالاً عما إذا كان من الجائز أن نتكلم عن ارادة المعنى على أنها دافع من دوافع الانسان اما بالنسبة لي، فإني أرفض وجهة النظر هذه، لأننا إذا رأينا في إرادة المعنى مجرد دافع آخر أو حاجة أخرى، فإننا سوف ننظر إلى الانسان مرة أخرى على أنه مهتم أساساً

باتزانه الداخلي. ومن الواضح عندئذ أن الإنسان يحقق المعنى لكي يشبع دافع المعنى أو حاجته الى المعني – أي لكي يحتفظ باتزانه الداخلي. ومعنى هذا أن الإنسان في أي موقف أو أي مناسبة لا يحقق المعنى وإنما يعمل على تحقيقه من أجل شخصه.

ولكن بدون أن نتطرق الى مبدأ الاتزان، يمكننا القول بأن تصور الاهتمام الأولى عند الانسان في ضوء دافع ما يعتبر وصفا غير دقيق للحالة الفعلية، من حيث أن الملاحظة غير المتحيزة لما يجري بداخل الإنسان حينما يكون متوجها نحو المعنى إنما تكشف عن الفارق الأساسي بين كون الانسان مدفوعا نحو شيء ما، من ناحية، وسعيه إلى شيء معين، من ناحية أخرى. فمن البيانات الأولية لخبرة الحياة أن الانسان مدفوع بالحوافز والدوافع ولكنه منجذب بالمعنى؛ وهذا يتضمن بالتالي أنه الإنسان نفسه هو الذي يقرر ما إذا كان يبتغي تحقيق المعنى أم لا يبتغيه. ومن ثم، فإن تحقيق المعنى يتضمن دائما اتخاذ القرار.

من هذا يمكننا أن نرى أن السبب الوحيد الذي يفسر وجهة نظري عن إرادة المعنى هو أن نستبعد سوء تفسير المفهوم في ضوء «دافع المعني (Drive to meaning)» فمفهوم دافع المعنى يتضمن بأية حال تحيزاً متعمداً. يصدق «رولوماي» (١٩٦١) حينما يؤكد «أن الاتجاه الوجودي يضع القرار والإرادة في مركز الصورة»، وأنه إذا كان المعالجون النفسيون الوجوديون مهتمين بمشكلات الإرادة والقرار كمشكلات رئيسية بالنسبة للعملية العلاجية... فإن الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية». ولكني أود أن أضيف أن علينا أيضا أن ننتبه خشية أن ننتكس إلى الوعظ بإرادة القوة. فالإرادة لا يمكن للإنسان أن يطلبها فتكون له ولا يمكنه أن يستدعيها. لا يستطيع الانسان أن يعقد العزم على أن تكون عنده إرادة. وإذا كان لإرادة المعنى أن تستثار، فإن المعنى ذاته ينبغي استيضاحه ويجب الكشف عنه.

وما يصدق على اللذة والسعادة ينطبق أيضا على «الخبرات الذروية (Peak – experiences)» ومفهوم ماسلو. هذه الخبرات الذروية هي أيضا أثار أو نتائج وينبغي أن تظل هكذا. وهي أيضا تنشأ وتنبثق بوصفها نواتج، ولا يمكن ملاحقتها والسعي اليها. في ذلك يقرر «ماسلو» (١٩٦٢) «أن السعي إلى التوصل إلى القمم الخبرية أشبه بالسعي للتوصل إلى السعادة». يذهب «ماسلو» (١٩٦٣) الى ما هو أكثر من ذلك، فيقرر أن «عبارة الخبرات الذروية هي عبارات تعميمية»، ولكن هذا التقرير من جانب ماسلو يطرح تصوره على نحو أقل مما تقتضيه الحقيقة، لأن مفهومه أكثر من مجرد تعميم؛ والواقع أن هذا التقرير فيه تبسيط زائد. ينطبق هذا أيضا على مفهوم آخر، وهو مبدأ اللذة. فاللذة هي هي ولا تتغير تبعا لما يسببها، وكذلك السعادة هي هي بغض النظر عن السبب الذي يجعلنا نخبرها. وفي ذلك نجد أن ماسلو هو الذي يعترف (١٩٦٢) للمرة الثانية بأن «خبراتنا الداخلية للسعادة متشابهة للغاية بصرف النظر عما يستثيرها». وبالنسبة للخبرات الذروية، يقرر ماسلو كذلك أنها خبرات متماثلة رغم أن «المثيرات مختلفة للغاية بعضها عن بعضها الآخر؛ فقد يحصل المرء على هذه الخبرات من ممارسة الرقص الخليع أو من إدمان المخدرات أو تعاطي المسكرات، الا أن «الخبرة الذاتية تميل إلى أن تكون واحدة» في جميع تلك الحالات».

من الواضح أن تناول الخبرات في أشكالها المتماثلة بدلا من تناول مضامينها المختلفة إنما يفترض مسبقا أن خاصية التسامي بالذات للوجود الانساني قد لقيت إغفالا تاما. ومع ذلك، فإن «عقل الانسان في كل لحظة – كما يقرر «أولبورت» (١٩٦٠، ص ٦٠) – يكون موجها بواسطة قصد أو غرض معين». كذلك، يشير «شبيجلبرج» (١٩٦٠، ص ٧١٩) إلى القصد على أنه «خاصية العمل أو الفعل الذي يتجه مشيراً إلى هدف أو موضوع ما». يعتمد «شبيجلبرج» في ذلك على آراء «برنتانو» (١٩٢٤)، ص ١٢٥) بأن «كل ظاهرة نفسية إنما تتميز بالإشارة إلى مضمون، وبالتوجه نحو موضوع أو هدف. ولكن ماسلو أيضا على وعي بهذه الخاصية القصدية (أو الغرضية) للخبرة الإنسانية، كما يتضح ذلك من قوله بأنه «لا يوجد في العالم الحقيقي شيء مثل احمرار الوجه بدون أن يكون هناك شيء يحصر الوجه له»؛ وبعبارة أخرى، فإن احمرار الوجه يعني دائما «احمراره في سياق (نسق) (ماسلو، ١٩٥٤، ص ٦٠).

من هذا يمكننا أن نرى أنه من المهم جداً في علم النفس أن نرى الظاهرات النفسية في نسق (سياق) معين، وأن نرى بنوع خاص ظاهرات مثل اللذة والسعادة والخبرات الذروية في سياقها بما تتضمنه كل من موضوعات أو أهداف خاصة بها، أي بما تتضمنه من أسباب يتخذها الشخص ليكون سعيداً، ومن أسباب تدفعه لكي يخبر ذروة اللذة، بحسب مقتضى الحال. وعلى العكس من ذلك، فإن فصل الموضوعات أو الأهداف أو الخبرات عما يمكن أن تسند اليه من خلفيات ومناسبات يترتب عليه إفقار علم النفس. ذلك هو السبب الذي يفسر لماذا لا يمكن فهم السلوك الانساني وفقا للغرض الذي يقرر أن الإنسان يسعى الى اللذة والسعادة بصرف النظر عن السبب الذي يدعونا إلى أن نخبرهما. ومن شأن هذه النظرية الدافعية أن تحصر الأسباب التي تكون مختلفة بعضها عن بعضها لآخر، ويكون هذا الحصر استناداً إلى الأثر أو النتيجة التي تكون واحدة في في حالة وفي كل الحالات. والواقع، أن الإنسان لا يأبه باللذة أو بالسعادة في حد ذاتها ولكنه يهتم أكثر من هذا مما يسبب هذه النتائج والآثار – كأن يهتم بتحقيق معنى ذاتي شخصي، أو بالالتقاء مع كائن بشري.

وهذا ما يمكن ملاحظته في حالة عدم السعادة أكثر منه في غيرها. فإذا تخيلنا فردا حزينا على موت شخص عزيز عليه، وإذا قدمت له بعض حبوب العقاقير المهدئة لكي تخفف من اكتئابه، فمن المؤكد أنه سوف يرفض تهدئة حزنه الا اذا كان يعاني من حالة هروب عصابي. فطالما أنه مقتنع بأن هذا لن يغير من أي شيء، وأن المحبوب لن يعود إلى الحياة بهذه الطريقة، فإن السبب الذي يكمن وراء اكتئابه سوف يظل قائما. وعلى ذلك فإذا لم يكن الشخص عصابيا، فإنه سوف يهتم بالدرجة الأولى بالسبب الذي يكمن وراء اكتئابه بدلاً من أن يسعى إلى إزالته. أي أنه يكون واقعيا بدرجة تكفي لأن يعرف بأن اغماض العينين إزاء حدث ما لا يؤدي إلى القضاء على الحدث ذاته. وأعتقد أن الشخص إذا كان من العلماء فينبغي أن يكون على الأقل واقعيا شأنه شأن الشخص السوي وأن يستكشف سلوك الإنسان داخل سياقه (نسقه) بما يتضمنه هذا السياق من سعي لتحقيق غرض أو من توجه قصدي.

هنا اكرر عبارة لي وهي أن كينونة الإنسان إنما تعني توجهه نحو شيء آخر غير شخصيه. هذه «الغيرية (Otherness)»، اقتباسا عن «رودلف ألرز» (١٩٦٢)، تبدو كذلك بالنسبة للتوجه القصدي (Intentional referent)، الذي يشير اليه السلوك الإنساني. ومن ثم، فإن «عالم ما وراء الذاتية»، وفقا لألرز (١٩٦١)، يكمن وراء السلوك الإنساني. ومع ذلك، فقد أصبح من الشائع تمويه مفهوم «ما وراء الذاتية (Trans – subjectiveness)».. فبتأثير المدرسة الوجودية تركز الاهتمام على ذاتية كينونة الانسان. ويعزي هذا في الواقع إلى سوء تفسير للوجودية. فأولئك المفكرون الذين يدعون أنهم تغلبوا على ما بين الموضوع (Object) والذات (Subject) من تجزئة وثنائية هم غير واعين بأن التحليل الظاهري (الفينومينولوجي) الحق ينبغي ان لا يكشف عن شيء مثل المعرفة بعيداً عن قطبي مجال التوتر القائم بين الموضوع والذات. وقد اعتاد هؤلاء الكتاب أن يتكلموا عن «الوجود في العالم». ولكن، لكي نفهم هذه العبارة بشكل ملائم، علينا أن نعترف أن كينونة الإنسان إنما تعني بعمق الاندماج والانضواء في موقف، كما يعني المواجهة لعالم لا سبيل فيه إلى الانتقاص من موضوعيته وواقعيته بواسطة ذاتية ذلك الكائن الموجود في هذا العالم.

أن الاحتفاظ بغيريه الموضوع (موضوعية الموضوع) إنما يعني الاحتفاظ بذلك التوتر القائم بين الموضوع والذات. وخلافا لنظرية الاتزان، نجد أن التوتر ليس شيئا يجب تجنبه بدون قيد أو شرط كما أن سلام العقل أو هدوء النفس او سلام الروح ليس شيئا يجب السعي اليه دون تحفظ. ذلك أن قدراً معقولا يحتاجه الانسان. ومن أمثلة ذلك ما يستثار من توتر بواسطة معنى نحققه، يكون كامنا في كينونة الانسان وشرطا ضروريا للسلامة العقلية أو للصحة النفسية (فرانكل، ١٩٦٣ أ). فالأشخاص الذين يتخففون من توترهم يسعون في الغالب إلى أن يخلقوه بداخلهم بطريقة صحية أو غير صحية. ومن الطرق الصحية الألعاب الرياضية ذلك أنها تسمح للناس بأن يعيشوا حاجتهم إلى التوتر بواسطة فرضهم عمداً لمطالب على أنفسهم. ثم إن بعض أنواع الزهد والتنسك يبدو أن شأنها شأن الألعاب الرياضية. لذا ليس هناك ما يبرر إحساسنا بالأسي، كما ذهب عالم الاجتماع

الألماني «آرنولد جيهلين» (١٩٦١، ص ٦٦)، من أنه لا يوجد في العالم في الوقت الحاضر فضيلة تحل محل فضيلة الزهد والتنسك التي كانت موجودة في العصور الوسطى.

ومن الأساليب غير الصحية لاستثارة التوتر ما يرتكبه الشبان في رجال الشرطة (في فيينا مثلا أو في مناطق الساحل الغربي لأمريكا)، ويصل التوتر في هذه الحالات إلى مخاطرة الشبان بحياتهم وحياة غيرهم.

وإننا لنجد أن التربية التي لا زالت تقوم على نظرية الاتزان، تتجنب مواجهة الناشئة بالمثل والقيم حتى لا تفرض عليهم إلا أقل قدر ممكن من المطالب. والحقيقة أنه ينبغي فعلا عدم إثقال كاهل الناشئة بالمطالب الكثيرة، ولكن علينا أيضا أن نضع في الاعتبار أن المطالب المفروضة على معظم الناس في العصر الحاضر، وهو عصر التطور والازدهار، هي في الواقع أقل مما ينبغي وليست أكثر مما يحتمل. والأهم من ذلك كله، أن نقص التوتر هذا يتزايد بواسطة ضياع المعنى الذي سبق أن وصفته حين أشرت إلى ما سميته الفراغ الوجودي أو إحباط إرادة المعنى (فرانكل) ١٩٦١ أ.

وفي ذلك تعتقد «شالوت بيهلر» (١٩٦٢) أن «التوظيف الصحي (Healthy functioning) للكائن الحي يقوم على تعاقب خفض التوترات ورفعها». وفي رأيي أن هذا «التعاقب التكويني النمائي (Ontogenetic alternation)» يوازيه «تعاقب تاريخي تطوري (Phylogenetic)». فهناك فترات من ازدياد التوتر أو نقصانه مما قد يلاحظ أيضا في تاريخ الإنسانية. فقد كان عصر فرويد، على سبيل المثال، عصر توتر. ويعزي هذا التوتر، على وجه التحديد، إلى قمع الجنس على نطاق واسع. أما الآن فنحن نعيش في عصر ارتياح – عصر التخفف من الجنس. ولقد عان الناس لفترة طويلة من الزمن في الدول الأنجلوسكسونية خاصة، بسبب الاتجاهات والمذاهب «البيوريتانية» (التطهرية)، ومن هذا القمع الجمعي للجنس. فلم يكن مستغربا إذن أن يشعر الناس طيلة حياتهم بالامتنان لفرويد مقابل الخدمة التي قدمها لهم، ولعل هذا الإحساس المستمر بالمديونية والفضل هو ما يفسر الكثير من المقاومة الانفعالية غير المعقولة ضد الاتجاهات الجديدة في الطب النفسي مما يخرج عن نطاق التحليل ويتجاوزه.

ومن المعالم الأخرى في حياة الأمريكيين وثقافتهم مما يمكن إرجاعه ايضا الى التطهرية (البيوريتانية) الحذر الشديد حتى لا يكون الواحد منهم متصفا بالتسلط أو حتى بالنزعة التوجيهية. فقد فهم الناس الروح الحقيقية للديمقراطية من جانب واحد، وذلك في ضو أن يكون الفرد حرا حرية كاملة أكثر من أن يكون مسئولاً. فالخوف الوسواسي الجمعي من أن تفرض على الناس معان وأهداف قد تمخض عن حساسية مفرطة ضد المثل وضد القيم. وبذلك نكون كما يقول المثل الانجليزي «قد قذفنا بالطفل وبماء الحمام الذي كان يغسل فيه». وبذلك أيضا نتخلص من المثل ومن القيم دفعة واحدة.

ومع ذلك فان اوست، (1964)، رئيس قسم الطب النفسي والعصبي والعلوم السلوكية بكلية الطب بجامعة أوكلاهوما، يقرر «إن شبابنا يستطيع أن يتزود بالمثالية لأنه الجيل الأول لمجتمع الرفاهية. كذلك لا يمكنه أن يأخذ بالمادية سواء في ذلك الديالكتيكية أم الرأسمالية، لأنه الجيل الأول الذي قد يرى بحق نهاية العالم. فشبابنا قد تلقى من التعليم ما يكفيه لأن يعرف أن مُثل الأخوة الإنسانية هي وحدها التي يمكن أن تنقذ عالمهم وتنقلهم كذلك». ومن الواضح أن هذا هو ما تعلموه وأنهم هم على هذه الشاكلة. ويتفق ذلك مع النتائج التي أوضحها استفتاء للرأي العام قام به اتحاد التجارة النمساوي، وخلاصتها أن ٨٧٪ من مجموع الشباب البالغ عددهم ١٠٠٠ شابا من أجرى عليهم الاستفتاء قد أفصحوا عن اقتناعهم بأنه من الخير أن تكون لديهم مثلهم في الحياة.

لقد قال «فرويد» ذات مرة (١٩٤٠ ص ١١٣) أن «الانسان قوي طالما أنه يتمسك بفكرة قوية». وفي الواقع أن هذا المبدأ قد خضع للاختبار في معسكرات أسرى الحرب سواء في اليابان (ناردينى، ١٩٥٢) أم في كوريا الشمالية (ليفتون، 1954)،

أم في معسكرات الاعتقال في أوربا (فرانكل، ١٩٦٧). وحتى في الظروف العادية، يعتبر السعي الحثيث نحو المعنى مما يطيل أمد الحياة، بل إنه عامل أساسي من عوامل المحافظة على الحياة.

ولا ينسحب هذا المبدأ على الصحة الجسمية فحسب، وإنما ينطبق على الصحة النفسية (كوتشين، ١٩٦٠). وحتى على نطاق واسع، «المثل هي الزاد الحقيقي للبقاء»؛ ويمكننا ولو على سبيل التغيير أن نستبدل بسيكولوجية الأعماق سيكولوجية المرتفعات (أو العلويات) (جلين ١٩٦٣).

فاذا توفر قدر معقول من التوتر مثل التوتر بين الواقعية والمثالية أو بين «ما أنا عليه»، و «ما ينبغي أن أكون عليه» (فرانكل، ١٩٦١ ب)، فإن الواجب يقتضي حماية المعني من أن يتطابق ويتزامن مع الوجود والواقعية. وفي ذلك أقرر أن «معنى المعنى (Meaning of meaning)» هو الذي يحدد سرعة تقدم الوجود. وإذا كان للوجود أن يسير في موازاة المعني، فإن المعني ينبغي أن يتقدم الوجود، وأن يسبق الواقعية والكينونة.

في ضوء ذلك، يمكننا أن نرى مخاطرة في «تمازج الحقائق والقيم» كما يحدث «في الخبرات الذروية وفي الأشخاص المحققين لذواتهم» (ماسلو، 1965، ص ٤٢) طالما أنه في الخبرات الذروية يندمج «ما هو واقع» مع «ما ينبغي أن يكون» (ماسلو، ١٥). ولكن، أن تكون إنسانا فإن هذا يعني أن تكون مطالبا بمعنى تنجزه وبقيم تحققها. ويعني ذلك أن تعيش في المجال القطبي للتوتر القائم بين الواقع والمثل التي ينبغي تحقيقها ماديا. فالإنسان يعيش بالمثل ويحيا بالقيم. ولا يكون الوجود الإنساني جديراً بالثقة الا إذا عاشه الإنسان على أساس من التسامي بالذات أو تجاوزها. ويكون تحقيق الذات أثراً غير مستهدف لقصدية الحياة وغرضيتها.

التسامي بالذات هو جوهر الوجود. والواقع أن هذا الوجود ينهار ويتداعى إذا لم توجد «فكرة قوية» كما يقرر فرويد، أو إذا لم يوجد مثل قوي يرتكز الوجود عليه. يقول أينشتين «أن الإنسان الذي يعتبر حياته جوفاء من المعنى فهو ليس غير سعيد فحسب ولكنه يكاد يكون غير صالح لأن يعيش».

ومع ذلك، فإن الملل والتبلد آخذان في الانتشار في عالم اليوم. وينتشر معها كذلك الشعور بالفراغ واللامعنى. وإن ما أسميته ب «الفراغ الوجودي» إنما يمكن أن أطلق عليه أيضا مصطلح «العصاب الجمعي (Mass neurosis)» لعالم اليوم. ويمكننا أن ننظر إلى الفراغ الوجودي، تمييزاً بالنقيض عن الخبرات الذروية أو قمة الخبرات (Peak experiences)، على أنه «هاوية الخبرات (Abyss – experiences)»، (فرانكل، ١٩٦٥ ج).

ويلقي الفراغ الوجودي لسوء الحظ تدعيها بواسطة الاختزالية المسيطرة والسائدة في الحياة الأكاديمية المعاصرة. وكيف يمكن أن يجد الشباب أن الحياة جديرة بالاستحقاق وغنية بالمعنى إذا كانوا يخضعون لتعليم وتوجيه مفروضين عليهم وفقا للخطوط التي تمليها الاختزالية؟ كيف يهتمون بقيم ويتمسكون بمثل. لا يمكن تفسيرها بشيء الا على أنها ميكانزمات دفاعية؟ ويمكننا أن نزعم بأن الفلسفة السديدة للحياة تتمثل في حاجتنا إلى التغلب على الفراغ الوجودي. ولكن هذه الفلسفة قد استبعدت للأسف بدورها على أنها مجرد إعلاء للجنس المكبوت (بنسواجنر، ١٩٥٦، ص ١٩). وإني أميل إلى أن أرى أن العكس بالأحرى هو الصحيح في العصر الحالي. فغالبا ما يكون الجنس هروبا رخيصا من تلك المشكلات ومن تلك التحديات الفلسفية والوجودية التي تطوقنا في عصرنا هذا.

مراجع

ALLERS, R. Ontoanalysis: a new trend in psychiatry. Proceedings of the American Catho lic Philosophical Assoc., 1961, 78.

ALLERS, R. The meaning of Heidegger. The New Scholusticisnm, 1962, 26, 445.

ALLPORT, G. W. Beconing: basic considerations for a psychology of personality, New Haven: Yule Univer. Press, 1955.

ALLPORT, G. W. Personality and social encounter. Boston: Beacon Press, 1960.

BINSWANGER, L. Erinnerungen an Sigmund Freud. Bern, 1956.

BRENTANO, F. Psychotogie vom empirischen Standpunkt. Leipzig: Meiner, 1924.

BUHLER, Charlotte. Basie tendencies in human life: theoretical and clinical considera- tions. In R. Wisser (Ed.), Sein und Sinn. Tuebingen: 1960.

Psychother., 1959, 13, 561.1962 10, 445.1964, 4, 1.tic Psychol., 1965, 5, 54.exist. Psychiat., 1963, 4, 43.

BUHLER, Charlotte. Theoretical observations about life's basic tendencies. AMER. J.

BUHLER, Chardotte. Goal-structure of human life: model and project. Prychol. Rep., BUHLER, Ch. rlotte. The human course of life in its goal aspects. J. hunanistic Psychol., BUHLER, Charlotte. Some observations on the psychology of the third force. J. humanis- GRUMBAUGH, J. C. & MAHOLICK, L. T. The case for Frankl's «Will to Mcaning. » J.

FRANKL, V. E. Beyond self-actualization and self-expression. J. exists. Psychiat., 1960, 1, FRANKL, V. E. Dynamics, øxistence and values. J: exist. Psychiat., 1961 a, 2, 5.

FRANKL, V. E. Logotherapy and the challenge of suffering. Rev. exisı. Psychol Psychiat., 1961 b, 3.

FRANKL, V. E. Existential dynamics and neurotic escapism. J. exists. Psychiat., 1963 a, 4, FRANKL, V. E. Man's search for meaning: an introduction to logotherapy, New York:

FRANKL, v. E. The philosophical foundations of logotherapy, In E. w. Straus (Ed.), 27. Washington Squarc Press, 1963 b.

Phenomenology: pure and applied. Pittsburgh: Duquesne Univer. Press, 1964.

FRANKL, v. E. The concept of man in logotherapy. J. Existentialism, 1965 a, 6, 53.

FRANKL, V. E. The doctor and the soul: from psychotherapy to logotherapy (2nd ed.).

New York: Knopf, 1965 b.

FRANKL, v. E. Fragments from the Logotherapeutic treatment of four cases. In A. Bur- ton (Ed.), Modern psychotherapeutic practice: innovations in lechnique. Palo Alto: Sci & Behavior Books, 1965 c

FRANKL V. E. Psychotherupy and exisientialism: SELECTED PAPLRS ON LOGOTHERAPY. New Yark: Washington Square Press, 1967.

FREUD, S. Gesammele Werke, Vol. 17. London: Imago, 1940 - 1952.

GEHLEN, A. Anthropologische Forschung. Hamburg: Rowohlt, 1961.

GLENN, J. H. Detroit News, Feb 20, 1963.

KOTCHEN, T. A. Existential mental health: an empirical approach. J. indiv. Psychol., 1960, 16, 174.

LIFTON, R. J. Home by ship: reaction patterns of American prisoriers of war repatriated from North Korea, Amer. J. psychiat., 1954, 110, 732 - 739.

MASLOW, A. H. Motivation and personalitys New York: Harper & Bros., 1954.

MASLOW, A. H. Lessons from the peak-experiences. J. humanistic Paychol., 1962, 2, 9.

MASLOW, A. H. Fusion of facts and values. Amer. J. Psychiat., 1963, 23, 117- 131.

MASLOW, A. H. Eupsychian management: a journal, Homewoad, Il1.: R. Irwin, 1965.

MAY, R. Will, decision, and responsibility. Rev. exists. Psychol. Psychiat., 1961, 1, 249.

NARDINI, J. E. Survival factors in American prisoners of war. Amer. J. Prychia., 1952, 109, 244.

SPIEGELBERG, H. The Phenomenological movemeni: The Hague: Nijhoff, 1960.

UNGERSMA, A. J. The search for meaning: a new approach to psychotherapy and pastor- al psychology. Philadelphia: Westminster Press, 1961.

WEST, L. Psychiatry, «brainwashing» and the American character. Amer. J. Psychiat., 1964, 120, 842.

تعليقات على دراسة فرانكل عن «التسامي بالذات كظاهرة إنسانية» لأبراهام ماسلو[26]

من الواضح أن دراسة فرانكل هذه ذات أهمية بالغة، وتستحق الاهتمام والدرس العميقين. لذا ينبغي أن نستبعد على الفور احتمالات الفهم غير الدقيق أو القراءة الخاطفة الخاطئة. ونستطيع عندئذ أن نركز انتباهنا على الاختلافات الحقيقية في الرأي، مما يخضع – كما نرجو – للحوار والمناقشة ويدخل آخر الأمر مجال البحث العلمي.

وأعتقد أن أحد الاختلافات الواضحة في الرأي هو في الغالب الاختلاف في استراتيجية تطوير المعرفة. ذلك أن الإسهامات الكلينيكية والنظرية تنطوي على نوعين من الفوائد. تتضح الفائدة الأولى من خلال ما تقدمه هذه الإسهامات في حد ذاتها بالنسبة لفهمنا واستنارتنا. فإذا كانت هذه الاسهامات حقا صحيحة وإذا كانت مما يثري البصيرة ويزيدها عمقا، فإنها تغير القارئ وتغير نظرته إلى العالم.

أما النوع الثاني من الفوائد مما تقدمه هذه الإسهامات، فيتمثل في أنها تمهد الأرض أمام البحث العلمي؛ ولا نقصد بالبحث ذلك النوع من البحوث التي تقتحم ميادين جديدة، ولكن نقصد أيضا تلك البحوث المتقدمة مما تسعى إلى مستويات أعلى من الثبات والتحقق – ونقصد بها تلك البحوث التي تعمل على تحسين ما لدينا بالفعل من معرفة.

ولست أرى تناقضا بين هاتين الوظيفتين إذا أدركناهما بشكل متكامل وهرمي (ماسلو، 1966). وفي ضوء ذلك، يجري تقدم المعرفة في مراحل او مستويات، انطلاقاً من مراحل أو مستويات أبسط، وبدايات استكشافية، وتقدما نحو وسائل تكنولوجية وأعمال دقيقة بشكل متزايد، ونحو مستويات متدرجة في الارتفاع وصولاً إلى درجات أعلى من الثقة، الخ. وتعتبر البحوث التجريبية الحاسمة المضبوطة التي سبق تصميمها هي خطوة أخيرة أو أرقى في ذلك التقدم (ومن الطبيعي أن هذا ليس ببداية كما أنه ليس بالطريقة الوحيدة للعلم).

إذا تقبلنا كلتا هاتين الوظيفتين للأعمال النظرية وربطنا بينهما، كما أحاول أن أفعل، فإن الاختلاف الحقيقي يتضح حتى في التقديم الأولى للملاحظات والاستنتاجات الكلينيكية أو الشخصية. لذا أعتقد أن من الأهمية بمكان تحديد هذه التأكيدات والاستنتاجات الأولى على انها موضع اختبار، أو فروض ينبغي التحقق من صحتها. وهذا يتضمن صياغتها بطريقة خاصة محددة، أي يصوغها في شكل قابل للإثبات أو عدم الإثبات. وهذا يعني بصفة عامة الانتقال من كلمات تتصف بالشمول والعمومية والاتساع إلى أخرى أقل شمولاً وعمومية، أي من عبارات أكثر تجريدا إلى أخرى أكثر محسوسية، ومن عبارات شعرية إلى عبارات أقل شعرية، ومن عبارات تتصف بالثراء والغني وتعدد المتضمنات الى كلات أكثر تحديدا، ومن كلمات تعني أشياء مختلفة لمختلف الأشخاص الى كلمات تعني نفس الأشياء لمختلف الأشخاص، ومن كلمات لا نملك بشأنها طرقا للقياس والتناول الى كلمات نتمكن من اخضاعها لهذه الطرق.

كل هذا بعض استراتيجية للتحرك قدما والى أعلى بدءاً من الاستنارة بالتبصر في الأعماق مما يحرك عقولنا وأفكارنا ولكنه لا يقدم إثباتا بالبرهان.

يمكن النظر إلى ذلك على أنه نوع من المجاملة لأشخاص آخرين (زملاء) من ذوي النوايا الطيبة ممن ينشدون الحقيقة، مِثلي. وهذا أقرب إلى القول التالي: «إني مقتنع من وحي خبراتي الخاصة المتعددة بأن هذا صواب. ولكني أستطيع أن أفهم أنه يجوز

ألا تكون مقتنعا. حقا، ينبغي الا تقتنع طالما أنك لم تخبر بنفسك هذا الادراك وهذا الحدس الخاص. لذا، عليك دائما أن تتشكك، وأن تسأل عن الأدلة، وأن ترى بعينيك، وأن تراجع وتتحقق، وأن تختبر، وأن تكرر». عندئذ يمكن جعل ذلك التحقيق ممكنا – أو غير ممكن – بالطريقة التي يعبر بها الفرد عن توكيداته وإثباتاته.

ومن ثم، فإني أتفق كلية مع فرانكل بأن الاهتمام الأولى للإنسان (أو كما أسميه به «الاهتمام الأسمى» (Highest concern) هو ارادة المعنى عنده. ولكن ذلك قد لا يختلف كثيراً عن المفاهيم التي قدمتها بيهلر (١٩٦٢)، على سبيل المثال، أو جولدشتين، أو روجرز أو غيرهم؛ وهؤلاء ربما يستخدمون، بدلا من «المعني»، مصطلحات مثل «القيم» أو «الأغراض» أو «الغايات» أو «فلسفة الحياة»، وعلى هذا النحو يستخدم أصحاب النظريات المختلفة هذه أو تلك من الكلمات بطريقة متداخلة أو على أنها مفاهيم مترادفة. ومن الواضح أنه يمكن أن نفيد من هذه المصطلحات إذا أمكن تحديدها بعناية أكبر. ومع ذلك فلا داعي للإفراط في العناية والجهد حتى تتوافر بيانات أكثر.

وثمة نتيجة عامة أخرى لهذا التصور للمعرفة والعلم على أساس «مستويات» تتمثل في أن التعميم الشامل والجامع، مهما كان صحيحا، فإنه يصعب تناوله أو تحسينه من حيث الوضوح أو الفائدة أو الدقة أو الاغناء بالتفاصيل. ولذلك فإني أتفق بكل تأكيد مع جولدشتين وروجرز وغيرهما في ان الدافعية القصوى أو الغائية هي لتحقيق الذات، ولكن قد ثبتت قيمة تحديد هذه الدافعية بتفصيل أكبر (ماسلو، ١٩٥٤)، وذلك عن طريق إخضاعها للتحليل الشامل، وعن طريق تعريفها إجرائيا، ثم عن طريق مقارنة النتائج للإجراءات المختلفة. ثم إن العمل المشترك مما يقوم به رجل الفكر ورجل الاختبارات ضبطا ومراجعة قد بدأ يعطي ثمراته فعلا؛ ومن أمثلة تلك الثمرات أن «شوستروم» (١٩٦٢) قد تمكن من إعداد اختبار مقنن عن تحقيق الذات.

وإني أعتقد أن مفهوم «إرادة المعنى» عند فرانكل وكذلك مفهوم «الاهداف أو النزعات الأساسية الأربعة» عند بيهلر، كلاهما يتفق مع ما سبق أن قدمته من وصف امبيريقي – شخصاني لأولئك الذين يحققون ذواتهم (1954)، ويتفق كذلك مع ما قدمت من صياغات وشروح نظرية استخدمت فيها تحقيق الذات كمفهوم.

ويلاحظ أولا وقبل كل شيء، أن الأشخاص الناضجين لا يسعون جميعا إلى تحقيق الذات، ومن الطبيعي فوق هذا أن قلة من هؤلاء هم الذين يتوصلون إلى تحقيق الذات. فثمة أساليب وأهداف أخرى للحياة كما توضح بيهلر. وأما القول النظري بأن كل الكائنات الحية الانسانية تسعى اساسا إلى تحقيق الذات وأنها قادرة على ذلك، فإنه سيدخل معنا الأطفال حديثي الولادة. وهذا أشبه بالقول بأن العصاب والسيكوباتية وتعطيل إمكانات الفرد ليست فطرية في أساسها ولكنها مكتسبة. وقد ينطبق ذلك أيضا على الراشدين من حيث أننا ينبغي الا نفقد الأمل بالنسبة لأولئك الأشخاص ذوي التشخيص التنبؤي السيء، مثل مدمني المخدرات، والسيكوباتيين، وكذلك بالنسبة لبعض أنماط «السواء» و«التكيف السليم» (لمجتمع سيء)، والاستسلام، والبلادة، الخ. يقابل هذا ما يجري في مهنة الطب من إصرار على محاولة انقاذ حياة المرضى حتى إن بدا ذلك ميئوسا منه، ويتفق هذا الاتجاه كل الاتفاق مع كون الفرد «واقعيا» تماماً.

ثانيا، تتفق خبرتي مع خبرة فرانكل بأن الشخص الذي يسعى الى تحقيق الذات بطريقة مباشرة، وبأنانية، وبروح شخصية، إنما يبتعد عن رسالته في الحياة؛ فهذا الشكل من الخلاص الخاص والذاتي لا يوصله في الواقع إلى تحقيق ذاته اللهم الا إذا كانت الأنانية من أجل عمل أو مهمة، حتى تسمو على الثنائية بين اللا أنانية والأنانية. ويمكننا أن نعبر عن ذلك بطريقة أكثر إيجابية وأكثر وصفية، فنقول إن أولئك الأشخاص الذين ننتقيهم كأشخاص محققين لذواتهم لديهم دائما وبشكل عملي رسالة في الحياة وعندهم مهمة يحبونها ويتوحدون معها وتصبح بالتالي خاصية مميزة للذات. وفي كل حالة يعتبر هذا العمل أمراً هاماً جديراً بالاستحقاق وذا قيمة بالغة هذه الحقيقة الوصفية يمكن تسميتها بتحقيق الذات، والتحقيق هنا هو تحقيق المعنى،

التسامي بالذات، اكتشاف الشخص لذاته، الحياة المتكاملة، أو غير ذلك من المصطلحات.

أما الأمثلة التي رأيتها وكان فيها الأشخاص يسعون إلى تحقيق الذات المباشر والمحدود فكانوا في الأصل حالات تمكنت منها لفترة طويلة من الزمن نزعة السعي وراء اللذة الهابطة الشخصية، ونزعة الانغماس الذاتي، وتبني الفلسفة البدائية للذة. وفي اعتقادي أن الاندفاعية، والتعبير المنطلق غير المقيد لأي نزوة، والسعي المباشر إلى الإدمان واللذات الشخصية واللاجتماعية، هذه كلها تسمي خطأ بانها تحقيق للذات.

يقول آخر، كان كل الأشخاص المحققين لذواتهم، ممن عرفتهم، اشخاصا عاملين ممتازين ومجتهدين – رغم أنهم قد عرفوا أيضا كيف يتركون عملهم وكيف يسترخون ويتكاسلون بل ويهملون في أعمالهم ماسلو١٩٦٥

مثل هذه الحقائق هي التي ينبغي تناولها، وكذلك الحقائق الأخرى الكثيرة التي من هذا النوع. ومن المفيد أن نعترف أنه توجد من حيث المبدأ أنظمة أو لغات مجردة كثيرة يمكن أن تنظم وتوحد هذه الحقائق. ولست أميل إلى أن أبذل جهداً كبيراً مع مسميات معينة طالما أنها لا تمسخ أو تنكر الحقائق، وفي الحقيقة، أعتقد أنه من المجدي عند هذا المستوى من المعرفة أن تكون لدينا مختلف وجهات النظر عن نفس الحقائق لأنه، من خلال عيون الأشخاص الآخرين، نستطيع أن نرى أكثر مما نراه بأعيننا نحن فحسب، لذا، كان من الأفضل أن نعتبر الموقف العقلي الحالي موقفا تعاونيا (ماسلو، ١٩٦٥ أ) أو أقرب إلى التضامن التعاضدي منه إلى التنافسي. والعلم، على الأقل كما أحدده (1966)، هو تقسيم للعمل بين الزملاء.

وأعتقد أن مناقشة من هذا النوع لازمة كذلك بالنسبة لملاحظات فرانكل بشأن قمة الخبرات أو الخبرات الذروية. وفي ذلك أشعر بأني أعرف ما يحاول فرانكل قوله وأتفق مع ما يقصد اليه في هذا الشأن، وكذلك أدرك ملاحظاته التحذيرية المتعلقة بالأخطاء التي يمكن أن نقع فيها حول تحقيق الذات. وإني واثق من أن كلانا يفهم الآخر جيداً. لذا كان من المجدي أن نوضح كل شيء أمام الآخرين، وأن أضيف اليه أيضا ما تعلمته في الفترة الأخيرة.

ان السعي إلى الخبرات الذروية بطريقة مباشرة لا يجعلها في العادة تتحقق. ولكن هذه الخبرات تحدث عادة للشخص ويدهش الواحد عندما يجد نفسه مغتبطا. ويصبح من الواضح أيضا أنه من الحكمة، من أجل استراتيجية البحث، أن نؤكد على عزل الجانب الانفعالي عن الجانب المعرفي في الخبرات الذروية. وقد اتضح لي الآن بدرجة أكبر أن الانفعالات الذروية (Peak emotions) قد تعمل بدون بصيرة واضحة أو نمو أو فائدة من أي نوع فيما عدا استهداف اللذة ذاتها واستهداف تأثيراتها. وتلك النشوة قد تكون عميقة جداً، ومع ذلك فإنها تكاد تكون بلا مضمون. ومن الأمثلة الأولية على ذلك الجنس، الذي قد يجلب الاستنارة واليقظة، وقد لا يؤدي اليهما. كذلك، فإن البصيرة قد تتأتى بدون نشوة انفعالية غامرة. وفي الواقع، أن البصيرة قد تتأتى من الألم والمعاناة والمأساة، كما أعاننا فرانكل على تعلم ذلك (١٩٥٩). كذلك، أود اليوم أن أؤكد أكثر من أي وقت مضى على الأهمية الأولية ل «مقاومة الخبرات الذروية» والتي أطلقت عليها «اللاذروية» (Non – peaking) على سبيل المزاح. فالشخص قد لا يتوصل إلى الخبرات الذروية، أو قد يكتسبها أو يقمعها، أو قد يكون خائفا منها، أو قد ينكرها، أو قد يفسرها بطريقة اختزالية أو مشوهة. وتتضح النتائج المترتبة على كون الفرد «لاذرويا (Non – peaker)» بدرجة أكبر كلما مضت به السنون. وإنني أتفق مع «كولين ولسون» (في كتابه «مقدمة في الوجودية الجديدة») في أن يعزو ذلك إلى عامل واحد وهو الاختلاف القائم بين التشاؤمية وانعدام الأمل وعدم تحمل الألم والاتجاه الرفضي من ناحية، وبين المواجهة والسعي والأمل والاتجاه التقبلي من ناحية أخرى. وتعتبر ملاحظات فرانكل الخاصة بالتوتر وبمواجهته ذات صلة وثيقة وذات فائدة كبيرة في هذا الصدد.

أما بالنسبة لتشابه كل أنواع اللذة، فلا شك أنه توجد خاصية ذاتية تكون مختلفة بصفة عامة عن حالات المعاناة أو اليأس

والألم. وبهذا، فإن أي لذة هي لذة وتقع داخل نفس الفئة مثل أي لذة أخرى. كذلك، فإن اللذة تتواتر. في تنظيم هرمي (توقف الألم، الامتناع عن تعاطي المسكرات، التخلص من البول، السرور المرتبط بأخذ حمام ساخن، الرضا عن الأداء الجيد لعمل أو لمهمة، الغبطة من النجاح، السعادة من التواجد مع أصدقاء محبوبين، الابتهاج بكون الفرد في حب، النشوة بالمسلك القائم على الحب الكامل، الابتهاج باللذة التي تتجاوز لذة التوحد الروحي مع الكون). ولذا، فإن كل اللذات متشابهة من حيث أنها إحساس حقيقي واحد، كما أنها ليست متشابهة من حيث أنها إحساس حقيقي يختلف من حالة الأخرى.

ولا شك أننا ينبغي أن نتقبل تحذيرات فرانكل بشأن اللذة الجوفاء (Contentless pleasure) وبشأن ضرورة ربط اللذة بما يستثيرها، وبمضمونها، وكذلك ما يترتب عليها. وحين نتفق مع فرانكل بشأن المخاطر العقلية المرتبطة بجعل اللذة غاية يراها الشخص عظيمة مبجلة؛ فعندئذ نستطيع أن نشعر بالحرية التامة للاستمتاع بملذات الحياة الضئيلة وغير الضارة. وحتى لو كانت هذه اللذات لا تعلمنا شيئا؛ فإنها لا زالت نعمة مفيدة. فاللذة في حد ذاتها ليست خطراً؛ وإنما يكمن الخطر في النظريات التي صنعها الانسان بشأن اللذة.

قد يبدو من الملائم أن ألخص هنا تفسيري لهذه الحقائق ذاتها، ولو لأغراض المقارنة فحسب. لقد نشرت بالفعل ملخصات مختصرة لنظرية الدافعية العليا أو التجاوزية (Meta – motivation) في كتب حديثة (١٩٦٤، ١٩٦٥) وكذلك دراستي «تحقيق الذات، وما وراءه (Self-actualization, and beyond)» في مجلد «بوجنتال» عن علم النفس الإنساني.

يوضح البحث في الأشخاص المحققين لذواتهم أنهم في كل الحالات متكرسون لغاية أو لسبب او لرسالة تتجاوز ذواتهم. حينما حاولت أن أصنف وألخص ما يقرب من ألف عبارة قررها أولئك الأشخاص عن عملهم، كاشفين عن الأسباب التي جعلتهم يتكرسون له وعن الإثابات التي يحصدونها منه، وجدت أن فئات ذلك التصنيف كانت تشبه تقريبا ما أسميه ب «القيم العليا» او «قيم الوجود» (1964) (B – values). وفي ذلك يمكننا القول بان الرسالة او الغاية كانت قوة محركة او تجسيدا للقيم العليا الخاصة بالحق والخير والجمال والعدالة والتفرد والنظام والفهم والاكتمال والاتقان... الخ. هنا يمكن القول بان هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا يتمتعون بالفعل بإشباع حاجاتهم الأساسية (وبالتالي لم يعودوا مدفوعين بالسعي إلى إشباعها)، كانوا مدفوعين أساسا بالحقائق الأبدية، بالقيم الروحية، بالطبيعة العليا للوجود ذاته.

هذه القيم يمكن أيضا أن ننظر اليها على أنها حاجات (الحاجات العليا (Metaneeds)) طالما أن غيابها يخلق أنواعا خاصة من الأمراض (الامراض الكبرى (Metapathologies)). ومن ثم، فان هذه القيم ذات فائدة لصالح الشخص. لهذا السبب ولكل الأسباب الأخرى المذكورة (ماسلو، ١٩٦٥ ب، ص ٣٣ – 47) يمكن وصفها بأنها «حاجات شبه غريزية (Instinctoid needls)». وإذا ما تأيدت هذه النتيجة التي توصلت اليها، فانه يمكننا القول عندئذ بأن ما يسمى بالحياة العليا او الحياة الروحية انما تتأصل بقوة في الطبيعة البيولوجية للنوع الانساني.

لكن هذه المحركات الدافعية للأشخاص المحققين لذواتهم تختلف بشكل ما عن الحاجات الأساسية وعن دوافع النقص. فالشخص يتوحد معها، ويستبطنها، ويستدخلها، ويتشربها، ويجعلها داخل ذاته. وفي الحقيقة، أنها تصبح هي الذات، لأنها تصير الخصائص المحددة لها. لكن هذا يزيل الحاجز بين الذات والآخر، بين ما هو داخلي وما هو خارجي، بين الأنانية واللا أنانية. فاذا كُنت متوحدا مع الحق او الجمال او العدالة، فان هذه المحركات تكون بداخلي وكذلك بخارجي. ومن ثم، فان المعاني العليا للعالم خارجنا تصير جزءا من الذات، كذلك يمكننا الآن أن ننظر إلى الذات العليا ومطامحها او تطلعاتها او معانيها العليا على انها في الحقيقة جزء من العالم.

وبينما لا يزال يوجد اختلاف تصوري مفيد بين الدوافع والتطلعات، مما يدفع ويجذب على معظم المستويات، فان الاختلاف يصبح طفيفا وقد يجري التسامي به عند هذا المستوى الأعلى حيث تصير القيم العليا للدنيا وللشخص واحدة.

هنا نقترب كثيرا من موقف ينسب إلى سبينوزا، حيث يكون اكتشاف الشخص لمهمته وعمله في الحياة وشغفه بهما، أشبه كثيرا بتكشفه لمصيره او قدره مما هيأه له استعداده البنيوي وتكوينه الفسيولوجي. ويعزي ذلك إلى أننا نقع عادة على ما يكون في مقدورنا عمله على النحو الأفضل رجوعا إلى أسباب تكوينية استعدادية ومزاجية تتعلق بالقدرة والمهارة والمعطيات الوراثية، ولا شك أن عملية اكتشاف مهنتنا او مهمتنا هي جزء من عملية اكتشافنا لهويتنا – لذاتنا الأكثر واقعية. وفي أفضل الحالات تكتشف ذات الفرد وعمله أحدهما الآخر، ويقعان في حب أحدهما مع الآخر، ويندمجان معا. عندئذ يصير الشخص متوحدا مع عمله. ولذا فإننا بطبيعة الحال نحب قدرنا ونتقبله بسرور. بل ان مصطلح «دافعية» لا يصلح كلية لوصف هذا المستوى من التوظيف. وقد يبدو من الأفضل لذلك أن نتكلم عن الحب لأجل كذا بدلا من أن نتكلم عن «الحاجة إلى كذا»، وأن نتكلم عن «التطلع إلى كذا» او «الطموح الى كذا»، بدلا من التكلم عن «المدفوع بواسطة كذا». والآن يصبح الاستسلام مختلفا عن الإرادة ولا شك أننا في هذا الصدد بحاجة إلى مصطلحات جديدة.

وعلى أية حال فإنه من الممكن ان نكون مشبعين بالنسبة للحاجات الأساسية ومع ذلك غير موجهين بالحاجات العليا او قيم الوجود، فقد نقع ضحية ل «اللامعنى»، و«الفراغ الوجودي» و«العصاب المعنوي المنشأ»، و«اللاقيمية» وغير ذلك من المظاهر المرضية الكبرى. هذه الأمراض الكبري، تكون في العادة نتاجا للحرمان من الحق والجمال والعدالة والخير والنظام وغير ذلك، وهي أمراض «أعلى» من العصاب الذي يبدو وأنه يأتي أساسا من الحرمان من الحاجات الأساسية للأمن والحب والاحترام وتقدير الذات.

وأملي أن هذا التصور النظري: أ– سوف يعطي معنى أكثر تفصيلا لمصطلح «التسامي بالذات» او، «تجاوز الذات»، ب – وسوف يمهد السبيل أمام البحث العلمي تطلعا لآفاق أفضل.

مراجع

BUBLER.CHARLOTTE. Values un psychotherapy. Free Press, 1962.

FRANKL V. From death-camp 1o eaistentiulesm Beatun Press, 1959.

MASLOW, A. H. Moivation amd personality. Harper & Bra. 1954.

MASLOW. A. H. Religions, volues. und peak-eaperences. Ohso State Univer. Press, 1964.

MASLOWA H. Eupsychian mantagemen: a jounal. Iwn, Dorsey, 1965 a.

MASLOW, A. H. Criteria for udgsng needs to he instometord. In M. R. Joncs (Ed.), Human moiaton. a synposiun. Univer, Nebraska Press, 1965 b.

MASLOW. A. H. The psychotozy of science. Harper & Row. 196.

StHOSTROM. E. Personal orientatioa inventory. San Diego, Calif: Educateonal & In- dusiriał Testing Service, 1962.

Notes

[← 1]

Psychopathology of the Masses. يمثل هذا المصطلح شكلا مختلفا لعبارة مشهورة ولعنوان كتاب ألفه «ليبون» LeBon، وذلك إذا كان لي أن أشتقه على هذا النحو.

[←2]

«Affectus, qui passio est, desinit esse passio simulatque eius claram et distinctam for mamus ideam»

[← 3]

«The Third Viennese School of Psychotherapy» وهي بعد مدرستي فرويد وادلر.

[← 4]

Pharisee الفريسيون طائفة من اليهود عاشت في عهد المسيح عليه السلام وعرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة، وبالتظاهر بالصلاح والتقوى.

[←5]

ذلك هو الشكل الأول لكتابي الأول الذي نشر ترجمته الانجليزية «الفريد كنويف» Alfred A.Knopf عام 1995 في نيويورك تحت عنوان: الطبيب والروح: مقدمة في العلاج بالمعني،.

(The doctor and the soul: An introduction to logotherapy).

[← 6]

يطلق على هذا الشكل من أشكال المرض النفسي «عصاب يوم الأحد» (Sunday neurosis)

[←7]

Magda B.Arnold & John A. Gasson, The Human Person, Ronald Press, New York, 1954, P. 618

[← 8] epiphenomenon الظاهرة الثانوية المصاحبة، وهي التي تحدث كنتيجة لظاهرة أولية أساسية.

[←9]

Edith Weisskopf - Joelson: Some comments on a Viennese School of Psychiatry the Journal of Abnormal and Social Psycology, 51, 701-703, 1955.

[← 10]

Edith Weisskopf-Joelson: Logotherapy and existential analysis. Acta Psychotherap, 6. 193-204, 1958

[← 11]

يقول المثل العامي المصري: واللي بخاف من العفريت يطلع له..

[← 12]

لعلاج حالات العنة الجنسية، فان طريقة معينة في العلاج بالمعنى قد تطورت، استناداً إلى نظريتها الخاصة بفرط النية وفرط التفكر كما أشرنا إلى ذلك عاليه، ومن الطبيعي، أنه في هذا العرض الموجز لمبادئ العلاج بالمعنى، لا يتسع المجال لتناول هذا الأسلوب بتفصيلاته.

[← 13]

G.W.Allport: The individual and his Religion, New York: The Mackmillan Co. 1956, P.92.

[← 14]

cramp writer's –

وهو تشنج مؤلم في عضلات اليد والأصابع ينتج عادة عن مقاومة وشعورية ذات علاقة بالإفراط في الكتابة وتجعل صاحبها يبرر إحجامه عنها.

[← 15]

lobotomy – جراحة تجري في فموس المخ الجبهية

[←16]

يرجع الخوف من الأرق، في معظم الحالات، إلى عدم معرفة المريض بالحقيقة بان الكائن الحي (الأورجانزم) يزود نفسه بالحد الأدنى من مقدار النوم الذي يحتاجه في الواقع

[← 17] American Journal of Psychotherapy, 10: 134,1956.

[←18]

«Some Comments on a Viennese School of Psychiatry, The Journal of Abnormal and Social Psychology, 31, 301-703, 1955.

[← 19]

ينشط هذا غالباً نتيجة لخوف المريض من أن وساوسه تدل على مرض عقلي وشيك الوقوع أو حتى مرض عقلي حقيقي؛ والمريض بذلك غير واع بالحقيقة الأمبيريقية بأن عصاب الوساوس القهرية يقيه ضد مرض عقلي شكلي، أكثر مما يعرضه للخطر في هذا الاتجاه.

[← 20]

يؤيد هذا المبدأ ما يقرره «اولبورت» من أنه «كلما انتقل مركز الاهتمام والسعي من الصراع إلى أهداف غير ذاتية selfless gools، فان الحياة ككل تصبح أكثر سلامة رغم أن العصاب ربما لا يختفي كلية».

[← 21]

Mephistopheles – وهو أحد الشياطين السبعة الرئيسيين في اساطير العصور الوسطى.

[←22]

euthanasia programme – برنامج نازي لقتل من يشكو بمرض عضال قتلا خال من الالم

[← 23]

تكشف دراسة مستعرضة إحصائية، قام بها زملائي ممن يساعدونني في مستشفى فيينا البوليكلينيكي، أن حوالي ثلث المرضى الذين خبروا صورة إيجابية عن الاب قد ابتعدوا عن الدين في حياتهم فيها بعد؛ في حين أن معظم أولئك المرضى المفحوصين الذين كان عندهم صورة سلبية عن الأب قد أمكنهم رغم ذلك تكوين اتجاه ايجابي نحو الأمور الدينية.

[←24]

Viktor E. Frankl. Sell-transcendence as a human phenomenon. Journal of Humanistic psychology, 1966, Fall, 97-16

[← 25]

للوقوف على نظرية شارلوت بيهلر، يمكن للقارئ الرجوع إلى كتاب: ف. سيفرين: النفس الإنساني (ترجمة طلعت منصور وآخرين) القاهرة الأنجلو، ١٩٧٧، ص.

[←26]

A. H. Maslow, Comments on Dr. Frankl's paper. Journal of Humanistic Psychology, 1966, Fall, 107 - 112.